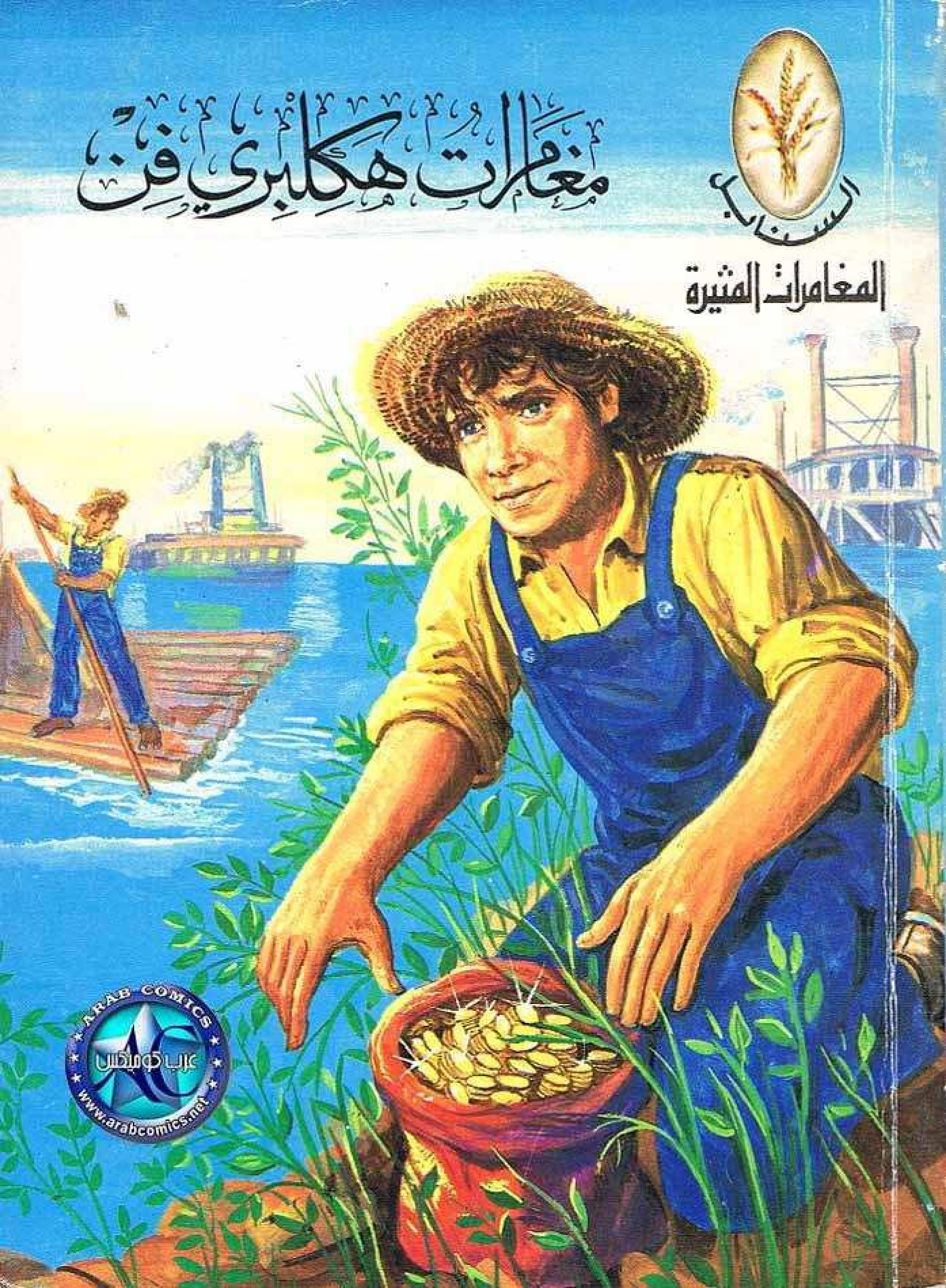
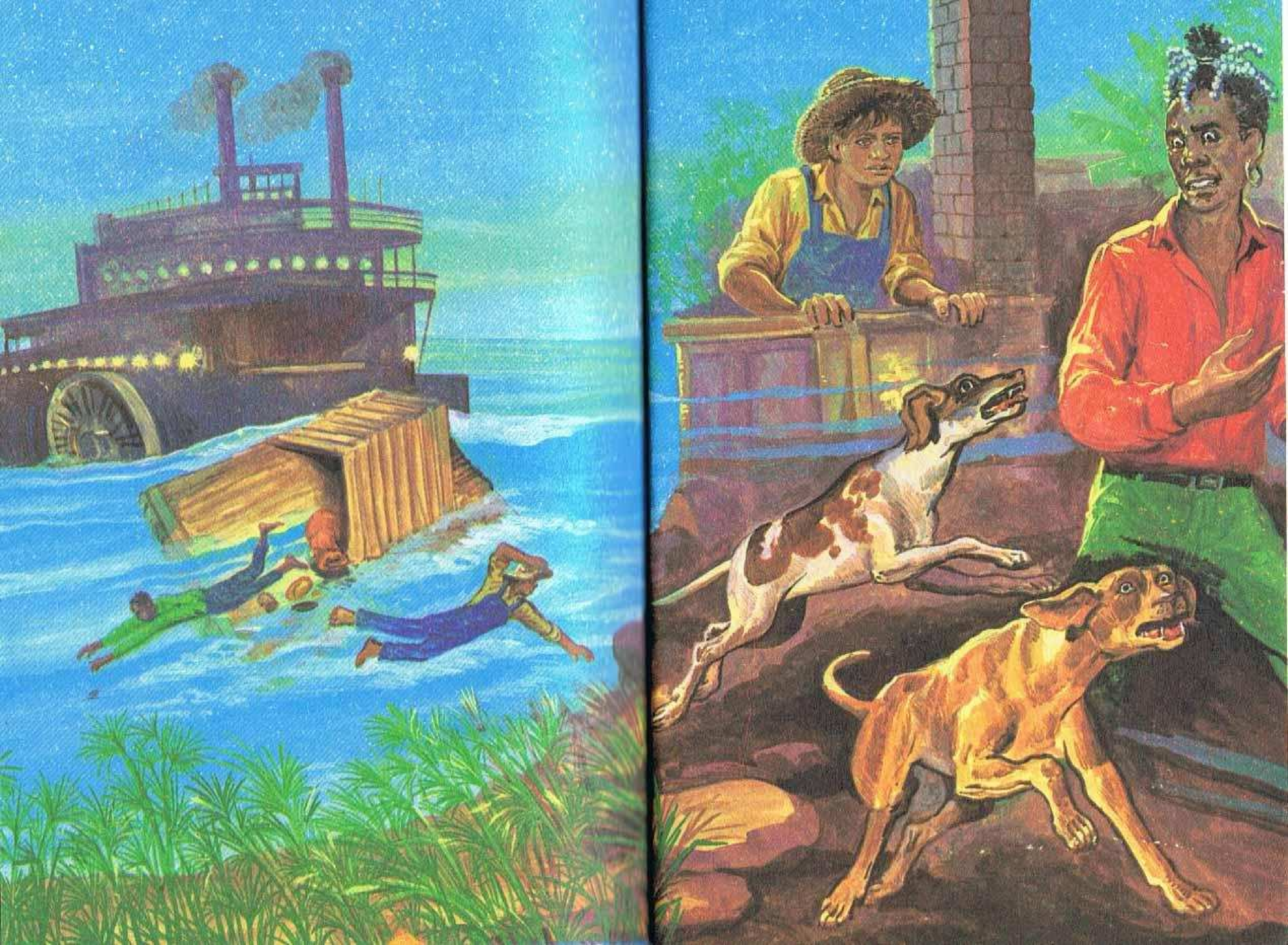


مغامرات هكلبري فن
سنابل
المغامرات المثيرة



رئيس التحرير : وجدي رزق غالي

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة ، مصر

الطبعة الأولى ١٩٩٢

رقم الإيداع : ٥٦٠٦ / ١٩٩٢

الترقيم الدولي : ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ٠١٠٢ - ٤

طبع في دار نوبار للطباعة



المغامرات المثيرة

مغامرات هكلبري فن



تأليف : مارك توين

أعدتها بالعربية : شوقي الأمير

رسوم : محمد قطب

مكتبة لبنان

الفَصْلُ الأوَّل

عِصابَة « توم سوير »

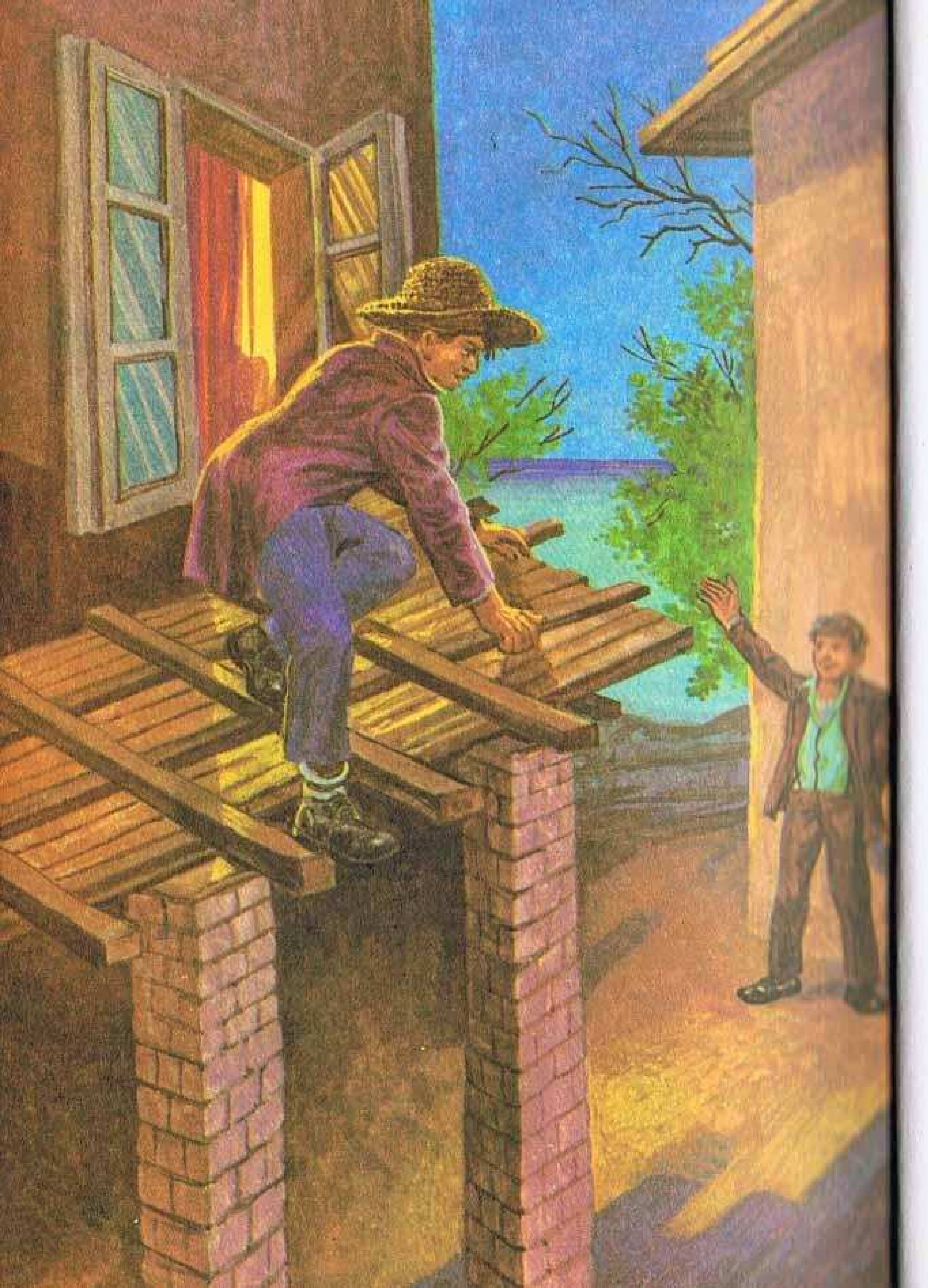
أعْتَقِدُ أنّكَ لَنْ تَعْرِفَني إلّا إذا كُنْتَ قَدْ قَرَأتَ مُغامَراتِ « توم سوير » ، علَى أنَّ هَذا لَيْسَ بِأمْرٍ ذي بالٍ .

لَقَدِ انْتَهى كِتابُ مُغامَراتِ « توم سوير » بِأنْ عَثَرْتُ أنا وَ « توم » عَلى المالِ الّذي كانَتْ عِصابَةُ اللُّصوصِ قَدْ خَبَّأَتْهُ في المَغارَةِ ، وَحَصَلَ كِلانا مِنْهُ عَلى سِتَّةِ آلافِ دولارٍ، كانَتْ كُلُّها مِنَ الذَّهَبِ. وَقَدْ قامَ القاضي « ثاتشر » بِإقْراضِها لِلآخَرينَ نَظيرَ فائِدَةٍ ، جَلَبَتْ لِكُلٍّ مِنّا دولاراً واحِداً في اليَوْمِ عَلى مَدارِ السَّنَةِ . وَبَعْدَها تَبَنَّتْني أرْمَلَةُ السَّيِّدِ «دوغلاس» ، وأعْلَنَتْ أنّها سَتَقومُ عَلى تَهْذيبي وَتَثْقيفي، وَلَكِنَّ الحَياةَ في مَنْزِلِها كانَتْ قاسِيَةً بِالنِّسْبَةِ لي ، خاصَّةً وَأنَّ عاداتِ الأرْمَلَةِ في مَعيشَتِها كانَتْ صارِمَةً ، مِمّا جَعَلَني لا أتَحَمَّلُ بَقائي في مَنْزِلِها ؛ فَهَرَبْتُ مِنْهُ . وَقابَلْتُ توم سوير ، الّذي أخْبَرَني

أنّهُ في سَبيلِهِ إلى تَكْوينِ عِصابَةٍ مِنَ اللُّصوصِ . وَعَرَضَ عَلَيَّ الانْضِمامَ لَها ، وَاشْتَرَطَ لِذلِكَ عَوْدَتي إلى بَيْتِ الأرْمَلَةِ ؛ فَرَجَعْتُ إلَيْهِ مَرَّةً أخْرى .

وَعِنْدَما رَأتْني الأرْمَلَةُ انْخَرَطَتْ في البُكاءِ ، وَراحَتْ تَدْعوني بِالحَمَلِ المِسْكينِ الضّائِعِ ، وَألْبَسَتْني مَرَّةً أخْرى تِلْكَ المَلابِسَ الجَديدَةَ الّتي كانَ عَرَقي يَتَصَبَّبُ مِنْها ، وأشْعُرُ بِالضّيقِ وَأنا بِداخِلِها. وَبَدأتِ العاداتُ القَديمَةُ مَرَّةً أخْرى ؛ فَكانَتِ الأرْمَلَةُ تَدُقُّ جَرَساً تَدْعونا بِهِ إلى العَشاءِ ، وَعَلَيْكَ أنْ تَصِلَ إلى المائِدَةِ في الوَقْتِ المُحدَّدِ ، غَيْرَ أنَّ هَذا لا يَعْني أنْ تَبْدأ عَلى الفَوْرِ في تَناوُلِ الطَّعامِ ، بَلْ لا بُدَّ أنْ تَنْتَظِرَ حَتّى تُحْنِيَ الأرْمَلَةُ رَأسَها وَتُبْدِيَ تَذَمُّرَها مِنَ الطَّعامِ ، رَغْمَ أنّهُ لَيْسَ بِهِ ما يَدْعو إلى هَذا التَّذَمُّرِ .

كانَتِ الآنِسَةُ « واطْسُن » أخْتُ الأرْمَلَةِ ، قَدْ وَصَلَتْ لِتَعيشَ مَعَها . وَالآنِسَةُ واطْسُن هَذِهِ عَجوزٌ لَمْ يَسْبِقْ لَها الزَّواجُ . وَكانَتْ تَضَعُ نَظّارَةً عَلى عَيْنَيْها . وَقَدْ بَدَأَتْ في تَلْقيني الدُّروسَ ، وَحَمَلَتْني عَلى أنْ أقْرَأَ في كِتابٍ لِلْهِجاءِ ساعَةً بِأكْمَلِها حَتّى أصابَني الضَّجَرُ وَالمَلَلُ . وَلَمْ أعُدْ أتَحَمَّلُ الجُلوسَ ساكِناً ، فَأخَذَتْ هي تَزْجُرُني وَتُوَجِّهُ إلَيَّ عِباراتِ اللَّوْمِ مِثْلَ : « لا تَضَعْ قَدَمَيْكَ هُناكَ ، يا هكلبري . لا تَرْقُدْ هَكَذا .. اِجْلِسْ مُنْتَصِباً .. لا تَتَثاءَبْ



وَتَتَمَدَّدْ بِهَذا الشَّكْلِ.. لِماذا لا تَسْلُكُ سُلوكاً حَسَناً؟»

وأخيراً جَمَعوا الخَدَمَ وَأَدَّوا الصَّلاةَ ، ثُمَّ ذَهَبَ كُلُّ فَرْدٍ إلى فِراشِهِ ، وَذَهَبْتُ أنا إلى غُرْفَةِ نَوْمي ، وَجَلَسْتُ بِجِوارِ النّافِذَةِ ، وَاسْتَوْلى عَلَيَّ شُعورٌ بِالوَحْدَةِ . وَفي مَجْلِسي هَذا تَناهى إلى سَمْعي صَوْتُ طائِرٍ لَيْلِيٍّ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ يَنْعى شَخْصاً قَدْ ماتَ مُنْذُ زَمَنٍ . كَما تَناهى إلى سَمْعي نُباحُ كَلْبٍ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ يَنْعى شَخْصاً يوشِكُ أَنْ يَموتَ ؛ فامْتَلأَتْ نَفْسي حُزْناً وَانْقِباضاً ، وَتَمَنَّيْتُ رَفيقاً يُؤْنِسُ وَحْدَتي .

كانَ قَدْ مَضى وَقْتٌ طَويلٌ حينَ سَمِعْتُ دَقّاتِ السّاعَةِ في المَدينَةِ تَشُقُّ سُكونَ اللَّيْلِ ، وَتَواصَلَتِ الدَّقّاتُ حَتّى بَلَغَتِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ دَقَّةً ، ثُمَّ عادَ السُّكونُ يَلُفُّ المَكانَ مَرَّةً أُخْرى ، سُكونٌ أَكْثَرُ إِطْباقاً مِنْ ذي قَبْلُ . وَسَمِعْتُ غُصْناً يَتَكَسَّرُ بَيْنَ الشَّجَرِ ، وَأَحْسَسْتُ بِشَيْءٍ يَتَحَرَّكُ ؛ ثُمَّ سَمِعْتُ بَعْدَ قَليلٍ مُواءً خافِتاً « مياوْ.. مياوْ » ، قُلْتُ في نَفْسي : « رائِعٌ ! » وَرَدَدْتُ عَلى المُواءِ بِمِثْلِهِ: « مياو .. مياو ! » كُنْتُ أُرَدِّدُ المُواءَ بِصَوْتٍ خافِتٍ قَدْرَ ما أَسْتَطيعُ ، ثُمَّ نَهَضْتُ مِنْ مَجْلِسي ، وَأَطْفَأْتُ الأَنْوارَ ، وَتَسَلَّلْتُ خارِجاً مِنَ النّافِذَةِ، وَهَبَطْتُ عَلى السَّقيفَةِ وَمِنْها إلى الأَرْضِ حَيْثُ وَجَدْتُ « توم سوير» يَنْتَظِرُني .

هَبَطْنا التَّلَّ عَلى الجانِبِ الآخَرِ مِنَ المَنْزِلِ ، فَوَجَدْنا هُناكَ « جو

هاربر » وَ « بن روجرز » وَاثْنَيْنِ أَوْ ثَلاثَةً آخَرِينَ مِنَ الأَوْلادِ . وَقُمْنا بِفَكِّ أَحَدِ القَوارِبِ وَانْطَلَقْنا بِهِ فِي النَّهْرِ مَسافَةَ ثَلاثَةِ كيلومترات ، حَتّى وَصَلْنا إِلى أَحَدِ مَعالِمِ الطَّرِيقِ القائِمَةِ عَلى جانِبِ التَّلِّ . وَهُناكَ هَبَطْنا مِنَ القارِبِ .

بَعْدَ هُبوطِنا اتَّجَهْنا نَحْوَ بَعْضِ الشُّجَيْراتِ ، وَهُناكَ قادَنا « توم » إِلى مَغارَةٍ مَوْجودَةٍ في التَّلِّ ، فَأَوْقَدْنا الشُّموعَ ، وَأَخَذْنا نَزْحَفُ داخِلِينَ مِنْ فُتْحَةِ المَغارَةِ ، حَتّى وَصَلْنا في نِهايَةِ الأَمْرِ إِلى مَكانٍ يُشْبِهُ الحُجْرَةَ . وَكانَ المَكانُ رَطْباً يَرْشَحُ بِالماءِ ، وَفِيهِ تَوَقَّفْنا عَنِ الزَّحْفِ ، وَجَلَسْنا .

قالَ توم : « سَنَبْدأُ الآنَ تَكْوِينَ العِصابَةِ ، وَعَلى كُلِّ شَخْصٍ يُرِيدُ الانْضِمامَ إِلَيْها أَنْ يُقْسِمَ بِأَنَّهُ سَيُطِيعُ قَوانِينَها » . ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ وَرَقَةً مَكْتوباً عَلَيْها هَذِهِ القَوانِينُ ، وَأَخَذَ يَقْرَأُها عَلَيْنا . وَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ القَوانِينُ أَنَّهُ عَلى كُلِّ عُضْوٍ أَنْ يُقْسِمَ عَلى الإِخْلاصِ لِلْعِصابَةِ ، وَأَنْ يُقْسِمَ أَنَّهُ لَنْ يَقومَ أَبَداً بِإِفْشاءِ أَسْرارِها ، وَأَنَّهُ إِذا ما أَصابَ شَخْصٌ أَحَدَ أَفْرادِ العِصابَةِ بِأَذًى ، يُقْتَلُ هَذا الشَّخْصُ هُوَ وَعائِلَتُهُ ، وَعَلى عُضْوِ العِصابَةِ الَّذِي يُكَلَّفُ بِهَذا العَمَلِ أَنْ يُنَفِّذَهُ فَوْراً وَصاحَ الأَعْضاءُ جَمِيعُهُمْ إِعْجاباً عِنْدَ سَماعِهِمْ هَذِهِ القَوانِينَ .

قالَ بن روجرز : « وَلَكِنْ ، ما عَمَلُ هَذِهِ العِصابَةِ ؟ »

قالَ توم : « سَنَقومُ بِاعْتِراضِ العَرَباتِ في الطَّرِيقِ ، وَإِيقافِها . وَنَقْتُلُ رُكّابَها وَنَسْتَوْلِي عَلى ساعاتِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ ، بِاسْتِثْناءِ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَأْسِرونَهُمْ وَتَسوقونَهُمْ إِلى هُنا ، فَنَحْبِسُهُمْ حَتّى نَتَلَقّى عَنْهُمْ فِدْيَةً . »

قالَ بن روجرز : « فِدْيَةٌ ؟ ما هَذِهِ الفِدْيَةُ ؟ »

رَدَّ توم : « لا أَعْرِفُ ، وَلَكِنَّ هَذا هُوَ ما تَفْعَلُهُ العِصاباتُ . لَقَدْ قَرَأْتُ ذَلِكَ في الكُتُبِ . وَبِالطَّبْعِ يَجِبُ عَلَيْنا أَنْ نَفْعَلَ مِثْلَهُمْ . »

قالَ بن : « وَلَكِنْ كَيْفَ نَفْعَلُهُ ما دُمْنا لا نَعْرِفُهُ . »

صاحَ توم : « اللَّعْنَةُ ! هَذا ما يَجِبُ أَنْ نَفْعَلَهُ . هَلْ تُرِيدُ أَنْ نَفْعَلَ شَيْئاً مُخْتَلِفاً عَمّا في الكُتُبِ ، وَتُفْسِدَ عَلَيْنا كُلَّ شَيْءٍ ؟ »

أَجابَ بن : « وَلَكِنْ خَبِّرْنِي ، يا توم سوير ، كَيْفَ نَتَلَقّى فِدْيَةً عَنْ هَؤُلاءِ النّاسِ ما دُمْنا لا نَعْرِفُ مَعْنى هَذا العَمَلِ ؟ كَيْفَ سَيَحْدُثُ هَذا ؟ »

قالَ توم بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ : « لا أَعْرِفُ . رُبَّما يَكونُ مَعْنى (أَنْ نَحْبِسَهُمْ حَتّى نَتَلَقّى عَنْهُمْ فِدْيَةً) أَنْ نَحْبِسَهُمْ حَتّى يَموتوا . »

رَدَّ عَلَيْهِ بن روجرز قائِلاً : « سَيُسَبِّبُ لَنا هَذا العَمَلُ الكَثِيرَ مِنَ المَتاعِبِ ، فَإِنَّهُمْ سَيَأْكُلونَ كُلَّ ما لَدَيْنا مِنْ طَعامٍ ، وَسَيُحاوِلونَ

الهَرَبَ بِاسْتِمْرارٍ .»

قالَ توم ساخِراً : « ما مَعْنى هَذا الكَلامِ ، يا بن روجرز ؟ كَيْفَ يَسْتَطيعونَ الهَرَبَ ، إذا كانَ سَيَقومُ عَلى حِراسَتِهِمْ حارِسٌ عَلى اسْتِعْدادٍ لأنْ يُطلِقَ عَلَيْهِمُ الرَّصاصَ لَوْ حَرَّكَ أحَدُهُمْ أصْبَعَهُ ؟ »

أجابَ بن روجرز عَلى سُخْرِيَتِهِ بِتَهَكُّمٍ قائِلاً : « حارِسٌ ! جَميلٌ جِدًّا ! مَعْنى هَذا أنَّ أحَدَنا سَيَقومُ اللَّيْلَ عَلى مُراقَبَتِهِمْ دونَ أنْ يَذوقَ لِلنَّوْمِ طَعْماً ؟ أعْتَقِدُ أنَّ هَذا حُمْقٌ مِنّا . لِماذا لا يَأخُذُ أحَدُنا عَصاً وَيَفْتَديهِمْ بِمُجَرَّدِ أنْ يَصِلوا إلى هُنا ؟ »

قالَ توم : « لأنَّ هَذا لا يَتَّفِقُ مَعَ ما هُوَ مُدَوَّنٌ في الكُتُبِ . هَذا هُوَ السَّبَبُ . »

قالَ بن روجرز : « حَسَناً ؛ وَهَلْ نَقْتُلُ النِّساءَ أيْضاً ؟ »

وَهُنا فاضَ الكَيْلُ بِتوم فَقالَ بِنَبْرَةٍ ساخِرَةٍ : « بن روجرز ، لَوْ كُنْتُ غَبِيًّا مِثْلَكَ لَكانَ مِنَ الأفْضَلِ لي أنْ أغْلِقَ فَمي وَلا أتَفَوَّهَ بِكَلِمَةٍ . نَقْتُلُ النِّساءَ ؟ لَمْ يَرَ أحَدٌ مِثْلَ هَذا في الكُتُبِ . إنَّ عَلَيْكَ أنْ تُحْضِرَهُنَّ إلى المَغارَةِ ، وَتُحاوِلَ أنْ تَكونَ مُهَذَّباً مَعَهُنَّ بِصِفَةٍ دائِمَةٍ . وَبَعْدَ مُضِيِّ بَعْضِ الوَقْتِ سَيَقَعْنَ في حُبِّكَ وَيَرْفُضْنَ الذَّهابَ إلى بُيوتِهِنَّ مُطْلَقاً . »

قالَ بن روجرز : « إذاً لَنْ يَمُرَّ وَقْتٌ طَويلٌ حَتّى نَرى المَغارَةَ مُكْتَظَّةً بِالنِّساءِ وَبِالأشْخاصِ الَّذينَ يَنْتَظِرونَ أنْ يُفْتَدَوْا ، وَفي النِّهايَةِ لَنْ نَجِدَ مَكاناً لأفْرادِ العِصابَةِ . وَلَكِنِ اسْتَمِرَّ في حَديثِكَ فَلَيْسَ لَدَيَّ ما أقولُهُ لَكَ بَعْدَ ذَلِكَ . »

عَقِبَ ذَلِكَ الحَديثِ قُمْنا بِانْتِخابِ توم سوير زَعيماً أوَّلَ لِلْعِصابَةِ وَجو هاربر زَعيماً ثانِياً لَها ، ثُمَّ بَدَأنا نَعودُ إلى مَنازِلِنا . وَرَجَعْتُ أنا إلى المَنْزِلِ ، وَتَسَلَّقْتُ السَّقيفَةَ ، وَتَسَلَّلْتُ إلى غُرْفَتي مِنْ خِلالِ النّافِذَةِ ، في الوَقْتِ الَّذي كانَ فيهِ النَّهارُ يَبْزُغُ . وَنَظَرْتُ إلى مَلابِسي الجَديدَةِ فَرَأيْتُها مُغَطّاةً بِالطّينِ وَشَحْمِ الشُّموعِ ، وَكانَ الإرْهاقُ قَدْ نالَ مِنّي ، لِذَلِكَ لَمْ أسْتَطِعْ فِعْلَ شَيْءٍ . »

في الصَّباحِ أغْرَقَتْني الآنِسَةُ واطسُن بِسَيْلٍ مِنَ التَّقْريعِ وَاللَّوْمِ لِما أصابَ مَلابِسي ، بِعَكْسِ الأرْمَلَةِ الَّتي قامَتْ بِتَنْظيفِ مَلابِسي مِنَ الشَّحْمِ وَالطّينِ دونَ أنْ تُوَجِّهَ إلَيَّ كَلِمَةً ، إلّا أنَّ وَجْهَها كانَ يَبْدو عَلَيْهِ الأسى ، لِدَرَجَةِ أنَّني فَكَّرْتُ في أنْ أحَسِّنَ مِنْ سُلوكي ، وَلَوْ لِفَتْرَةٍ مِنَ الوَقْتِ ، وَعَلى قَدْرِ ما أسْتَطيعُ .

اِخْتَفى أبي عَنِ الأنْظارِ سَنَةً بِأكْمَلِها ، وَكُنْتُ سَعيداً بِذَلِكَ ؛ لأنَّهُ كانَ مُعْتاداً ضَرْبي . وَقَدْ تَناثَرَتْ أقاويلُ أثْناءَ غِيابِهِ بِأنَّهُ وُجِدَ غَريقاً عَلى بُعْدِ عِشْرينَ كيلومِتْراً مِنَ المَدينَةِ ، وَقَدْ ظَنَّ النّاسُ أنَّ

الغَريقَ هو أبي ؛ لأنّهُ كانَ يُماثِلُهُ حَجْماً ، وَيَرتَدي مَلابِسَ رَثّةً ، وَلَهُ شَعْرٌ طَويلٌ مِثْلُ شَعْرِ أبي .

مَرَّ عَلَيْنا شَهْرٌ وَنَحْنُ نَلْعَبُ لُعْبَةَ اللُّصوصِ . وَكُنّا نَقومُ بِهَذِهِ اللُّعْبَةِ بَيْنَ الحينِ والآخَرِ ، ثُمَّ استَقالَ جَميعُ الأوْلادِ مِنَ العِصابَةِ . غَيْرَ أنّنا خِلالَ هَذا الشَّهْرِ لَمْ نَسْرِقْ شَيْئاً وَلَمْ نَقْتُلْ أحَداً ، بَلْ كُنّا نَتَظاهَرُ بِذَلِكَ . وَقَدِ اعْتَدْنا أنْ نَثِبَ مِنَ الغابَةِ وَنُهاجِمَ رُعاةَ الأغْنامِ ، وَالنِّساءَ اللّائي يَرْكَبْنَ العَرَباتِ في صُحْبَةِ بِضاعَتِهِنَّ مِنَ الخَضْراواتِ ، وَهُنَّ مُتَّجِهاتٌ إلى السُّوقِ ، وَلكِنّنا لَمْ نَسْرِقْ أحَداً مِنْهُمْ أوْ مِنْهُنَّ . وَكانَ توم سوير يُسَمّي الأغْنامَ قُضْبانَ الذَّهَبِ وَيُسَمّي الخُضَرَ جَواهِرَ . وَقَدِ اعْتَدْنا كَذَلِكَ أنْ نَذْهَبَ إلى المَغارَةِ وَنَحْسُبَ عَدَدَ مَنْ قَتَلْنا مِنَ النّاسِ . وَذاتَ مَرّةٍ أرْسَلَ توم سوير وَلَداً يَطوفُ المَدينَةَ وَهُوَ يَحْمِلُ مِشْعَلاً مُتَّقِداً ، وَكانَتْ هَذِهِ هِيَ العَلامَةَ المُتَّفَقَ عَلَيْها لِدَعْوَةِ العِصابَةِ إلى الاجْتِماعِ . وَعِنْدَما اجْتَمَعْنا في المَغارَةِ قالَ لَنا توم سوير إنّهُ بَلَغَتْهُ أخْبارٌ مُهِمّةٌ وَسِرّيّةٌ عَنْ جَماعَةٍ كَبيرَةٍ مِنَ التُّجّارِ الإسْبانِ وَالأثْرِياءِ العَرَبِ ، سَيُقيمونَ لَهُمْ مُعَسْكَراً في اليَوْمِ التّالي ، في « مَغارَةِ هولو » وَقَدْ صَحِبوا مَعَهُمْ مِئَتَيْنِ مِنَ الأفْيالِ ، وَسِتَّمِئَةٍ مِنَ الجِيادِ ، وَما يَزيدُ عَلى الألْفِ مِنَ الحَميرِ ، وَكُلُّها مُحَمَّلَةٌ بِالألْماسِ . وَلا يَحْرُسُ تِلْكَ الجَماعَةَ سِوى حَرَسٍ

يَتألَّفُ مِنْ أرْبَعمِئَةِ جُنْدِيٍّ ، وَلِذَلِكَ فَإنَّ بِاسْتِطاعَتِنا أنْ نَكْمُنَ في انْتِظارِها ، وَأنْ نَقْتُلَ عَدَداً كَبيراً مِنْ أفْرادِها ، وَنَسْتَوْلِيَ عَلى الألْماسِ . وَقالَ لَنا أيْضاً إنَّ عَلَيْنا أنْ نُنَظِّفَ بَنادِقَنا ، وأنْ نَشْحَذَ سُيوفَنا ؛ وَما كانَتْ تِلْكَ البَنادِقُ وَتِلْكَ السُّيوفُ سِوى قِطَعٍ مِنَ الخَشَبِ ، ما كانَتْ لِتُشْحَذَ أوْ تُنَظَّفَ حَتّى وَلَوْ أخَذْتَ تُدَلِّكُها حَتّى يُصيبَكَ الكَلالُ .

لَمْ يَدُرْ بِخَلَدي أنَّ بِإمْكانِنا أنْ نَهْزِمَ هَذا الحَشْدَ مِنَ الإسْبانِ وَالعَرَبِ ، وَلكِنَّني كُنْتُ أريدُ أنْ أرى الجِيادَ وَالأفْيالَ ، وَلِذَلِكَ كُنْتُ حاضِراً مَعَ العِصابَةِ في اليَوْمِ التّالي ، وَهُوَ يَوْمُ السَّبْتِ . وَعِنْدَما سَمِعْنا الأمْرَ انْدَفَعْنا مِنَ الغابَةِ ، وَهَبَطْنا التَّلَّ ، وَهُناكَ لَمْ نَجِدْ شَيْئاً ، لا إسْبانَ وَلا عَرَبَ ، وَلا جِيادَ وَلا أفْيالَ ، وَإنَّما كانَتْ رِحْلَةً مَدْرَسِيَّةً مِنَ الرِّحْلاتِ الَّتي تَقومُ بِها المَدارِسُ في نِهايَةِ الأسْبوعِ فَقُمْنا بِتَبْديدِ شَمْلِها ، وَأخَذْنا نُطارِدُ الأطْفالَ . إلّا أنّنا لَمْ نَحْصُلْ مِنْهُمْ عَلى شَيْءٍ سِوى بَعْضِ الكَعْكِ ؛ وَحَتّى هَذا الكَعْكُ قامَ المُدَرِّسُ المُرافِقُ لِلرِّحْلَةِ بِإرْغامِنا عَلى تَرْكِهِ بَعْدَ أنْ هاجَمَنا ، وَأجْبَرَنا عَلى أنْ نُلْقِيَ بِكُلِّ شَيْءٍ مَعَنا وَنَفِرَّ بِجُلودِنا .

لَمْ أرَ ألْماساً مَعَ أحَدٍ ، فَأخْبَرْتُ توم بِذَلِكَ ، فَقالَ لي : « لَقَدْ كانَتْ هُناكَ أحْمالٌ كَثيرَةٌ مِنْهُ ، وَكانَ هُناكَ عَرَبٌ وَأفْيالٌ أيْضاً . »

فَسَأَلْتُهُ : « لِماذا لَمْ نَسْتَطِعْ رُؤْيَتَهُمْ ؟ » فَأَجابَ بِأَنَّني لَوْ قَرَأْتُ كِتابَ دون كيشوت لَعَرَفْتُ السَّبَبَ دونَ أَنْ أُوجِّهَ سُؤالاً . لَقَدْ كانَ الأَمْرُ كُلُّهُ سِحْراً . إِنَّنا نُحارِبُ أَعْداءً يُسَمَّوْنَ السَّحَرَةَ . وَهَؤُلاءِ السَّحَرَةُ قاموا بِقَلْبِ الأَمْرِ كُلِّهِ إِلى رِحْلَةٍ مَدْرَسِيَّةٍ لِيُغيظونا .

قُلْتُ لَهُ : « إِذاً نُهاجِمُ السَّحَرَةَ . » إِلّا أَنَّ توم سوير نَعَتَني بِالأَحْمَقِ ، وَقالَ : « نُهاجِمُهُم ! إِنَّ السّاحِرَ يَسْتَطيعُ أَنْ يَسْتَدْعِيَ الكَثيرَ مِنَ العَفاريتِ ، الَّذينَ يُمْكِنُهُمْ أَنْ يُمَزِّقوكَ إِرْباً قَبْلَ أَنْ تَفْتَحَ فاكَ طَلَباً لِلنَّجْدَةِ . إِنَّ هَؤُلاءِ العَفاريتَ طِوالٌ كَالأَشْجارِ ، وَضِخامٌ كَالمَنازِلِ .»

قُلْتُ : « وَلَكِنْ لِنَفْرِضْ أَنَّنا اسْتَطَعْنا أَنْ نَسْتَعينَ بِبَعْضِ العَفاريتِ لِمُساعَدَتِنا ، أَلا يُمْكِنُنا أَنْ نَهْزِمَ عِنْدَئِذٍ الجَماعَةَ الأُخْرى ؟»

سَأَلَ توم : « وَكَيْفَ نَحْصُلُ عَلى هَؤُلاءِ العَفاريتِ ؟»

أَجَبْتُهُ : « لا أَعْرِفُ . كَيْفَ يَسْتَدْعيهِمُ السَّحَرَةُ ؟»

أَجابَ : « إِنَّهُمْ يَدْلُكونَ مِصْباحاً قَديماً أَوْ خاتَماً مِنَ الحَديدِ ، فَتَظْهَرُ العَفاريتُ وَسْطَ رَعْدٍ وَبَرْقٍ وَسُحُبٍ مِنَ الدُّخانِ . وَهَذِهِ العَفاريتُ تَقومُ بِخِدْمَةِ مَنْ يَدْعَكُ المِصْباحَ أَوِ الخاتَمَ ، فَإِذا أَمَرَهُمْ أَنْ يَبْنوا قَلْعَةً طولُها سِتّونَ كيلومِتْراً وَيَمْلَئُوها لَهُ بِالحَلْوى ، أَوْ بِما

يَشْتَهي مِنْ أَنْواعِ الطَّعامِ ، أَوْ يُحْضِروا لَهُ ابْنَةَ مَلِكِ الصّينِ كَيْ يَتَزَوَّجَها ، فَإِنَّهُمْ سَيَفْعَلونَ ذَلِكَ قَبْلَ شُروقِ اليَوْمِ التّالي .»

وَقَرَّرْتُ أَنْ أَخْتَبِرَ صِحَّةَ هَذا الكَلامِ ، فَأَحْضَرْتُ مِصْباحاً قَديماً مِنَ الصَّفيحِ وَخاتَماً مِنَ الحَديدِ ، وَأَخَذْتُ أَدْعَكُهُما وَأَدْعَكُهُما حَتَّى تَصَبَّبْتُ عَرَقاً مِثْلَ حُصانٍ . وَكُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّني سَآمُرُ العَفاريتَ بِبِناءِ قَلْعَةٍ ثُمَّ أَبيعُها ، إِلّا أَنَّهُ لَمْ يَظْهَرْ لي عِفْريتٌ واحِدٌ ؛ عِنْدَئِذٍ آمَنْتُ أَنَّ هَذا كُلَّهُ لَيْسَ إِلّا خَيالاً يَدورُ في عَقْلِ توم سوير .

الفَصْلُ الثّاني
هَكْ يَعيشُ مَعَ أبيه

انْقَضَتْ ثَلاثَةُ أشْهُرٍ ، أوْ رُبَّما أرْبَعَة ، وَدَخلَ فَصْلُ الشّتاءِ . وَكُنْتُ مُعظَمَ ذَلِكَ الوَقْتِ أتَرَدَّدُ على المَدْرَسَةِ ، وَأصبحَ بِاسْتِطاعَتي الآنَ أنْ أتَهجّى الحُروفَ ، وَأكْتُبَ وَأقْرَأ قَليلاً .

في البِدايَةِ كُنْتُ أكْرَهُ المَدْرَسَةَ ، ولكِنَّني سَرْعانَ ما اعْتَدْتُها . كَما أنَّ عاداتِ وَتَقاليدَ الأرْمَلَةِ لَمْ تَعُدْ تُسَبِّبُ لي ألَماً أوْ ضيقاً . وَكانَتْ تَقولُ لي إنّها راضِيَةٌ عَنْ تَقَدُّمي ، وَلَمْ تَعُدْ تَخجَلُ مِنْ تَصرُّفاتي .

وَحَدَثَ ذاتَ صَباحٍ أنْ قَلَبْتُ المِلحَ على طَعامِ الإفْطارِ ، وَكانَ ذَلِكَ لأنَّني حاوَلْتُ أنْ أمُدَّ يَدي بِسُرْعَةٍ لآخُذَ بَعْضاً مِنْه ؛ كَي ألْقيَهُ مِنْ على كَتِفي اليُسْرى حَتى أبْعِدَ عَنّي سوءَ الحَظِّ ، إلّا أنَّ الآنِسَةَ واطسُن صاحَتْ عَلَيَّ قائِلَةً : « أبْعِدْ يَدَيْكَ ، يا هَكِلبري !

يا لَكَ مِنْ وَلَدٍ أحْمَقَ !»

تَوَجَّهْتُ إلى المَدْرَسَةِ بَعْدَ الإفْطارِ وَأنا أحِسُّ بِالقَلَقِ . وَهَبَطْتُ الدَّرَجَ إلى الحَديقَةِ الأماميَّةِ ، وَتَسلَّقْتُ سورَها المُرْتَفِعَ ، فَرَأيْتُ الثَّلجَ يُغَطّي الأرْضَ بِارْتِفاعِ ثَلاثَةِ سَنْتيمِتْراتٍ ، كَما رَأيْتُ آثارَ أقْدامِ أحَدِ الأشْخاصِ ، فانْحَنَيْتُ لأنْظُرَ إلَيْها فَرَأيْتُ أثَراً لِشَكْلٍ مِنْ تِلْكَ الأشْكالِ ، الَّتي يَصْنَعُها البَعْضُ في كُعوبِ أحْذِيَتِهِمْ مِنَ المَساميرِ ؛ بُغْيَةَ إبْعادِ الشَّيْطانِ عَنْهُمْ . وَكانَ هذا الشَّكْلُ في كَعْبِ فَرْدَةِ الحِذاءِ اليُسْرى. فَنَهَضْتُ مِنْ مَكاني سَريعاً ، وَهَبَطْتُ التَّلَّ قَفزاً ، وَوَصَلْتُ إلى بَيْتِ القاضي ثاتشر في مِثْلِ لَمْحِ البَصَرِ .

سَألَني القاضي ثاتشر : « ماذا حَدَثَ يا بُنَيَّ ؟ إنَّ جَسَدَكَ يَنْتَفِضُ . هَلْ جِئْتَ في طَلَبِ فائِدَةِ أمْوالِكَ ؟»

قُلْتُ : « لا ، يا سَيِّدي ، بَلْ أريدُ أنْ أتَنازَلَ لَكَ عَنْها ، هِيَ وَالسِّتَّةِ آلافِ دولارٍ . أرْجوكَ أنْ تَقْبَلَها ، وَلا تَسْألْني عَنِ الأسْبابِ حَتّى لا أضْطَرَّ لِلْكَذِبِ .»

فَكَّرَ القاضي ثاتشر في الأمْرِ قَليلاً ، ثُمَّ قامَ وَدَوَّنَ شَيْئاً في قِطْعَةِ وَرَقٍ قائِلاً : « حَسَناً ، هَذا يَعْني أنَّني اشْتَرَيْتُها مِنْكَ وَدَفَعْتُ لَكَ قيمَتَها. خُذْ ، هَذا دولارٌ لَكَ وَ وَقِّعْ لي على هَذِهِ الوَرَقَةِ.» فَوَقَّعْتُها ، وَغادَرْتُهُ .

عِنْدَما صَعِدْتُ إلى غُرْفَتي تِلْكَ اللَّيْلَةَ كانَ أبي يَجْلِسُ فيها ، فَقَدْ دَخَلْتُ الغُرْفَةَ ، وَأَغْلَقْتُ البابَ ، ثُمَّ اسْتَدَرْتُ فَفوجِئْتُ بِهِ جالِساً . لَمْ أَكُنْ خائِفاً مِنْهُ بِقَدْرِ ما كُنْتُ مُتَضايِقاً .

كانَ شَعْرُهُ طَويلاً أَشْعَثَ قَذِراً يَتَدَلَّى عَلى وَجْهِهِ ، وَتَلْمَعُ عَيْناهُ مِنْ خِلالِهِ . كانَ شَعْرُهُ أَسْوَدَ ، وَشارِبُهُ أَسْوَدَ ، ولا لَوْنَ لأيٍّ مِنَ التَّقاطيعِ الَّتي تَبْرُزُ مِنْ وَجْهِهِ مِنْ خِلالِ شَعْرِهِ . أَمّا مَلابِسُهُ فَكانَتْ عِبارَةً عَنْ أَسْمالٍ بالِيَةٍ . وَعِنْدَما وَقَعَ نَظَري عَلى النّافِذَةِ لاحَظْتُ أَنَّها مَفْتوحَةٌ ، فَأَدْرَكْتُ أَنَّهُ تَسَلَّلَ إلى غُرْفَتي عَنْ طَريقِ السَّقيفَةِ .

ظَلَّ أبي يَنْظُرُ إِلَيَّ طَويلاً دونَ أَنْ يَفْتَحَ فاهُ بِكَلِمَةٍ ، وَأَخيراً قالَ : « مَلابِسُكَ جَميلَةٌ – جَميلَةٌ جِدًّا ! تَظُنُّ نَفْسَكَ شَخْصاً ذا قيمَةٍ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ كَما أَنَّكَ مُتَعَلِّمٌ أَيْضاً . هُمْ يَقولونَ ذَلِكَ . تَسْتَطيعُ أَنْ تَقْرَأَ وَأَنْ تَكْتُبَ ، وَتَظُنُّ نَفْسَكَ أَفْضَلَ مِنْ أَبيكَ ؛ لأَنَّهُ لا يَعْرِفُ القِراءَةَ ولا الكِتابَةَ . دَعْني أَسْمَعْكَ وَأَنْتَ تَقْرَأ . » فَتَناوَلْتُ كِتاباً ، وَأَخَذْتُ أَقْرَأُ شَيْئاً عَنْ جورج واشِنْطُن وَعَنِ الحُروبِ الَّتي خاضَها .

واصَلْتُ القِراءَةَ لِمُدَّةِ دَقيقَةٍ ، وَفَجْأَةً طَوَّحَ أبي الكِتابَ مِنْ يَدي وَقالَ : « إِنَّكَ تَعْرِفُ القِراءَةَ حَقًّا . انْتَبِهْ إِلَيَّ .. لَوْ حَدَثَ وَرَأَيْتُكَ

بِالقُرْبِ مِنْ تِلْكَ المَدْرَسَةِ فَسَوْفَ أَسْلَخُ جِلْدَكَ . »

وَجَلَسَ يُتَمْتِمُ بِكَلِماتٍ غَيْرِ مَفْهومَةٍ . وَأَخيراً قالَ : « أَنْتَ الآنَ طِفْلٌ مُدَلَّلٌ ، تَفوحُ مِنْكَ رائِحَةٌ حُلْوَةٌ ، وَلَكَ فِراشٌ ، وَمَلابِسُ لِلنَّوْمِ ، وَمِرْآةٌ ، وَبِساطٌ عَلى الأَرْضِ – وَأَبوكَ يَنامُ في العَراءِ ! وَيَقولونَ أَيْضاً إِنَّكَ ثَرِيٌّ . لَقَدْ كُنْتُ في المَدينَةِ مُنْذُ يَوْمَيْنِ وَسَمِعْتُهُمْ يَتَحَدَّثونَ عَنْكَ وَعَنْ ثَرْوَتِكَ . وَلَقَدْ سَمِعْتُ ذَلِكَ أَيْضاً عِنْدَ النَّهْرِ ، وَكانَ ذَلِكَ هُوَ السَّبَبَ الَّذي جَعَلَني آتي إلى هُنا . أَحْضِرْ لي هَذا المالَ غَداً ؟ أَتَسْمَعُني ؟ أَنا أُريدُهُ . »

أَجَبْتُهُ قائِلاً : « لَيْسَ لَدَيَّ مالٌ ، وَيُمْكِنُكَ أَنْ تَسْأَلَ القاضِيَ ثاتشر ، وَسَيُخْبِرُكَ بِذَلِكَ . »

قالَ أبي : « حَسَناً ، سَوْفَ أَسْأَلُهُ . وَلَكِنْ أَخْبِرْني كَمْ مَعَكَ الآنَ في جَيْبِكَ ؟ »

قُلْتُ : « دولارٌ واحِدٌ فَقَطْ ، وَأَنا أُريدُهُ لِكَي ... »

قاطَعَني أبي صائِحاً : « هاتِهِ ! » وَأَخَذَ مِنّي الدّولارَ قائِلاً إِنَّهُ ذاهِبٌ إلى المَدينَةِ لِيَشْتَرِيَ شَراباً .

في اليَوْمِ التّالي ذَهَبَ أبي إلى بَيْتِ القاضي ثاتشر ، وَحاوَلَ أَنْ

يُرْغِمَهُ على أنْ يَتخلّى عَنِ المالِ ، غَيْرَ أنّهُ لَمْ يُفلِحْ في ذَلِكَ ، فأقْسَمَ أنّهُ سَيُجْبِرُهُ على ذَلِكَ في المَحْكَمَةِ .

وَلَجأ القاضي ثاتشر وَالأرْمَلَةُ إلى المَحْكَمَةِ لِكَيْ تَقْضِيَ بإبْعادي عَنْ أبي ، وَإقامَةِ أحَدِهِما وَصِيًّا عَلَيَّ ، إلّا أنَّ قاضِيَ المَحْكَمَةِ القَديمَ كانَ قَدْ تَغَيَّرَ ، وَجاءَ في مَكانِهِ قاضٍ جَديدٌ لا يَعْرِفُ شَيْئاً عَنْ أبي . وَرَفَضَ هَذا القاضي إبْعادي عَنْ أبي قائِلاً إنَّهُ لا يُفَضِّلُ أنْ يَنْزِعَ طِفْلاً مِنْ أبيهِ .

وذَهَبَ أبي إلى المَحْكَمَةِ لِمُهاجَمَةِ القاضي ثاتشر حَتّى يُرْغِمَهُ عَلى التَّخَلّي عَنِ المالِ ، ثُمَّ قامَ بِضَرْبي لأنَّني لَمْ أقْلِعْ عَنِ الذَّهابِ إلى المَدْرَسَةِ .

وَبَدأ كَذَلِكَ يُكْثِرُ مِنَ التَّرَدُّدِ على بَيْتِ الأرْمَلَةِ ، فَهَدَّدَتْهُ أنّهُ ما لَمْ يَبْتَعِدْ عَنْها فَإنّها سَتُثيرُ المَتاعِبَ في وَجْهِهِ ؛ فَجُنَّ جُنونُهُ ، وَتَوَعَّدَها بِأنَّهُ سَيُريها مَنْ هُوَ والِدُ « هَكْ » .

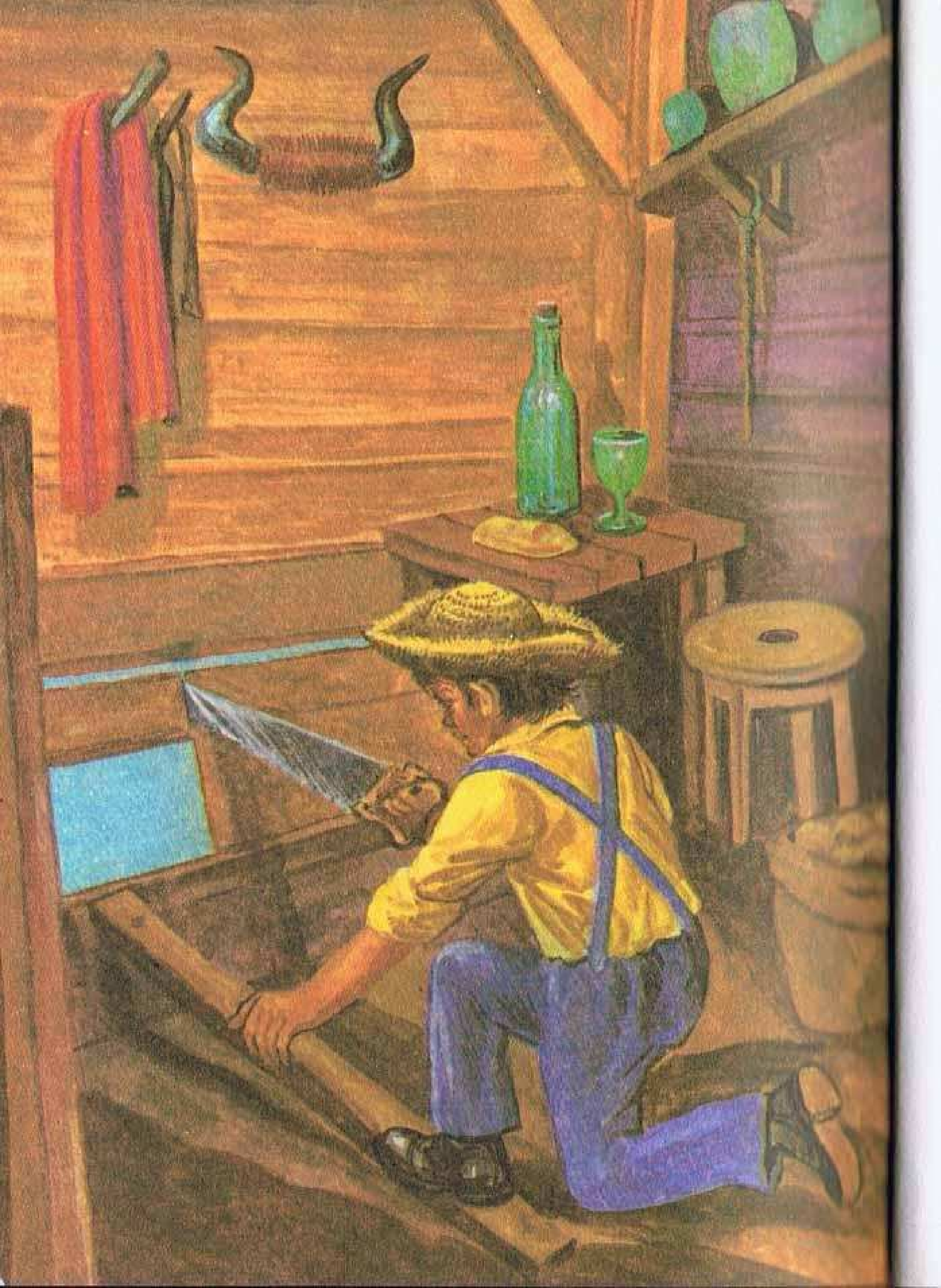
وَذاتَ يَوْمٍ أمْسَكَ بي وَأخَذَني مَعَهُ في قارِبٍ سارَ بِنا في النَّهْرِ خَمْسَةَ كيلومِتْراتٍ تَقْريباً ، ثُمَّ نَزَلْنا وَقَطَعْنا مَسافَةً طَويلَةً سَيْراً على الأقْدامِ ، حَتّى بَلَغْنا كوخاً قَديماً في الغابَةِ ، كانَ مُقاماً مِنْ جُذوعِ الأشْجارِ .

وَلَمْ تَسْنَحْ لي فُرْصَةٌ لِلْهَرَبِ قَطُّ ؛ فَقَدْ كانَ أبي يُغْلِقُ البابَ بِالمِفْتاحِ بِصِفَةٍ دائِمَةٍ ، وَكانَ يَضَعُ المِفْتاحَ تَحْتَ رَأسِهِ لَيْلاً . وَكانَتْ لَدَيْهِ بُنْدُقِيَّةٌ ، فَكُنّا نَقومُ بِصَيْدِ السَّمَكِ وَقَنْصِ الطُّيورِ ، وَعَلى هَذا الصَّيْدِ كُنّا نَقْتاتُ .

وَكانَ يَقومُ بَيْنَ الحينِ وَالآخَرِ بِحَبْسي في الكوخِ ، وَيُغْلِقُ البابَ بِالمِفْتاحِ ، ثُمَّ يَذْهَبُ إلى المَتْجَرِ وَيَبيعُ بَعْضَ ما اصْطادَ مِنْ سَمَكٍ وَطُيورٍ ، وَيَشْتَري بِثَمَنِها زُجاجَةً مِنَ الشَّرابِ ، يُحْضِرُها إلى الكوخِ ، وَيَظَلُّ يَشْرَبُ طولَ اللَّيْلِ حَتّى يَفْقِدَ صَوابَهُ ، فَيَقومَ بِضَرْبي . وَانْقَضى شَهْرانِ عَلى هَذِهِ الحالِ حَتّى غَدَتْ مَلابِسي عِبارَةً عَنْ خِرَقٍ بالِيَةٍ رَثَّةٍ .

وَفي الآوِنَةِ الأخيرَةِ بَدَأ أبي يُكْثِرُ مِنِ اسْتِخْدامِ العَصا في ضَرْبي ، مِمّا جَعَلَني لا أحْتَمِلُ العَيْشَ مَعَهُ ، فَحاوَلْتُ مِراراً أنْ أهْرُبَ مِنَ الكوخِ ، إلّا أنّني لَمْ أجِدْ سَبيلاً إلى ذَلِكَ .

كانَتِ النّافِذَةُ المَوْجودَةُ في الكوخِ جِدَّ صَغيرَةٍ ، حَتّى إنَّهُ لا يُمْكِنُ لِكَلْبٍ أنْ يَنْفُذَ مِنْ خِلالِها ؛ أمّا المِدْخَنَةُ فَكانَتْ ضَيِّقَةً ؛ وَأمّا البابُ فَكانَ مَصْنوعاً مِنْ خَشَبٍ صُلْبٍ سُمْكُهُ خَمْسَةُ سَنْتيمِتْراتٍ . إلّا أنّني وَجَدْتُ في النِّهايَةِ شَيْئاً – وَجَدْتُ مِنْشاراً صَدِئاً لِنَشْرِ الخَشَبِ ، مُخَبَّأً بَيْنَ عَوارِضِ السَّقْفِ وَالْواحِهِ . وَأخَذْتُ المِنْشارَ ،



وَقُمْتُ بِتَزْيِيتِهِ ، ثُمَّ بَدَأْتُ أَنْشُرُ أَحَدَ الجُذوعِ المَوْجودَةِ أَسْفَلَ جِدارِ الكوخِ أَثْناءَ غِيابِ أَبي لِلصَّيْدِ .

وَقَدِ اسْتَغْرَقَ هَذا العَمَلُ مِنّي وَقْتًا طَويلاً . وَحينَما أَوْشَكْتُ عَلى نِهايَتِهِ سَمِعْتُ صَوْتَ بُنْدُقِيَّةِ أَبي في الغابَةِ ، فَتَخَلَّصْتُ مِنْ كُلِّ عَلامَةٍ تُنْبِئُ عَمّا أَقومُ بِهِ ، وَأَخْفَيْتُ المِنْشارَ .

أَمَرَني أَبي أَنْ أَذْهَبَ إِلى القارِبِ ، وَأُحْضِرَ ما بِهِ مِنْ أَشْياءَ كانَ قَدْ أَتى بِها مَعَهُ ؛ فَوَجَدْتُ في القارِبِ كيسًا مِنَ الدَّقيقِ زِنَةَ عِشْرينَ كيلوغرامًا ، وَلَحْمًا ، وَبارودًا وَرَصاصًا ، وَأَرْبَعَةَ جالوناتٍ مِنَ الشَّرابِ ، وَأَشْياءَ أُخْرى . وَعِنْدَما فَرَغْتُ مِنْ إِحْضارِها إِلى الكوخِ ،كانَ الظَّلامُ يوشِكُ عَلى الهُبوطِ .

وَبَعْدَ تَناوُلِ العَشاءِ بَدَأَ أَبي في احْتِساءِ الشَّرابِ ، فَقَدَّرْتُ في نَفْسي أَنَّهُ سَيَغيبُ عَنِ الوَعْيِ بَعْدَ حَوالى ساعَةٍ ، وَعِنْدَئِذٍ يُمكِنُني أَنْ أَسْرِقَ المِفْتاحَ ، أَوْ أُكْمِلَ نَشْرَ الجِذْعِ ، وَأَتَسَلَّلَ خارِجًا مِنَ الكوخِ . وَقَدْ شَرِبَ أَبي وَشَرِبَ حَتّى وَقَعَ عَلى فِراشِهِ نائِمًا . إِلّا أَنَّ نَوْمَهُ لَمْ يَكُنْ عَميقًا ، فَقَدْ ظَلَّ فَتْرَةً طَويلَةً يُزَمْجِرُ وَيَئِنُّ وَيُلْقي بِنَفْسِهِ هُنا وَهُناكَ .

وَأَخيرًا اسْتَوْلى عَلَيَّ النُّعاسُ حَتّى إِنَّني لَمْ أَعُدْ قادِرًا عَلى فَتْحِ عَيْنَيَّ . وَقَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ ماذا يَحْدُثُ حَوْلي رُحْتُ في نَوْمٍ عَميقٍ ،

وَتَرَكْتُ الشَّمْعَةَ تَحْتَرِقُ .

لا أعْرِفُ كَمْ مِنَ الوَقْتِ نِمْتُ ، إلّا أنّني اسْتَيْقَظْتُ فَجْأةً على صَرْخَةٍ مُدَوِّيَةٍ ؛ فَرَأيْتُ أبي يَقِفُ هائِجاً وَسطَ الكوخِ ، وَيَقْفِزُ هُنا وَهُناكَ ، وَيَصْرُخُ صائِحاً : « الثَّعابينُ ! » ، وَراحَ يُرَدِّدُ أنَّ الثَّعابينَ تَزْحَفُ على رِجْلَيْهِ ، ثُمَّ يَقْفِزُ ، وَيَصْرُخُ وَيَقولُ إنَّ واحِداً مِنْها قَدْ عَضَّهُ في خَدِّهِ . غَيْرَ أنّني لَمْ أكُنْ أرى أيَّةَ ثَعابينَ . وَما رَأيْتَ في حَياتي رَجُلاً مُهْتاجاً بِمِثْلِ ما كانَ عَلَيْهِ أبي . وَسَرْعانَ ما اسْتَوْلى عَلَيْهِ التَّعَبُ ، فَسَقَطَ أرْضاً ، وَأخَذَ يَتَنَفَّسُ بِصُعوبَةٍ ، وَسَكَنتْ حَرَكَتُهُ ، إلّا أنَّهُ كانَ يَئِنُّ بِصَوْتٍ ضَعيفٍ ، ثُمَّ سَرْعانَ ما تَلاشى صَوْتُهُ تَماماً . وَكانَ في مَقْدوري أنْ أسْمَعَ أصْواتَ الطُّيورِ اللَّيْلِيَّةِ وَعُواءَ الذِّئابِ في الغابَةِ . وَبَدا المَكانُ حَوْلي ساكِناً سُكونَ المَوْتِ .

وَفَجْأةً قَفَزَ أبي واقِفاً وَالهِياجُ بادٍ عَلَيْهِ ، وَ وَقَعَت عَيْناهُ عَلَيَّ ، فاتَّجَهَ نَحْوي ، وَأخَذَ يُطارِدُني في أنْحاءِ الكوخِ وَقَدْ رَفَعَ سِكّيناً في يَدِهِ وَهُوَ يَدْعوني بِمَلاكِ المَوْتِ ، وَمُرَدِّداً بِأنَّهُ سَيَقْتُلُني حَتّى لا أعودَ إلَيْهِ مَرَّةً أخْرى ، فَأخْبَرْتُهُ أنّني هَكْ وَلَيْسَ أحَداً آخَرَ ، فَأطْلَقَ ضِحْكَةً مُخيفَةً ، وَأخَذَ يَزْأرُ وَيَصُبُّ عَلَيَّ اللَّعَناتِ ، وَاسْتَمَرَّ يُطارِدُني . وَفي مَرَّةٍ كُنْتُ أسْتَديرُ لأروغَ مِنْ تَحْتِ ذِراعِهِ فَأدْرَكَني ، وَأمْسَكَ بِمِعْطَفي مِنْ بَيْنِ كَتِفَيَّ وَظَنَنْتُ أنَّهُ قَدْ قُضِيَ عَلَيَّ ، إلّا أنّني

انْسَلَلْتُ مِنَ المِعْطَفِ بِأسْرَعَ مِنَ البَرْقِ ، وَأنْقَذْتُ نَفْسي مِنْ قَبْضَتِهِ . وَسَرْعانَ ما اسْتَوْلى عَلَيْهِ التَّعَبُ ، فَسَقَطَ أرْضاً ، وَأسْنَدَ ظَهْرَهُ إلى البابِ ، قائِلاً بِأنَّهُ سَيَسْتَريحُ قَليلاً ثُمَّ يَشْرَعُ في قَتْلي . وَ وَضَعَ السِّكّينَ تَحْتَ رَأسِهِ ، وَقالَ إنَّهُ سَيَنامُ حَتّى يَسْتَرِدَّ قُوَّتَهُ ثُمَّ يرى مَنْ هُوَ السَّيِّدُ هُنا .

وَغابَ في نَوْمٍ عَميقٍ ، فَأخَذْتُ البُنْدُقِيَّةَ ، وَجَلَسْتُ أنْتَظِرُ أنْ يُبْدِيَ حَراكاً . وَمَضى الوَقْتُ بَطيئاً بَطيئاً وَأنا قابِعٌ في مَكاني وَسْطَ هَذا السُّكونِ .

الفصلُ الثّالث

هُروبُ هَكْ

استيقَظْتُ على صَوتِ أبي يَصيحُ بي : « إنْهضْ !» فَفتحْتُ عَيْنيَّ ، ونَظرْتُ حَوْلي أحاوِلُ أنْ أكْتشِفَ أيْنَ أنا . كُنْتُ قَدِ اسْتغرَقْتُ في نَوْمٍ عَميقٍ . وكانَتِ الشَّمْسُ قَدْ أشْرَقَتْ ، وَجَدْتُ أبي واقِفاً فَوْقي ، عابِسَ الوَجْهِ ، مُعْتلَّ البَدَنِ .

سَألني : « ماذا تَفْعَلُ بِهذِهِ البُنْدُقيَّةِ ؟ »

قُلْتُ : « لَقَدْ حاوَلَ شَخْصٌ أنْ يَقْتَحِمَ المَكانَ ، فأمْسَكْتُ بالبُنْدُقيَّةِ لأهَدِّدَهُ .»

سَألَ أبي : « وَلماذا لَمْ توقِظْني ؟»

أجَبْتُهُ : « لَقَدْ حاوَلْتُ ، ولكنّي لَمْ أسْتَطِعْ .»

قالَ : « حَسَناً ، أُخْرُجْ وانْظُرْ لَنا إنْ كانَ ثَمَّةَ سَمَكٌ في الصَّنانيرِ لِنَتَناوَلَ إفْطارَنا .»

وَقامَ أبي وَفَتَحَ لِيَ البابَ بِالمِفْتاحِ ، فَخَرَجْتُ مُتَّجِهاً نَحْوَ ضِفَّةِ

النَّهْرِ . وَكانَتْ هُناكَ بَعْضُ الأغْصانِ طافِيَةً فَوْقَ سَطْحِ النَّهْرِ ، فَعَرَفْتُ أنَّهُ قَدْ بَدَأ في الفَيَضانِ . وَفَجْأةً ظَهَرَ أمامي زَوْرَقٌ يَتَهادى عَلى صَفْحَةِ النَّهْرِ – زَوْرَقٌ جَميلٌ ، طولُهُ خَمْسَةُ أمْتارٍ .

فألْقَيْتُ بِنَفْسي في النَّهْرِ وَأنا بِكامِلِ مَلابِسي ، وانْدَفَعْتُ نَحْوَهُ حَتّى وَصَلْتُ إلَيْهِ ، وَاعْتَلَيْتُهُ ، وَأخَذْتُ أجَدِّفُ حَتّى وَصَلْتُ إلى الشّاطِئِ . وَقَرَّرْتُ أنْ أخَبِّئَهُ في مَكانٍ آمِنٍ ، حَتّى إذا ما قَرَّرْتُ الهَرَبَ اسْتَطَعْتُ أنْ أتوغَّلَ بِهِ في النَّهْرِ إلى مَسافَةِ ثَمانينَ كيلومِتْراً تَقْريباً ، وأعَسْكِرَ في مَكانٍ آخَرَ بَدَلاً مِنْ أنْ أعيشَ في الغابَةِ .

وَعِنْدَما بَرَزَ أبي مِنْ بابِ الكوخِ كُنْتُ قَدِ انْتَهَيْتُ مِنْ إخْفاءِ الزَّوْرَقِ ، وَبَدَأتُ أشُدُّ إحْدى الصَّنانيرِ . وَأمْطَرَني أبي بِسِبابِهِ وَلَعَناتِهِ ؛ لأنّي تَأخَّرْتُ عَنْهُ ، فَأخْبَرْتُهُ أنّني وَقَعْتُ في النَّهْرِ . وَجَمَعْنا مِنَ الصَّنانيرِ خَمْسَ سَمَكاتٍ ، وَعُدْنا إلى البَيْتِ .

بَعْدَ الإفْطارِ رَقَدْنا طَلَباً لِلنَّوْمِ ، فَقَدْ كُنّا مُرْهَقَيْنِ . وَأخَذْتُ أفَكِّرُ فيما لَوْ أنّني اسْتَطَعْتُ أنْ أجِدَ طَريقَةً أمْنَعُ بِها أبي وَالأرْمَلَةَ مِنْ مُحاوَلَةِ اللَّحاقِ بي فَإنَّ ذَلِكَ سَيَكونُ أفْضَلَ مِنْ أنْ أرْكَنَ لِلْحَظِّ ، وَذلِكَ حَتّى أسْتَطيعَ الهَرَبَ قَبْلَ أنْ يَفْتَقِداني .

وَبَعْدَ قَليلٍ انْتَصَبَ أبي جالِساً لِيَشْرَبَ قَدَحاً آخَرَ مِنَ الماءِ ، وَقالَ

لي : « إنَّ هَذا الرَّجُلَ لَمْ يأتِ إلى هُنا يَقْصدُ خَيْراً . كانَ لا بُدَّ أنْ أقْتُلَه . أيْقِظْني في المَرَّةِ القادِمَةِ . هَلْ تَسْمَعُ ؟ »

أوْحَتْ إليَّ هَذِهِ الكَلِماتُ بِالطَّريقَةِ الَّتي يَنْبَغي أنْ أنفِّذَها لِكَيْ أهْرُبَ ، وَقُلْتُ لِنَفْسي : الآنَ أسْتَطيعُ أنْ أرَتِّبَ الطَّريقَةَ حَتّى لا يُفكِّرَ أحَدٌ في اللَّحاقِ بي .

كانَتِ السّاعَةُ تَقْتَرِبُ مِنَ الثّانِيَةَ عَشْرَةَ حينَ كُنّا نَسيرُ بِمُحاذاةِ ضِفَّةِ النَّهْرِ . وَلَمْ يَمْضِ سِوى وَقْتٍ قَصيرٍ حَتّى ظَهَرَ أمامَنا فَجْأةً رَمَثٌ مُكَوَّنٌ مِنْ تِسْعَةِ جُذوعٍ مِنْ جُذوعِ الأشْجارِ ، شُدَّتْ إلى بَعْضِها ، فَجَذَبْناهُ إلى الشّاطِئِ ، وَجَلَسْنا نَتَناوَلُ غَداءَنا . كانَتْ هَذِهِ الجُذوعُ التِّسْعَةُ كافِيَةً لأنْ تَجْعَلَ أبي يُسْرِعُ إلى المَدينَةِ طَلَباً لِبَيْعِها ، فَأخَذَني وَحَبَسَني في الكوخِ ، وَانْطَلَقَ هُوَ في القارِبِ وَمَعَهُ الرَّمَثُ .

شَرَعْتُ في إتْمامِ نَشْرِ ذَلِكَ الجِذْعِ مَرَّةً أخرى . وَقَبْلَ أنْ يَصِلَ أبي إلى الجانِبِ الآخَرِ مِنَ النَّهْرِ كُنْتُ قَدْ خَرَجْتُ مِنَ الفَجْوَةِ الَّتي صَنَعْتُها ، فَرَأيْتُ أبي وَقارِبَهُ مِثْلَ نُقْطَةٍ طافِيَةٍ فَوْقَ الماءِ .

أخَذْتُ جُوالِقَ الدَّقيقِ إلى حَيْثُ خَبَّأتُ الزَّوْرَقَ ، وَكَذَلِكَ نَقَلْتُ اللَّحْمَ ، وَالبُنَّ ، وَالسُّكَّرَ ، وَالبارودَ ، وَالرَّصاصَ ، وَالدَّلْوَ ، وَالمِنْشارَ القَديمَ ، وَبَطّانِيَّتَيْنِ ، وَالمِقْلاةَ ، وَإناءَ القَهْوَةِ ، بِاخْتِصارٍ أخَذْتُ كُلَّ

شَيْءٍ لَهُ قيمَةٌ وَلَوْ تافِهَةٌ . وَكُنْتُ أريدُ أنْ آخُذَ مَعي فَأساً ، إلا أنَّهُ لَمْ يَكُنْ يوجَدُ سِوى فَأسٍ واحِدَةٍ ، وَكانَ لا بُدَّ أنْ أتْرُكَها في الكوخِ وَفْقاً لِلْخُطَّةِ الَّتي وَضَعْتُها ، فَأحْضَرْتُ البُنْدُقِيَّةَ ، وَانْتَهَيْتُ مِنْ تَحْميلِ الزَّوْرَقِ .

أثْناءَ زَحْفي خارِجاً مِنَ الفَجْوَةِ ، وَجَرِّ الأشْياءِ الكَثيرَةِ عَلى الأرْضِ ، خَلَّفْتُ آثاراً كَثيرَةً عَلى الأرْضِ ؛ فَأخَذْتُ أزيلُ الآثارَ المَوْجودَةَ خارِجَ الكوخِ قَدْرَ اسْتِطاعَتي ، فَنَثَرْتُ عَلَيْها تُراباً غَطّاها ، كَما غَطّى نُشارَةَ الخَشَبِ الَّتي تَساقَطَتْ مِنْ نَشْرِ الجِذْعِ ، ثُمَّ أعَدْتُ ذَلِكَ الجُزْءَ مِنَ الجِذْعِ ، الَّذي كُنْتُ قَدْ نَشَرْتُهُ ، إلى مَكانِهِ ، وَوَضَعْتُ تَحْتَهُ حَجَرَيْنِ ، كَما وَضَعْتُ حَجَراً آخَرَ عَلَيْهِ حَتّى أثَبِّتَهُ في مَكانِهِ .

وَكانَ العُشْبُ يُغَطّي الأرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ حَتّى المَكانِ المُخَبَّأ فيهِ الزَّوْرَقُ ، وَمِنْ ثَمَّ لَمْ أتْرُكْ خَلْفي أثَراً في هَذا المَكانِ .

انْطَلَقْتُ في الغابَةِ وَمَعي البُنْدُقِيَّةُ أنْشُدُ صَيْداً مِنَ الطُّيورِ ، فَرَأيْتُ شاةً بَرِّيَّةً - وَالشِّياهُ تَتَوَحَّشُ عِنْدَما تَهْرُبُ مِنَ المَزارِعِ الَّتي تولَدُ فيها - فَأطْلَقْتُ عَلَيْها رَصاصَةً فَأصَبْتُها وَأخَذْتُها مَعي إلى الكوخِ .

كَسَرْتُ بابَ الكوخِ بِالفَأسِ ، وَجَرَرْتُ الشّاةَ إلى الدّاخِلِ ،

وَأَحْدَثْتُ في عُنُقِها جُرْحًا بِالفَأْسِ ، وَتَرَكْتُها على الأَرْضِ تَنْزِفُ دَمَها . ثُمَّ مَلأْتُ جُوالِقًا قديمًا بِالأَحْجارِ ، وَسَحَبْتُهُ مِنْ حَيْثُ تَرْقُدُ الشّاةُ حَتّى النَّهْرِ ، وَهُناكَ أَلْقَيْتُ فيهِ الجُوالِقَ . وَهكَذا أَصْبَحَ الآنَ بِإِمْكانِنا أَنْ نَرى أَنَّ شَيْئًا قَدْ سُحِبَ عَلى الأَرْضِ في اتِّجاهِ النَّهْرِ .

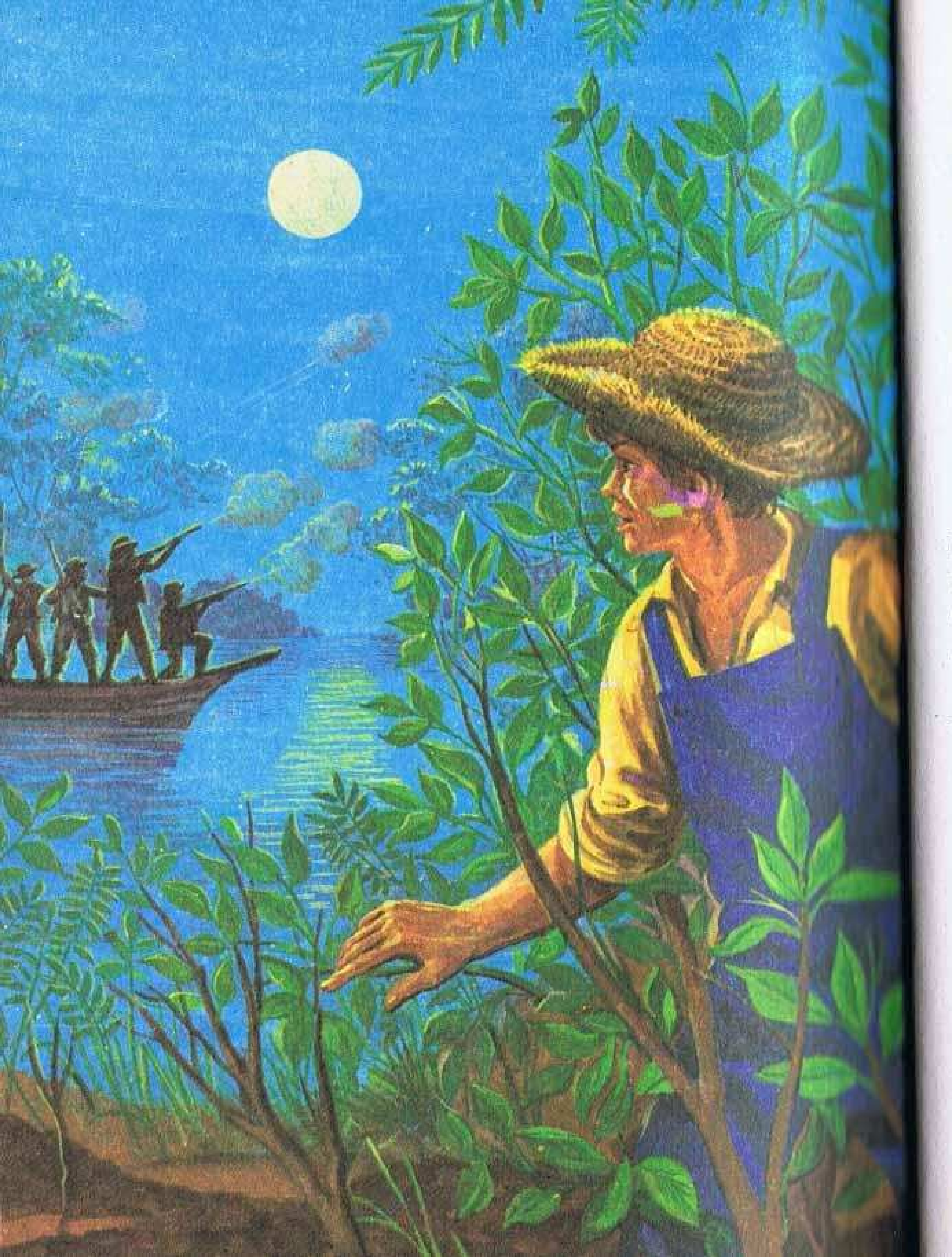
وَغَمَسْتُ الفَأْسَ في الدَّمِ ، وَنَزَعْتُ بَعْضًا مِنْ شَعْرِ رَأْسي ، وَأَلْصَقْتُهُ بِظَهْرِ الفَأْسِ ، وَأَلْقَيْتُ بِها في أَحَدِ أَرْكانِ الكوخِ . ثُمَّ أَلْقَيْتُ الشّاةَ في النَّهْرِ . وَبَعْدَ ذَلِكَ بَدَأْتُ أُفَكِّرُ في شَيْءٍ آخَرَ ، فَأَحْضَرْتُ جُوالِقَ الدَّقيقِ مِنَ الزَّوْرَقِ إلى الكوخِ ، وَ وَضَعْتُهُ في مَكانِهِ المُعْتادِ ، ثُمَّ أَحْدَثْتُ في قاعِهِ ثَقْبًا ، وَحَمَلْتُهُ سائِرًا بِهِ عَلى العُشْبِ إلى بُحَيْرَةٍ ضَحْلَةٍ . يَسيلُ مِنْ ناحِيَتِها الأُخْرى جَدْوَلُ ماءٍ ، إلّا أَنَّهُ لا يَصُبُّ في النَّهْرِ . وَقَدْ صَنَعَ الدَّقيقُ المُتَناثِرُ مِنَ الثَّقْبِ أَثَرًا ضَئيلاً عَلى طولِ الطَّريقِ المُؤَدّي إلى البُحَيْرَةِ . وَبَعْدَ ذَلِكَ رَبَطْتُ الثَّقْبَ بِقِطْعَةٍ مِنَ الخَيْطِ ، وَأَخَذْتُ الجُوالِقَ إلى الزَّوْرَقِ مَرَّةً أُخْرى وأنا أَقولُ في نَفْسي : إِنَّهُم سَيَتَّبِعونَ الأَثَرَ الَّذي أَحْدَثَهُ الدَّقيقُ حَتّى البُحَيْرَةِ وَيُفَتِّشونَ في جَدْوَلِ الماءِ بَحْثًا عَنِ اللُّصوصِ الَّذينَ قَتَلوني ، وَسَرَقوا ما بِالكوخِ مِنْ أَشْياءَ . وَلَنْ يَبْحَثوا في النَّهْرِ سِوى عَنْ جُثَّتي ، وَسَرْعانَ ما سَيُصيبُهُمُ التَّعَبُ ، وَيَكُفّونَ عَنِ البَحْثِ ، وَلا يَشْغَلونَ أَنْفُسَهُمْ بي . وَيَكونُ بِمَقْدوري بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ أَعيشَ في أَيِّ

مَكانٍ أُريدُهُ . إِنَّ جَزيرَةَ جاكسون مَكانٌ طَيِّبٌ بِالنِّسْبَةِ لي ، فَأَنا أَعْرِفُها جَيِّدًا ، وَلَمْ يَذْهَبْ إِلَيْها أَحَدٌ مِنْ قَبْلُ .

وَعِنْدَما حَلَّ الظَّلامُ كانَ التَّعَبُ قَدْ نالَ مِنّي ، فَرُحْتُ في نَوْمٍ عَميقٍ . وَحينَ اسْتَيْقَظْتُ تَناهى إلى سَمْعي صَوْتٌ مُتَقَطِّعٌ ، رَتيبٌ ، صادِرٌ عَنْ مِجْدافَيْنِ يَضْرِبانِ وَجْهَ الماءِ وَسْطَ سُكونِ اللَّيْلِ . وَرَأَيْتُ قارِبًا يَمْخُرُ عُبابَ الماءِ ، وَلَمْ يَكُنْ بِهِ غَيْرُ رَجُلٍ واحِدٍ ، هُوَ أَبي . وَكانَ بِاسْتِطاعَتي أَنْ أَلْمَسَهُ بِالبُنْدُقِيَّةِ حينَ كانَ يَمُرُّ أَمامي .

في اللَّحْظَةِ التّالِيَةِ ، بَعْدَ مُرورِهِ ، انْسَلَلْتُ في النَّهْرِ بَعيدًا ، وَفي دَقائِقَ مَعْدوداتٍ وَصَلْتُ إلى جَزيرَةِ جاكسون ، فَسَحَبْتُ الزَّوْرَقَ إلى مُنْحَنًى عَميقٍ في ضِفَّةِ النَّهْرِ ، وَكانَ عَلَيَّ أَنْ أُوَسِّعَ بَيْنَ الأَغْصانِ حَتّى أَصِلَ إِلَيْهِ ، وَلِذا فَحينَ رَبَطْتُ الزَّوْرَقَ إلى البَرِّ ، كانَ مُحالاً عَلى أَيِّ شَخْصٍ أَنْ يَراهُ مِنَ الخارِجِ .

وَأَوْشَكَ اللَّيْلُ بِحُلْكَتِهِ عَلى الانْقِضاءِ ، وَغَشّى السَّماءَ قَليلٌ مِنَ اللَّوْنِ الرَّمادِيِّ ، فَدَخَلْتُ الغابَةَ ، وَارْتَمَيْتُ أَرْضًا أَطْلُبُ قَليلاً مِنَ النَّوْمِ قَبْلَ أَنْ أَنْهَضَ لِتَناوُلِ طَعامِ الإِفْطارِ .



الفَصْلُ الرّابع

فوق جَزيرةِ جاكسون

كانَتِ الشَّمْسُ قَدِ ارْتَفَعَتْ في كَبِدِ السَّماءِ ، وَكُنْتُ أغالِبُ النَّوْمَ عِنْدَما سَمِعْتُ صَوْتَ طَلْقَةِ مِدْفَعٍ ، عَميقَةِ الصَّدى ، تَأتي مِنْ ناحِيَةِ النَّهْرِ ؛ فَذَهَبْتُ أتَلَصَّصُ مِنْ خِلالِ أوْراقِ الشَّجَرِ ، فَرَأيْتُ مَرْكَباً مَمْلوءاً بِالنّاسِ يَتَهادى فَوْقَ صَفْحَةِ النَّهْرِ ؛ فَأدْرَكْتُ الأمْرَ مِنْ فَوْري . وسَمِعْتُ صَوْتَ طَلْقَةٍ أخْرى ، وَرَأيْتُ الدُّخانَ الأبْيَضَ يَنْطَلِقُ مِنْ جانِبِ المَرْكَبِ . لَقَدْ كانوا يُطْلِقونَ المِدْفَعَ فَوْقَ الماءِ حَتّى تَطْفُوَ جُثَّتي عَلى السَّطْحِ .

وَلَمّا اقْتَرَبَ المَرْكَبُ مِنَ الجزيرَةِ ، رَأيْتُ أبي عَلى سَطْحِهِ ، وَالقاضي ثاتشر ، وَبِسّي ثاتشر ، وَجو هارپر ، وَتوم سوير ، وَعَمَّتَهُ العَجوزَ بوللي ، وَسِيدْ ، وَماري ، وَأناساً آخَرينَ كَثيرينَ .

وانْطَلَقَ صَوْتُ رُبّانِ المَرْكَبِ يَصيحُ : « قِفوا بَعيداً ! » ، وَأعْقَبَ

ذلِكَ بِطَلْقَةٍ مُدَوِّيَةٍ مِنَ المِدْفَعِ ، كادَ زَئيرُها يُصيبُني بِالصَّمَمِ ، وَأَوْشَكَ دُخانُها أَنْ يُسَبِّبَ لِيَ العَمى . ثُمَّ اسْتَمَرَّ المَرْكَبُ يَتَهادى مُبْتَعِداً حَتّى غابَ عَنْ بَصَري حَوْلَ الجَزيرَةِ .

عَرَفْتُ الآنَ أَنَّني أَصْبَحْتُ آمِناً ، وَلَنْ يُطارِدَني أَحَدٌ ؛ فَأَخْرَجْتُ أَمْتِعَتي مِنَ الزَّوْرَقِ ، وَأَقَمْتُ لِنَفْسي مُعَسْكَراً صَغيراً في الغابَةِ الكَثيفَةِ . وَصَنَعْتُ مِنَ البَطاطينِ شَيْئاً يُشْبِهُ الخَيْمَةَ ، حَتّى لا يَصِلَ المَطَرُ إِلى الأَمْتِعَةِ ، ثُمَّ قُمْتُ بِاصْطِيادِ سَمَكَةٍ . وَحينَ مالَتِ الشَّمْسُ لِلْمَغيبِ أَوْقَدْتُ ناراً أَمامَ مُعَسْكَري ، وَجَلَسْتُ أَتَناوَلُ عَشائي .

وَعِنْدَما حَلَّ الظَّلامُ جَلَسْتُ بِجِوارِ النّارِ ، وَشُعورُ الرِّضا يَمْلَؤُني . إِلّا أَنَّني بَعْدَ مُرورِ وَقْتٍ قَصيرٍ شَعَرْتُ بِالوَحْدَةِ ، وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ أَوَيْتُ إِلى الفِراشِ ، فَلَيْسَ ثَمَّةَ أَفْضَلُ مِنَ النَّوْمِ تَقْطَعُ بِهِ الوَقْتَ حينَ تُحِسُّ بِالوَحْشَةِ .

وَمَضَتْ ثَلاثَةُ أَيّامٍ وَأَنا عَلى تِلْكَ الحالِ . وَفي اليَوْمِ الرّابِعِ ذَهَبْتُ أَسْتَكْشِفُ الجَزيرَةَ ، وَأَخَذْتُ أَتَوَغَّلُ في الغابَةِ . وَفَجْأَةً رَأَيْتُ أَمامي رَماداً مُتَخَلِّفاً عَنْ نارٍ أُوقِدَتْ أَمامَ مُعَسْكَرٍ ، وَكانَ الدُّخانُ لا يَزالُ يَتَصاعَدُ مِنَ الرَّمادِ .

وَقَفَزَ قَلْبي بَيْنَ ضُلوعي رُعْباً ، وَانْسَلَلْتُ عائِداً بِأَسْرَعِ ما

يُمْكِنُني . وَكُنْتُ أَتَوَقَّفُ في سَيْري بَيْنَ الحينِ والآخَرِ ، وَأَتَنَصَّتُ ، وَلكِنَّني لَمْ أَسْمَعْ شَيْئاً سِوى أَنْفاسي الَّتي تَتَرَدَّدُ في صَدْري بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ .

وَعِنْدَما وَصَلْتُ إِلى المُعَسْكَرِ وَضَعْتُ جَميعَ أَمْتِعَتي في الزَّوْرَقِ ، وَتَسَلَّلْتُ بِهِ ، عِنْدَ حُلولِ الظَّلامِ ، إِلى ضِفَّةِ نَهْرِ « إِلينوي » ، ثُمَّ قُمْتُ بِطَهْيِ طَعامِ العَشاءِ في الغابَةِ . وَلَمْ أَنَمْ كَثيراً تِلْكَ اللَّيْلَةَ . وَكُنْتُ في كُلِّ مَرَّةٍ أَسْتَيْقِظُ فيها أَحْسَبُ أَنَّ شَخْصاً يُطْبِقُ عَلى عُنُقي . وَأَخيراً قُلْتُ لِنَفْسي : « لا بُدَّ أَنْ أَكْتَشِفَ مَنْ يَعيشُ عَلى الجَزيرَةِ وَإِلّا فَإِنَّني سَأَنْفَجِرُ .» وَهُنا أَحْسَسْتُ بِالرّاحَةِ .

أَخَذْتُ أُجَدِّفُ بِالزَّوْرَقِ حَتّى وَصَلْتُ إِلى الجَزيرَةِ ، وَهَبَطْتُ عَلَيْها وَمَعي بُنْدُقِيَّتي ، وَتَسَلَّلْتُ إِلى داخِلِ الغابَةِ . كانَ الضَّوْءُ الباهِتُ الَّذي يَتَسَلَّلُ مِنْ أَعالي الأَشْجارِ يُنْبِئُ عَنِ انْبِلاجِ النَّهارِ . وَمِنْ خِلالِ الأَشْجارِ أَبْصَرْتُ ناراً مُشْتَعِلَةً ، فَزَحَفْتُ نَحْوَها . وَهُناكَ رَأَيْتُ رَجُلاً يَرْقُدُ عَلى الأَرْضِ – كانَ « جيم » خادِمَ الآنِسَةِ « واطْسُن » . وَتَمَلَّكَني السُّرورُ حينَ رَأَيْتُهُ .

قُلْتُ لَهُ وَأَنا أَقْفِزُ نَحْوَهُ : « مَرْحَباً ، يا جيم .»

وَثَبَ واقِفاً ، وَأَخَذَ يُحَمْلِقُ إِلَيَّ بِعَيْنَيْنِ جاحِظَتَيْنِ ، ثُمَّ جَثا وَأَطْبَقَ

يَدَيْهِ عَلى بَعْضِهِما ، وَمَدَّهُما أمامَهُ وَأخَذَ يَتَوَسَّلُ قائِلاً : « أرجوكَ لا تُؤذِني ! لا تُؤْذِني ! أنا لَمْ أوذِ شَبَحاً قَطُّ . عُدْ إلى النَّهرِ ثانِيَةً . لا تُؤْذِ جيم العَجوزَ ، الَّذي كانَ صَديقَكَ الوَفِيَّ . »

لَمْ يَمضِ وَقْتٌ طَويلٌ حَتّى فَهِمَ أخيراً أنَّني لَمْ أمُتْ ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ : « هَيّا نَتَناوَلْ إفْطارَنا . زِدِ النّارَ اشْتِعالاً »

قالَ آسِفاً : « وَما جَدْوى النّارِ مَعَ التّوتِ ، وَمَعَ طَعامٍ مِثْلِ هَذا ؟ »

قُلْتُ : « توت ! أ هَذا ما تَعيشُ عَلَيْهِ ؟ لا بُدَّ أنَّكَ تَتَضَوَّرُ جوعاً . »

ذَهَبْنا إلى الزَّوْرَقِ ، وَفي الوَقْتِ الَّذي كانَ يُشْعِلُ فيهِ النّارَ ، كُنْتُ أنا أقومُ بِإحْضارِ الدَّقيقِ وَاللَّحْمِ وَالبُنِّ وَإناءِ القَهْوَةِ والمِقْلاةِ والسُّكَّرِ والأكْوابِ . واتَّسَعَتْ عَيْنا جيم دَهْشَةً وَهُوَ يَرى كُلَّ هَذِهِ الأشْياءِ ، إذْ كانَ يَظُنُّ أنَّ كُلَّ هَذا يَتِمُّ بِفِعْلِ السِّحْرِ . ثُمَّ قُمْتُ بِاصْطِيادِ سَمَكَةٍ كَبيرَةٍ أيْضاً ، قامَ جيم بِتَنْظيفِها وَطَهْوِها. وَرَغْمَ أنَّ الطَّعامَ كانَ ساخِناً جِدًّا تَنْبَعِثُ مِنْهُ سُحُبُ الدُّخانِ إلّا أنَّنا الْتَهَمْناهُ الْتِهاماً . وَكانَ جيم ، مِنْ شِدَّةِ جوعِهِ ، يَأْكُلُ كَما يَأْكُلُ الذِّئْبُ . وَلَمّا شَبِعْنا تَمَدَّدْنا أرْضاً . وَقالَ جيم : « خَبِّرْني ، يا هَكْ ، مَنِ الَّذي

قُتِلَ في ذَلِكَ الكوخِ ؟» فأخْبَرْتُهُ بِما حَدَثَ . فَرَدَّ عَلَيَّ قائِلاً بِأنَّ ذَلِكَ كانَ ذَكاءً مِنّي . وَ سَألْتُهُ : « وَكَيْفَ جِئْتَ إلى هُنا ، يا جيم ؟» فَقالَ : « إنَّكَ لَنْ تَشِيَ بي لَوْ أخْبَرْتُكَ ، أ لَيْسَ كَذَلِكَ ، يا هَكْ ؟» فَطَمْأنْتُهُ قائِلاً : « بَلى ، لَنْ أشِيَ بِكَ أبَداً ، يا جيم .» قالَ جيم : « حَسَناً ، أنا أصَدِّقُكَ ، يا هَكْ . لَقَدْ هَرَبْتُ . »

صِحْتُ قائِلاً : « جيم ! هَرَبْتَ ! أخْبِرْني بِكُلِّ شَيْءٍ .»

قالَ جيم يَسْرُدُ ما حَدَثَ: « لَقَدْ سارَتِ الأمورُ عَلى هَذا النَّحْوِ : لاحَظْتُ في الآوِنَةِ الأخيرَةِ تَرَدُّدَ أحَدِ تُجّارِ العَبيدِ عَلى المَنْزِلِ ؛ فَبَدأَ القَلَقُ يُساوِرُني . وَذاتَ لَيْلَةٍ سَمِعْتُ الآنِسَةَ واطْسُن تُخْبِرُ الأرْمَلَةَ بِأنَّها سَتَبيعُني ، عَلى غَيْرِ رَغْبَتِها ، إلّا أنَّ ذَلِكَ سَيَكْفُلُ لَها الحُصولَ عَلى ثَمانِمِئَةِ دولارٍ ثَمَناً لي . وَقَدْ حاوَلَتِ الأرْمَلَةُ أنْ تُثْنِيَها عَنْ ذَلِكَ لَكِنَّني لَمْ أنْتَظِرْ لأسْمَعَ بَقِيَّةَ الحَديثِ ، وَغادَرْتُ المَنْزِلَ مِنْ فَوْري .

« اِخْتَبأْتُ اللَّيْلَ بِطولِهِ ، وَنَهارَ اليَوْمِ التّالي . وَكانَ البَحْثُ جارِياً عَنّي طَوالَ الوَقْتِ . وَفي مَخْبَئي تَوَصَّلْتُ إلى ما يَجِبُ عَلَيَّ فِعْلُهُ ، فَعَزَمْتُ عَلى تَنْفيذِهِ . أنْتَ تَعْلَمُ أنَّني لَوْ ظَلَلْتُ أهْرُبُ سَيْراً عَلى قَدَمَيَّ فَإنَّ الكِلابَ سَتَتَعَقَّبُني ، وَإذا فَكَّرْتُ في سَرِقَةِ قارِبٍ لأعْبُرَ بِهِ النَّهْرَ فَإنَّهُمْ سَيَفْتَقِدونَهُ ، وَيَعْرِفونَ المَكانَ الَّذي هَبَطْتُ مِنَ القارِبِ

إِلَيْهِ في الجانِبِ الآخَرِ مِنَ النَّهْر ، وَمِنْ ثَمَّ يَتعَقَّبونَ آثاري . ولِذَلِكَ قُلْتُ في نَفْسي إِنَّ الرَّمَثُ هُوَ مَطْلَبي ، فالرَّمَثُ لا يَتْرُكُ آثاراً .

« وعِندما رأيْت ضَوْءاً آتِياً مِنْ عِنْدِ مُنْحنى النَّهْرِ سَبَحْتُ بِعَرْضِ النَّهْرِ حَتّى مُنْتَصَفِهِ ، ثُمَّ عُدْتُ أَسْبَحُ عَكْسَ التَّيارِ ، حَتّى جاءَ إِلى الرَّمَثُ . وَعِنْدَما حَلَّ الظَّلامُ اعْتَلَيْتُهُ ، ورقدْتُ على أَلْواحِهِ الخَشَبِيَّةِ. وَكانَ الرِّجالُ الَّذينَ يَبْحَثونَ عَنّي مُنْتَشِرينَ في مُنْتَصَفِ النَّهْرِ حَيْثُ كانَ الفانوسُ . وَقَدْ قَدَّرْتُ أَنَّني بِحُلولِ السّاعَةِ الرّابِعَة صَباحاً سَأكونُ قَدْ سِرْتُ في النَّهْرِ أَرْبَعينَ كيلومِتْراً ، وَمِنْ هُناكَ أَسْتَطيعُ أَنْ أَسْبَحَ إِلى الشّاطِئ ، وَأَخْتَبِئَ في الغابَةِ . وَلَكِنَّني رَجُلٌ ذو حَظٍّ سَيِّءٍ ، فَقَدْ جاءَ أَحَدُهُمْ ، وَفي يَدِهِ فانوسٌ ، إِلى حَيْثُ كُنْتُ . فانْدَفَعْتُ في النَّهْرِ سابِحًا إِلى الجَزيرَةِ ، لأَنَّها كانَتْ عَلى مَقْرُبَةٍ مِنّي .»

كُنْتُ أُريدُ أَنْ أَسْتَكْشِفَ مَكاناً يَقَعُ في مُنْتَصَفِ الجَزيرَة ، وَهُوَ مَكانٌ عَثَرْتُ عَلَيْهِ أَثْناءَ ارْتِيادي لِلْجَزيرَة . وَلِذَلِكَ بَدَأْنا السَّيْرَ نَحْوَهُ ، وَسُرْعانَ ما وَصَلْنا إِلَيْهِ ، فالجَزيرَةُ لَمْ تَكُنْ تَتَجاوَزُ خَمْسَةَ كيلو مِتْراتٍ طُولاً ، وَكيلومِتْراً عَرْضاً .

كانَ المَكانُ عِبارَةً عَنْ تَلٍّ شَديدِ الانْحِدارِ ، فَتَسَلَّقْناهُ ، وَبِالقُرْبِ مِنَ القِمَّةِ وَجَدْنا مَغارَةً كَبيرَةً ، فاقْتَرَحَ جيم أَنْ نَضَعَ أَمْتِعَتَنا فيها

دونَ إِبْطاءٍ ؛ لأَنَّ السَّماءَ كانَتْ تُنْذِرُ بِمَطَرٍ شَديدٍ ، وَلا نُريدُ لأَمْتِعَتِنا أَنْ يُصيبَها البَلَلُ . وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ عُدْنا إِلى الزَّوْرَقِ ، وَجَدَّفْنا حَتّى وَصَلْنا إِلى نُقْطَةٍ موازِيَةٍ لِلْمَغارَة ، وَحَمَلْنا كُلَّ أَمْتِعَتِنا إِلَيْها ، ثُمَّ خَبَّأْنا الزَّوْرَقَ بَيْنَ الشُّجَيْراتِ الكَثيفَةِ القَريبَةِ مِنّا . وَأَخَذْنا بَعْضَ السَّمَكِ مِنَ الصَّنانيرِ ثُمَّ أَعَدْناها إِلى مَكانِها مَرَّةً أُخرى .

وَأَوْقَدْنا ناراً خارِجَ المَغارَة ، وَطَهَوْنا طَعامَ العَشاءِ ، وَجَلَسْنا نَتَناوَلُهُ عَلى البَطاطينِ الَّتي فَرَشْناها داخِلَ المَغارَة . ثُمَّ سُرْعانَ ما حَلَّ الظَّلامُ ، مَصْحوباً بِرَعْدٍ وَبَرْقٍ ، وَهَطَلَ المَطَرُ مِدْراراً ، وَعَصَفَتِ الرّيحُ ، وَاشْتَدَّ زَئيرُها . وَقُلْتُ لِجيم : « جيم ، هَذا المَكانُ أَفْضَلُ مِنْ أَيِّ مَكانٍ آخَرَ . ناوِلْني شَريحَةَ سَمَكٍ وَبَعْضاً مِنْ خُبْزِ الذُّرَة .»

ظَلَّ النَّهْرُ يَرْتَفِعُ طيلَةَ عَشَرَةِ أَيّامٍ ، أَوْ اثْنَيْ عَشَرَ يَوْماً ، حَتّى فاضَتْ مِياهُهُ عَلى ضِفَّتَيْهِ . أَمّا في الجَزيرَةِ فَبَلَغَ عُمْقُ المِياهِ في الأَماكِنِ المُنْخَفِضَةِ أَكْثَرَ مِنْ مِتْرٍ . وَكُنّا نَتَجَوَّلُ ، أَثْناءَ النَّهارِ ، في أَنْحاءِ الجَزيرَةِ بِالزَّوْرَقِ . وَكانَ الجَوُّ بارِداً وَظَليلاً في أَعْماقِ الغابَةِ ، في الوَقْتِ الَّذي تَكونُ الشَّمْسُ فيهِ مُلْتَهِبَةً خارِجَها .

وَذاتَ لَيْلَةٍ عَثَرْنا عَلى رَمَثٍ ذي أَلْواحٍ سَميكَةٍ . كانَ عَرْضُهُ أَكْثَرَ مِنْ مِتْرٍ ، أَمّا طولُهُ فَبَلَغَ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسَةِ أَمْتارٍ . وَكانَ أَعْلاهُ يَرْتَفِعُ عَنِ الماءِ خَمْسَةَ عَشَرَ سَنْتيمِتْراً ، فَكانَ أَشْبَهَ بِأَرْضِيَّةٍ صُلْبَةٍ

مُسْتَوِيَةٍ .

وَفي لَيْلَةٍ أُخرى شاهَدْنا ، عِنْدَ الفَجْرِ ، مَنْزِلاً خَشَبِيًّا طافِياً عَلى الماءِ ، فاتَّجَهْنا نَحْوَهُ بِالزَّوْرَقِ ، وَصَعِدْنا إِلى سَطْحِهِ ، فَرَأَيْنا هُناكَ فِراشاً ، وَمِنْضَدَةً ، وَكُرْسِيَّيْنِ قَديمَيْنِ ، وَأَشياءَ أُخرى كَثيرَةً مُلْقاةً عَلى أَرْضِيَّةِ المَنْزِلِ . وَفي رُكْنٍ قَصِيٍّ مِنْهُ شاهَدْنا شَيْئاً يُشْبِهُ رَجُلاً . فَقالَ جيم : « إِنَّهُ مَيِّتٌ ، لَقَدْ أُطْلِقَ عَلَيْهِ الرَّصاصُ مِنْ خَلْفِهِ . أُدْخُلْ ، يا هَكْ ، وَلا تَنْظُرْ إِلى وَجْهِهِ . »

وَأَلْقى جيم بِبَعْضِ المَلابِسِ القَديمَةِ عَلى الرَّجُلِ ، وَلَمْ تَكُنْ ثَمَّةَ ضَرورَةٌ لِكَيْ يَفْعَلَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّني كُنْتُ سَأَتَحاشى مُشاهَدَتَهُ .

وَرَأَيْنا أَوْراقَ اللَّعِبِ مُبَعْثَرَةً في أَنْحاءِ المَكانِ ، وَقِناعَيْنِ مِنْ قُماشٍ أَسْوَدَ ، وَمَلابِسَ رِجالٍ وَنِساءٍ مُعَلَّقَةً عَلى الجِدارِ . وَمِنَ الطَّريقَةِ الَّتي كانَتْ عَلَيْها هَذِهِ الأَشْياءُ مُبَعْثَرَةً في أَنْحاءِ المَكانِ قَدَّرْنا أَنَّ النّاسَ الَّذينَ كانوا بِهَذا المَنْزِلِ قَدْ غادَروهُ مُسْرِعينَ .

وَبِالإِضافَةِ إِلى المَلابِسِ وَجَدْنا فانوساً مِنَ الصَّفيحِ ، وَسِكّيناً ، وَمَجْموعَةً مِنَ الشُّموعِ ، وَفَأْساً ، وَصِنّارَةً في سُمْكِ أُصْبُعي ، وَبَعْضَ الخَطاطيفِ الكَبيرَةِ ، وَحَدْوَةَ حِصانٍ وَطَوْقاً مِنَ الجِلْدِ ، مِنْ تِلْكَ الأَطْواقِ الَّتي توضَعُ حَوْلَ رِقابِ الكِلابِ ، وَبَعْضَ قَواريرِ

الأَدْوِيَةِ مَنْزوعَةً عَنْها بِطاقاتُها . وَحينَ هَمَمْنا بِمُغادَرَةِ المَنْزِلِ وَجَدَ جيم ساقاً خَشَبِيَّةً مَقْطوعَةً أَرْبِطَتُها . وَلَكِنَّها كانَتْ في حالٍ جَيِّدَةٍ ، رَغْمَ أَنَّها كانَتْ طَويلَةً بِالنِّسْبَةِ لي قَصيرَةً بِالنِّسْبَةِ لِجيم . وَقَدْ فَتَّشْنا المَكانَ فَتْرَةً طَويلَةً بَحْثاً عَنِ السّاقِ الثّانِيَةِ فَلَمْ نَعْثُرْ عَلَيْها .

وَبَعْدَ أَنْ تَناوَلْنا طَعامَ العَشاءِ ، أَخَذْنا نُفَتِّشُ في المَلابِسِ الَّتي أَحْضَرْناها مِنَ المَنْزِلِ ، فَوَجَدْنا ثَمانِيَةَ دولاراتٍ فِضِّيَّةٍ مَخيطاً عَلَيْها في أَحَدِ المَعاطِفِ . وَقُلْتُ لِجيم : « عِنْدَما أَحْضَرْتُ مَعي جِلْدَ الثُّعْبانِ الَّذي وَجَدْتُهُ عَلى التَّلِّ ، قُلْتَ لي إِنَّ هَذا نَذيرُ شُؤْمٍ ، وَمَجْلَبَةٌ لِلْحَظِّ السَّيِّئِ . وَها نَحْنُ قَدْ جَمَعْنا كُلَّ هَذِهِ الأَشْياءِ ، وَفَوْقَها ثَمانِيَةُ دولاراتٍ . إِنّي أَتَمَنّى لَوْ كانَ لي حَظٌّ سَيِّئٌ مِثْلُ هَذا كُلَّ يَوْمٍ . »

قالَ جيم : « لا تَتَعَجَّلْ ، إِنَّهُ آتٍ . »

دارَ هَذا الحَديثُ بَيْنَنا يَوْمَ الثُّلاثاءِ . وَبَعْدَ أَنْ تَناوَلْنا عَشاءَنا يَوْمَ الجُمُعَةِ ، وَجَدْتُ ثُعْباناً مِنْ نَوْعِ الثَّعابينِ المُجَلْجِلَةِ فَقَتَلْتُهُ ، وَلَفَفْتُهُ ، وَوَضَعْتُهُ في بَطّانِيَّةِ جيم . وَلَمْ أَكُنْ أَقْصِدُ مِنْ وَراءِ هَذا سِوى أَنْ أَمْزَحَ وَأَضْحَكَ مِنْ مَنْظَرِ جيم حينَ يَجِدُهُ في البَطّانِيَّةِ . ثُمَّ نَسيتُ تَماماً كُلَّ ما يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ الثُّعْبانِ . وَعِنْدَما أَلْقى جيم بِجَسَدِهِ عَلى البَطّانِيَّةِ ، في الوَقْتِ الَّذي كُنْتُ أُشْعِلُ فيهِ المِصْباحَ ، كانَتْ رَفيقَةُ

الثُّعْبانِ مَوْجودَةً في البطّانيَّةِ ؛ فَعَضَّتْ جيم .

قَفَزَ جيم مِنْ مَرْقَدِهِ وَهُوَ يَصْرُخُ ، وَقُمْتُ أنا بِالقَضاءِ عَلى الحَيَّةِ بِالعَصا . وَأَخَذَ جيم يَصْرُخُ وَقْتاً طَويلاً ، ثُمَّ غابَ عَنِ الوَعْيِ . وَكانَتِ الحَيَّةُ قَدْ عَضَّتْهُ في كَعْبِهِ ، فَتَوَرَّمَتْ ساقُهُ . وَظَلَّ جيم مَريضاً أَرْبَعَةَ أَيّامٍ بِلَياليها ، ثُمَّ ذَهَبَ عَنْهُ الوَرَمُ ، وَأَخَذَ يَتَحَرَّكُ مَرَّةً أُخْرى .

وَفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي خَطَرَ لي أَنْ أَتَسَلَّلَ عَبْرَ النَّهْرِ لأَكْتَشِفَ ما صارَتْ إِلَيْهِ الأُمورُ ، فَقالَ لي جيم إِنَّني يَجِبُ أَنْ أُسْرِعَ في سَيْري ، وَأَنْ أَتَحَرَّكَ في الظَّلامِ . وَاقْتَرَحَ عَلَيَّ أَنْ أَنْتَقِيَ مِنْ بَيْنِ المَلابِسِ الَّتي جَمَعْناها مَلابِسَ فَتاةٍ وَأَرْتَدِيَها ، فَفَعَلْتُ. وَقُمْنا بِتَقْصيرِ أَحَدِ الفَساتينِ ، وَرَفَعْتُ أنا رِجْلَيْ سِرْوالي حَتّى رُكْبَتَيَّ ، وَارْتَدَيْتُ الفُسْتانَ . وَقامَ جيم بِتَثْبيتِ مِشْبَكِ الفُسْتانِ مِنَ الخَلْفِ . وَ وَضَعْتُ قُبَّعَةً كَبيرَةً عَلى رَأْسي . وَأَخَذْتُ أَتَمَرَّنُ اليَوْمَ بِطولِهِ عَلى كَيْفِيَّةِ التَّصَرُّفِ كَفَتاةٍ ، وَأَنْ أَعْتادَ مَلابِسي الجَديدَةَ . وَنَبَّهَني جيم بِأَنَّني لا أَمْشي مِثْلَما تَمْشي الفَتَياتُ ، وَنَهاني عَنْ أَنْ أَرْفَعَ الفُسْتانَ كُلَّما احْتَجْتُ إِلى شَيْءٍ مِنْ جُيوبِ السِّرْوالِ .

وَبَعْدَ أَنْ حَلَّ الظَّلامُ بَدَأْتُ رِحْلَتي ، ثُمَّ رَبَطْتُ زَوْرَقي أَسْفَلَ شَجَرَةٍ ، وَسِرْتُ بِمُحاذاةِ ضِفَّةِ النَّهْرِ . وَبَيْنَما كُنْتُ أَسيرُ شاهَدْتُ ضَوْءاً يَنْبَعِثُ مِنْ نافِذَةِ أَحَدِ المَنازِلِ المَهْجورَةِ ، فَنَظَرْتُ مِنَ النّافِذَةِ ،

فَوَجَدْتُ امْرَأَةً في حَوالى الأَرْبَعينَ مِنْ عُمُرِها ، جالِسَةً تَحيكُ ثَوْباً عَلى ضَوْءِ شَمْعَةٍ . كانَتِ امْرَأَةً غَريبَةً . غَيْرَ أَنَّني فَكَّرْتُ لَوْ أَنَّ هَذِهِ المَرْأَةَ كانَتْ مَوْجودَةً في هَذِهِ المَدينَةِ الصَّغيرَةِ مُنْذُ يَوْمَيْنِ ، فَإِنَّها تَسْتَطيعُ أَنْ تُخْبِرَني بِكُلِّ ما أُريدُ أَنْ أَعْرِفَهُ . وَهَكَذا طَرَقْتُ البابَ وَأَنا أَتَذَكَّرُ جَيِّداً وَأُحاوِلُ أَلا يَغيبَ عَنْ بالي أَنَّني فَتاةٌ .

الفَصْلُ الخامِس

« انْهَضْ يا جيم ! إنَّهُمْ يَتعقَّبونَنا ! »

قالَتِ المَرْأةُ : « أُدْخُلي وَاجْلِسي . » وتَفَحَّصَتْني بِعَيْنَيْها اللامِعَتَيْنِ مِن أعْلى إلى أسْفَلَ ، ثُمَّ قالَتْ : « ما اسْمُكِ ؟ »

« سارة ويليامز »

« أيْنَ تَعيشينَ ؟ »

قُلْتُ : « في مَدينَةِ هوكَرْزڤيل ، يا سَيِّدَتي ، عَلى بُعْدِ عَشَرَةِ كيلومِتْراتٍ مِنْ هُنا . أُمّي مَريضَةٌ ، وَقَدْ نَفِدَتْ مِنّا النُّقودُ ، فَجِئْتُ لأُخْبِرَ خالي أبْنَر مور بِذلِكَ . إنَّهُ يَعيشُ في الطَّرَفِ الآخَرِ مِنَ المَدينَةِ . هَلْ تَعْرِفينَهُ ؟ »

أجابَتِ المَرْأةُ : « لا ، فَأنا أُقيمُ هُنا مُنْذُ أُسْبوعَيْنِ فَقَطْ . إنَّ المَسافَةَ إلى الطَّرَفِ الآخَرِ مِنَ المَدينَةِ طَويلَةٌ ، فَمِنَ الأفْضَلِ أنْ تَمْكُثي هُنا اللَّيْلَةَ . اخْلَعي قُبَّعَتَكِ . »

قُلْتُ : « لا ، لا داعِيَ لِذلِكَ . سَأسْتَريحُ قَليلاً ، ثُمَّ أُواصِلُ رِحْلَتي . » فَكانَ رَدُّ المَرْأةِ أنْ قالَتْ إنَّ زَوْجَها سَيَأتي بَعْدَ قَليلٍ ، وَسَتُرْسِلُهُ مَعي . ثُمَّ اسْتَرْسَلَتْ في حَديثٍ عَنْ زَوْجِها وَعَنْ جَميعِ أقارِبِها ، ثُمَّ عَرَّجَتْ في حَديثِها بَعْدَ بُرْهَةٍ عَلى أبي ، والجَريمَةِ الَّتي وَقَعَتْ ، فَسَألْتُها : « مَنِ الَّذي ارْتَكَبَ تِلْكَ الجَريمَةَ ؟ لَقَدْ سَمِعْنا الكَثيرَ عَنْها في هوكَرْزڤيل ، إلّا أنَّنا لَمْ نَعْرِفْ مَنِ الَّذي قَتَلَ هَكْ فِن . » فَقالَتِ المَرْأةُ : « في البِدايَةِ ظَنَّ البَعْضُ أنَّ فِن العَجوزَ هُوَ نَفْسُهُ الَّذي فَعَلَها ، وَلكِنَّهُمْ غَيَّروا رَأيَهُمْ قَبْلَ حُلولِ اللَّيْلِ وَاتَّهَموا عَبْداً هارِباً يُدْعى جيم ، بِارْتِكابِ الجَريمَةِ ، فَقَدْ هَرَبَ ذلِكَ العَبْدُ في نَفْسِ اللَّيْلَةِ الَّتي قُتِلَ فيها هَكْ فِن ؛ وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ أُعْلِنَ عَنْ مُكافَأةٍ لِمَنْ يَعْثُرُ عَلَيْهِ ، قَدْرُها ثَلاثُمِئَةِ دولارٍ . كَما أنَّ هُناكَ أيْضاً مُكافَأةً أُخْرى لِمَنْ يَعْثُرُ عَلى فِن العَجوزِ ، قَدْرُها مِئَتا دولارٍ ، فَقَدْ جاءَ فِن إلى المَدينَةِ في الصَّباحِ بَعْدَ وُقوعِ الجَريمَةِ ، وَبَلَّغَ عَنْها ، وَخَرَجَ مَعَ النّاسِ في القارِبِ ، ثُمَّ رَحَلَ بَعْدَ ذلِكَ مُباشَرَةً . وَقَبْلَ حُلولِ اللَّيْلِ أرادَ النّاسُ أنْ يَشْنُقوهُ ، إلّا أنَّهُ كانَ قَدْ رَحَلَ . وَفي اليَوْمِ التّالي اكْتَشَفَ النّاسُ أنَّ جيم قَدْ هَرَبَ ، وَلَمْ يَرَهُ أحَدٌ مُنْذُ السّاعَةِ العاشِرَةِ مِنَ اللَّيْلَةِ الَّتي ارْتُكِبَتْ فيها الجَريمَةُ ، وَمِنْ ثَمَّ فَقَدِ اتَّهَموهُ بِقَتْلِ هَكْ فِن . »

سَألْتُها : « أَلا يَزالونَ يُطارِدونَ جيم ؟ »

أجابَتِ المَرْأةُ : « وَهَلْ يَجِدُ المَرْءُ ثَلاثَمِئَةِ دولارٍ كُلَّ يَوْمٍ ؟ بَعْضُ النّاسِ يَعْتَقِدونَ أَنَّهُ لَمْ يَبْتَعِدْ عَنْ هُنا ، وَهَذا هُوَ رَأْيي أَيْضًا ، فَأَنا مُتَأَكِّدَةٌ أَنَّني رَأَيْتُ دُخانًا مُنْذُ أَيّامٍ قَليلَةٍ فَوْقَ جَزيرَةِ جاكسون ، وَلِذَلِكَ قُلْتُ في نَفْسي مِنَ المُحْتَمَلِ أَنْ يَكونَ ذَلِكَ العَبْدُ الآبِقُ مُخْتَبِئًا هُناكَ ، وَلَقَدْ ذَهَبَ زَوْجي وَمَعَهُ رَجُلٌ آخَرُ لِيَرَيا بِنَفْسَيْهِما . »

اِسْتَوْلى عَلَيَّ القَلَقُ لِدَرَجَةِ أَنَّني لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَجْلِسَ ساكِنًا . وَكانَ عَلَيَّ أَنْ أَفْعَلَ شَيْئًا بِيَدي ، فَالْتَقَطْتُ إِبْرَةً وَبَدَأْتُ أَسْلُكُ فيها خَيْطًا . وَكانَتْ يَدايَ تَرْتَعِشانِ . وَنَظَرْتُ إِلَيَّ المَرْأَةُ بِدَهْشَةٍ ، وَعَلى شَفَتَيْها ابْتِسامَةٌ خَفيفَةٌ ، فَقُلْتُ لَها : « ثَلاثُمِئَةِ دولارٍ مَبْلَغٌ كَبيرٌ مِنَ المالِ ، أَتَمَنّى لَوِ اسْتَطاعَتْ أُمّي أَنْ تَحْصُلَ عَلَيْهِ . هَلْ سَيَذْهَبُ زَوْجُكِ إِلى هُناكَ اللَّيْلَةَ ؟ »

أَجابَتِ المَرْأَةُ قائِلَةً : « نَعَم ، لَقَدْ ذَهَبَ هُوَ وَالرَّجُلُ الآخَرُ إِلى المَدينَةِ لِيُحْضِرا قارِبًا ، وَيَسْتَعيرا بُنْدُقِيَّةً أُخْرى ، وَسَيَذْهَبانِ إِلى هُناكَ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ . »

ظَلَّتِ المَرْأَةُ تَنْظُرُ إِلَيَّ وَالدَّهْشَةُ تَعْلوها ، ثُمَّ سَأَلَتْني : « ما اسْمُكَ الَّذي أَخْبَرْتَني بِهِ ؟ » أَجَبْتُ مُتَلَعْثِمًا : « ... ماري وِيليامز . » فَقالَتِ

المَرْأَةُ : « أَعْتَقِدُ أَنَّكِ قُلْتِ لي عِنْدَما دَخَلْتِ إِنَّ اسْمَكِ سارَة . »
فَاسْتَدْرَكْتُ قائِلًا : « نَعَمْ ، نَعَمْ ، يا سَيِّدَتي ، لَقَدْ قُلْتُ ذَلِكَ .. سارَة ماري وِيليامز . سارَة هو اسْمِيَ الأَوَّلُ . البَعْضُ يَدْعونَني سارَة ، وَالبَعْضُ يُسَمّونَني ماري . »

وَبَدَأَتِ المَرْأَةُ تَتَحَدَّثُ عَنِ الفِئْرانِ الَّتي تَتَجَوَّلُ في المَكانِ كَأَنَّها تَمْتَلِكُهُ . وَكانَتْ مُحِقَّةً في كَلامِها عَنْها ، فَقَدْ كُنْتُ أَلْمَحُ أَحَدَها بَيْنَ الآوِنَةِ وَالأُخْرى يَبْرُزُ بِأَنْفِهِ مِنْ أَحَدِ الجُحورِ . وَأَرَتْني المَرْأَةُ كُتْلَةً مِنَ الرَّصاصِ ، وَقالَتْ إِنَّها تَرْمي بِها الفَأْرَ ، فَتَقْضي عَلَيْهِ في الغالِبِ . وَطَلَبَتْ مِنّي أَنْ أُحاوِلَ قَتْلَ أَحَدِها قائِلَةً إِنَّ عَلَيَّ أَنْ أَرْمِيَ بِكُتْلَةِ الرَّصاصِ عَلى أَوَّلِ فَأْرٍ يَبْرُزُ بِأَنْفِهِ ، فَإِذا ظَلَّ ساكِنًا في مَكانِهِ يَكونُ فَأْرًا مَريضًا . وَقامَتْ فَأَحْضَرَتْ كُتْلَةَ الرَّصاصِ وَبَعْضَ الصّوفِ الَّذي كانَتْ تُريدُ مِنّي أَنْ أُساعِدَها في صُنْعِهِ . وَرَفَعْتُ إِلَيْها يَدَيَّ ، فَوَضَعَتْ فيهِما الصّوفَ ، وَاسْتَرْسَلَتْ في حَديثِها عَنِ الفِئْرانِ ، ثُمَّ قَطَعَتِ الحَديثَ وَصاحَتْ قائِلَةً : « احْذَري الفِئْرانَ ! مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ تُمْسِكي كُتْلَةَ الرَّصاصِ بِيَدِكِ . » وَهَكَذا أَلْقَتْ بِالكُتْلَةِ في حِجْري ، فَضَمَمْتُ رُكْبَتَيَّ إِلى بَعْضِهِما .

قالَتِ المَرْأَةُ : « وَالآنَ أَخْبِريني ، ما اسْمُكِ الحَقيقِيُّ ؟ بِلْ ، أَمْ توم أَمْ بوب – ما هُوَ ؟ » فَارْتَعَدْتُ مِثْلَ وَرَقَةِ شَجَرَةٍ وَقُلْتُ لَها :

كُلَّ شَيْءٍ على الرَّمَثِ ، وَتَسَلَّلْنا تَحْتَ ظِلالِ الأَشْجارِ ، تارِكِينَ خَلْفَنا الجَزيرَةَ دونَ أَنْ نَتَفَوَّهَ بِكَلِمَةٍ .

الفَصْلُ السّادِس

« لَقَدْ خَدَعْتَهُمْ ، يا هَكْ ! »

لا بُدَّ أَنَّ السّاعَةَ كانَتْ تَقْتَرِبُ مِنَ الواحِدَةِ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ عِنْدَما ابْتَعَدْنا عَنِ الجَزيرَةِ ، وَبَدا القارِبُ كَأَنَّهُ يَسيرُ زَحْفًا .

وَعِنْدَ الفَجْرِ رَبَطْنا الرَّمَثَ بِشاطِئٍ رَمْلِيٍّ تَكْسوهُ الأَشْجارُ ، وَغَطَّيْنا الرَّمَثَ بِفُروعِ الأَشْجارِ ، وَرَقَدْنا هُناكَ طَوالَ اليَوْمِ . وَعِنْدَما حَلَّ الظَّلامُ قامَ جيم بِنَزْعِ الأَلْواحِ العُلْوِيَّةِ مِنَ الرَّمَثِ ، وَبَنى لَنا مَأْوًى مَتينًا نَحْتَمي فيهِ مِنْ حَرارَةِ الطَّقْسِ ، وَمِنْ هُطولِ المَطَرِ ، وَرَفَعَهُ مَسافَةَ قَدَمٍ فَوْقَ الرَّمَثِ . وَهَكَذا أَصْبَحَتِ البَطاطينُ وَالأَمْتِعَةُ بَعيدَةً عَنِ الأَمْواجِ الَّتي تَدْفَعُها السُّفُنُ البُخارِيَّةُ . وَفي مُنْتَصَفِ المَأْوى هَيَّأْنا مُسْتَوْقَدًا نُشْعِلُ فيهِ النّارَ عِنْدَ هُطولِ المَطَرِ ، وَأَثْناءَ الطَّقْسِ البارِدِ ، وَقَدْ فَرَشْناهُ تُرابًا ، وَعَمَّقْناهُ إِلى مَسافَةِ عِشْرينَ سَنْتيمِتْرًا ، وَأَحَطْناهُ بِإِطارٍ . ثُمَّ صَنَعْنا أَيْضًا مِجْدافًا إِضافِيًّا لِلتَّوْجيهِ ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَنْكَسِرَ مِجْدافٌ مِنَ المَجاديفِ الأُخْرى ، وَثَبَّتْنا في أَعْلى الرَّمَثِ عَصًا

مُتشعّبةً لِنُعلِّقَ عليْها الفانوسَ ، حيْثُ ينبغي أنْ نضيءَ فانوساً حين نرى سفينةً بُخاريّةً قادمةً حتّى لا نصطَدِمَ بِها .

في اللّيْلةِ التّاليةِ سارَ بِنا الرّمَثُ فوْقَ صفْحةِ النّهْرِ حوالى سبْعٍ أوْ ثماني ساعاتٍ ، وكانَ يطْفو هادِئاً فوْقَ النّهْرِ الكبيرِ السّاكِنِ . وكُنّا نحْنُ نرْقُدُ على ظهورِنا ونتطلّعُ إلى النُّجومِ . وكانَ الطّقْسُ بديعاً . ولَمْ يقَعْ لنا شَيْءٌ على الإطْلاقِ في تِلْكَ اللّيْلةِ ، ولا في تِلْكَ الّتي تلَتْها ، ولا في الّتي تلَتِ اللّيْلةَ الثّانيةَ .

وكُنّا بعْدَ أنْ يحُلَّ الظّلامُ نرى أضْواءَ المُدُنِ مُتلألِئةً أثْناءَ مُرورِنا بِها . وفي اللّيْلةِ الخامِسةِ اجْتزْنا مَدينةَ « سان لوي » ، وكانَتْ أنْوارُها مُتوهِّجةً ، كأنّما أُضيئَتْ فيها أنْوارُ العالَمِ بِأجْمعِهِ . وكُنْتُ أتسلّلُ إلى الشّاطِئِ كُلَّ ليْلةٍ ، في حوالى السّاعةِ العاشِرةِ ، وأذْهبُ إلى إحْدى القُرى الصّغيرةِ ، وأشْتري مِنْها طعاماً .

وكانَ في تقْديرِنا أنّنا بعْدَ ثلاثِ ليالٍ أخَرَ سنَصِلُ إلى مَدينةِ كايرو الّتي تقَعُ عِنْدَ الْتِقاءِ نهْرِ إلينوي بِنهْرِ أوهايو ، فنقومُ بِبيْعِ الرّمَثِ ، ونرْكَبُ إحْدى السُّفُنِ البُخاريّةِ ، ونذْهبُ إلى مَدينةِ أوهايو الّتي تقَعُ ضِمْنَ الوِلاياتِ الّتي تُؤْمِنُ بِحُرّيّةِ العبيدِ ، وهُناكَ تنْتهي متاعِبُنا .

إلّا أنّهُ في اللّيْلةِ التّاليةِ شمِلَ الجوَّ ضبابٌ كثيفٌ ، واسْترْسلْنا في

حديثِنا عنْ مَدينةِ كايرو ، وتساءَلْنا إنْ كُنّا سنعْرِفُها حينَ نصِلُ إليْها . ولَمْ يكُنْ ثمّةَ ما نفْعلُهُ سِوى أنْ نبْحثَ عنْها . وبيْنَ الفيْنةِ والأُخْرى كانَ جيم يقْفِزُ صائِحاً . « ها هِيَ ! » ولكِنَّ ظنَّهُ يخيبُ ، وما نحْسبُهُ مَدينةَ كايرو يتّضِحُ أنّهُ بعْضُ الأضْواءِ المُتحرِّكةِ ، أوْ حشَراتٌ مِنَ النّوْعِ اللّامِعِ ، فيَجْلِسُ جيم ، ثُمَّ يبْدأُ مِنْ جديدٍ في البحْثِ عنْ مَدينةِ كايرو كما كانَ يفْعلُ ، مِنْ قبْلُ . وقَدْ قالَ لي إنَّ اقْترابَهُ مِنَ الحُرّيّةِ يجْعلُهُ قلِقاً نشِطاً . و واصلْنا بحْثَنا عنْ ضوْءٍ ينبّئُنا بِاقْترابِنا مِنْ مَدينةِ كايرو . وأخيراً صاحَ جيم : « لقَدْ وصَلْنا إلى برِّ الأمانِ ، يا هكْ . ها هِيَ ذي مَدينةُ كايرو أخيراً . »

قُلْتُ لهُ : « سأسْتقِلُّ الزّوْرقَ وأرى ، يا جيم . »

قالَ وأنا أنْدفِعُ بِالزّوْرقِ : « بعْدَ قليلٍ سأضْحى طليقاً تمْلؤُني البهْجةُ والفرَحُ . شُكْراً يا هكْ . جيم لنْ ينْساكَ أبداً . أنْتَ أفْضلُ صَديقٍ قابلَهُ جيم حتّى الآنَ . »

جدّفْتُ بِالزّوْرقِ بعيداً ، ولَمْ يمْضِ سِوى وقْتٍ قصيرٍ حتّى شاهَدْتُ قارِباً يجْلِسُ فيهِ رجُلانِ مُسلّحانِ . وأمرَني الرّجُلانِ بِالتّوقُّفِ ، فتوقّفْتُ . وسألَ أحدُهُما :

« هلْ هذا الرّمَثُ مِلْكُكَ ؟ »

« نَعَمْ ، يا سَيِّدي »

« هَل عَلَيْهِ أَحَدٌ ؟»

« رَجُلٌ واحِدٌ ، يا سَيِّدي»

« لَقَدْ هَرَبَ اللَّيْلَةَ خَمْسَةُ عَبيدٍ . هَلِ الرَّجُلُ الَّذي عَلى الرَّمَثِ أَبيَضُ ؟»

« نَحْنُ أَبْيَضانِ ، يا سَيِّدي .»

كانَتْ هَذِهِ إجابَتي ، وَلكِنّي تَلَعْثَمْتُ في النُّطْقِ بِها ، فَقالَ الرَّجُلُ : « سَنَذْهَبُ وَنَرى بِأَنْفُسِنا .»

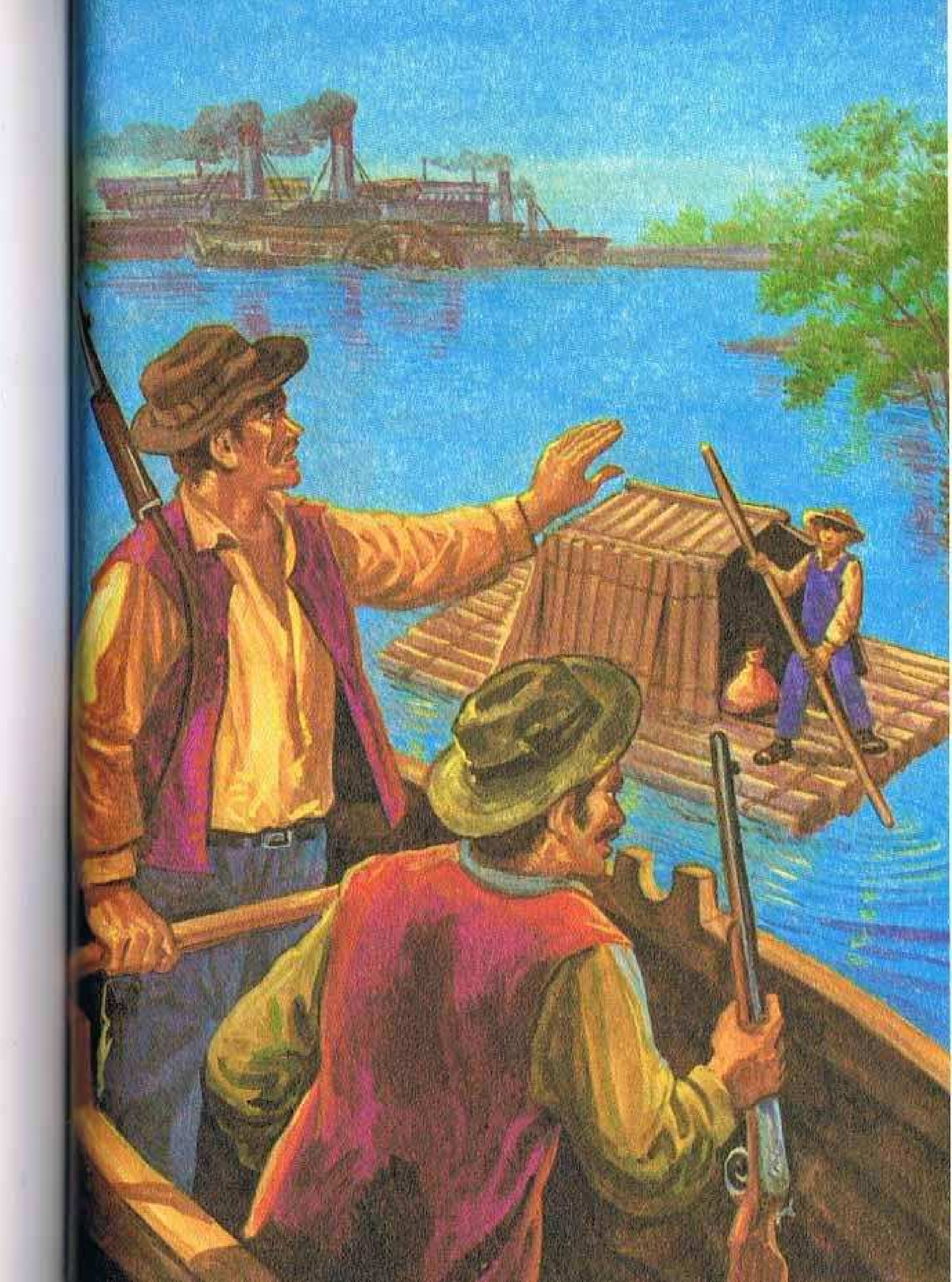
قُلْتُ لَهُ : « أَتَمَنّى لَوْ تَفْعَلُ ذَلِكَ ، يا سَيِّدي ؛ لأَنَّ أَبي يَقْبَعُ هُناكَ مَريضاً ، وَكَذَلِكَ أُمّي ، وَماري آن .»

قالَ الرَّجُلُ : « دَعْنا نَذْهَبْ . جَدِّفْ أَيُّها الصَّبِيُّ .»

وَبَعْدَ أَنْ سِرْنا قَليلاً قُلْتُ لَهُما : « إِنَّ أَبي سَيَشْكُرُكُما جِدًّا ، فَكُلُّ مَنْ طَلَبْتُ إِلَيْهِ أَنْ يُساعِدَني في سَحْبِ الرَّمَثِ إِلى الشّاطِئِ كانَ يَفِرُّ مِنّا بَعيداً .»

قالَ أَحَدُهُما : « ما حِكايَةُ أَبيكَ ، أَيُّها الصَّبِيُّ ؟»

قُلْتُ : « إِنَّهُ الـ .. الـ .. حَسَناً ، لا شَيْءَ .»



تَوَقَّفَ الرَّجُلانِ عَنِ التَّجْديفِ وَقَدْ أَصْبَحْنا قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى مِنَ الرَّمَثِ .

قالَ الرَّجُلُ : « أَيُّها الصَّبِيُّ ، إِنَّكَ تَكْذِبُ . ما حِكايَةُ أَبيكَ ؟ قُلِ الحَقيقَةَ . »

قُلْتُ : « سَأَقولُ ، يا سَيِّدي . سَأُخْبِرُكُما بِكُلِّ أَمانَةٍ . وَلكِنْ لا تَتْرُكانا ، أَرْجوكُما لا تَتْرُكانا ! إِنَّكُما لَسْتُما في حاجَةٍ لأَنْ تَقْتَرِبا مِنَ الرَّمَثِ . »

قالَ أَحَدُهُما : « لِنَعُدْ ، يا جون . اِبْتَعِدْ أَيُّها الصَّبِيُّ . أَبوكَ مَريضٌ بِمَرَضٍ مُعْدٍ ، وَأَنْتَ تَعْرِفُ ذلِكَ . هَلْ تُريدُ أَنْ تَنْشُرَ المَرَضَ في المَدينَةِ ؟ »

قُلْتُ وَالدُّموعُ تَنْسابُ مِنْ عَيْنَيَّ : « كُلَّما أَخْبَرْتُ أَحَدًا بِذلِكَ تَرَكَنا وَفَرَّ . »

« أَيُّها الشَّيْطانُ المِسْكينُ ! أُنْظُرْ ، سَأُخْبِرُكَ بِما تَفْعَلُ . سِرْ بِالرَّمَثِ حَوالى ثَلاثينَ كيلومِترًا ، وَسَتَصِلُ إِلى إِحْدى المُدُنِ . وَعِنْدَما تَطْلُبُ العَوْنَ مِنَ النّاسِ أَخْبِرْهُمْ أَنَّ أَقْرِباءَكَ مُصابونَ بِالبَرْدِ وَالحُمّى . خُذْ ، سَأَضَعُ قِطْعَةً ذَهَبِيَّةً مِنْ ذاتِ العِشْرينَ دولارًا عَلى اللَّوْحِ ، خُذْها عِنْدَما يَقْتَرِبُ اللَّوْحُ مِنْكَ . »

قالَ الرَّجُلُ الآخَرُ : « اِنْتَظِرْ ، يا باركر . هاكَ قِطْعَةً أُخْرى مِنّي ، ضَعْها عَلى اللَّوْحِ أَيْضًا . وَداعًا أَيُّها الصَّبِيُّ وَافْعَلْ كَما أَخْبَرَكَ السَّيِّدُ باركر ، وَسَتَكونُ عَلى ما يُرامُ . »

وَابْتَعَدا ، فَصَعِدْتُ عَلى سَطْحِ الرَّمَثِ ، وَدَخَلْتُ المَأْوى ، غَيْرَ أَنّي لَمْ أَجِدْ جيم ، فَصِحْتُ أُناديهِ : « جيم ! »

« هأَنَذا ، يا هَكْ . هَلْ ذَهَبا ؟ »

كانَ جيم مُخْتَفِيًا في النَّهْرِ ، تَحْتَ المِجْدافِ ، وَقَدْ غَمَرَ جَسَدَهُ في الماءِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَبْرُزُ مِنْهُ سِوى أَنْفِهِ. وَقالَ لي حينَ صَعِدَ إِلى سَطْحِ الرَّمَثِ: « لَقَدِ اسْتَطَعْتَ خِداعَهُمْ ، يا هَكْ . هذِهِ بَراعَةٌ مِنْكَ. أَعْتَقِدُ أَنَّ ما فَعَلْتَهُ قَدْ أَنْقَذَ جيم العَجوزَ . إِنَّ جيم العَجوزَ لَنْ يَنْسى لَكَ هذا أَبَدًا ، يا عَزيزي . »

وَتَحَدَّثْنا عَنِ النُّقودِ ، فَقالَ جيم إِنَّنا نَسْتَطيعُ الآنَ أَنْ نُسافِرَ عَلى السُّفُنِ البُخارِيَّةِ ، وَإِنَّ هذا المالَ سَيَكْفينا حَتّى نَصِلَ إِلى الوِلاياتِ الَّتي تَعْتَنِقُ حُرِّيَّةَ العَبيدِ .

وَعِنْدَ الفَجْرِ أَوْقَفْنا الرَّمَثَ ، وَرَبَطْناهُ بِالشّاطِئِ . وَأَخَذَ جيم يَعْمَلُ طَوالَ النَّهارِ في حَزْمِ الأَمْتِعَةِ عَلى هَيْئَةِ صُرَرٍ ، وَيُعِدُّ كُلَّ شَيْءٍ لِمُغادَرَةِ الرَّمَثِ . وَفي حَوالى السّاعَةِ العاشِرَةِ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ

أبصرْنا أنوارَ مدينةٍ ، فأخذْتُ الزّوْرقَ بقصْدِ الذّهابِ إليْها ، فالتقيْتُ رَجُلاً يَصْطادُ سَمكاً في النّهرِ ، فسألْتُهُ : « يا سيّدُ ، هلْ هذهِ مدينةُ كايرو ؟ »

« كايرو ؟ لا . لا بُدّ أنّكَ أحْمقُ . »

« ما اسْمُ هذهِ المدينةِ إذاً ؟ »

« إذا كُنْتَ تُريدُ أنْ تعرفَ فاذْهبْ إليْها واكْتشِفْ بنفْسِكَ . »

فجدّفْتُ عائداً نحْوَ الرّمْثِ ، ولمّا أخبرْتُ جيم بذلِكَ ، أصابهُ اليأسُ غيرَ أنّهُ قالَ : « لا عليْكَ ، ستكونُ كايرو هيَ المدينةَ التّاليةَ . »

إلّا أنّ الشّكّ بدأَ يُساوِرُني ، وكذلِكَ بدأَ يُساوِرُ جيم . وقُلْتُ لهُ : « رُبّما نكونُ قدْ مررْنا بها في الوقْتِ الّذي سقطَ فيهِ الضّبابُ تلْكَ اللّيْلةَ . »

قالَ جيم : « دعْنا لا نتحدّثُ عنْ ذلِكَ ، يا هك ، فأنا أعرِفُ أنّ جِلْدَ الثّعْبانِ الّذي أحضرْتَهُ لمْ ينْتهِ مفْعولُهُ بعْدُ في جلْبِ الحظّ السّيّئِ لنا . »

وعِنْدما طلَعَ النّهارُ رأيْنا مياهَ نهْرِ أوهايو الصّافيةَ تتّجهُ نحْوَ الشّاطِئِ . وفي الخارجِ كانَ نهْرُ المسيسيبي بما يحْمِلُ منْ غرْيَنٍ ؛ إذاً لقدِ ابْتعدْنا عنْ مدينةِ كايرو .

توقّفْنا عنِ الحديثِ عنْ مدينةِ كايرو ، وباتَ ذهابُنا للشّاطِئِ لا غَناءَ فيهِ ، فلمْ يكُنْ بوُسْعِنا أنْ نعومَ بالرّمْثِ في النّهرِ ، ولمْ يكُنْ أمامَنا سوى أنْ ننْتظِرَ حُلولَ الظّلامِ ثُمّ نعودَ للزّوْرقِ ، ومِنْ ثمّ فقدْ نِمْنا النّهارَ كُلّهُ وسْطَ الشُّجيْراتِ ، وعِنْدما عُدْنا إلى الرّمْثِ معَ حُلولِ الظّلامِ كانَ الزّوْرقُ قدِ اخْتفى .

لمْ نتفوّهْ بكَلِمةٍ واحِدةٍ . فقدْ كانَ كلانا ، يعْرِفُ أنّ هذا منْ عَمَلِ جِلْدِ الثُّعْبانِ ، ومنْ هُنا كانَ الحديثُ عنِ الزّوْرقِ لا جدْوى منْهُ . ولمْ يكُنْ أمامَنا سوى خيارٍ واحِدٍ ، أنْ نرْكبَ الرّمْثَ حتّى تحينَ لنا فُرْصةٌ فنشْتري زوْرقاً نعودُ فيهِ . وهكذا ركِبْنا الرّمْثَ ، وسِرْنا بهِ بعْدَ أنْ حلّ الظّلامُ .

كانَ المكانُ الّذي تُباعُ فيهِ الزّوارِقُ يقعُ بجانبِ الشّاطِئِ ، بعيداً عنِ المكانِ الّذي تُشْترى منْهُ الأرْماثُ ، غيْرَ أنّ ثلاثَ ساعاتٍ أوْ رُبّما أكْثرَ ، مرّتْ دونَ أنْ نرى شيْئاً . وازْدادَ اللّيْلُ حُلْكةً ، وتكاثفَ الضّبابُ ، وبِتْنا لا نرى شيْئاً ، ولا نُميّزُ للنّهرِ شكْلاً .

وفجْأةً ظهرَتْ أمامَنا سفينةٌ بُخاريّةٌ ، فأضأْنا الفانوسَ ، ظنّاً منّا أنّ رُكّابَها سيرَوْنَهُ . وكانتِ الباخِرةُ تُسْرِعُ نحْوَنا مِثْلَ سحابةٍ سوْداءَ مُحاطةٍ بصُفوفٍ منَ الأضْواءِ . وفجْأةً كانتِ الباخِرةُ فوْقَنا مُباشرةً . واخْتلطَ الصُّراخُ برنينِ الأجْراسِ بإيقافِ المُحرّكاتِ ، وتناثرتِ

اللَّعَناتُ مَعَ صَفيرِ البُخارِ . وَتَعلَّقَ جيم بِالسَّفينَةِ مِنْ أحَدِ جَوانِبِها ، وَتَعلَّقْتُ أنا بِالجانِبِ الآخَرِ ، في الوَقْتِ الَّذي كانَتْ فيهِ السَّفينَةُ تَسْحَقُ الرَّمَثَ سَحْقاً .

غُصْتُ في الماءِ حَتّى قاعِ النَّهْرِ لأنَّ عَجَلَةً بِارْتِفاعِ عَشَرَةِ أمْتارٍ كانَتْ سَتَسْحَقُني . وَعِنْدَما طَفَوْتُ إلى السَّطْحِ مَرَّةً أخْرى ، كانَتِ السَّفينَةُ قَدِ اخْتَفَتْ عَنِ الأنْظارِ ، وَغاصَتْ في الضَّبابِ الكَثيفِ . وَكانَتْ مُحَرِّكاتُها قَدْ عادَتْ لِلْهَديرِ بَعْدَ مُرورِ عَشْرِ ثَوانٍ فَقَطْ مِنْ تَوَقُّفِها ، فَهَذِهِ السُّفُنُ لا تُلْقي بالاً ، عَلى الإطْلاقِ ، لِلأرْماثِ .

أخَذْتُ أنادي جيم مَرّاتٍ عَديدَةً ، غَيْرَ أنَّني لَمْ أحْظَ بِجَوابٍ ، وَضاعَ نِدائي في الهَواءِ ، فَانْدَفَعْتُ أسْبَحُ نَحْوَ الشّاطِئِ ، حَتّى وَصَلْتُ سالِماً إلى ضِفَّةِ النَّهْرِ . وَسِرْتُ بِبُطْءٍ فَوْقَ أرْضٍ وَعْرَةٍ مَسافَةَ نِصْفِ كيلومِترٍ حَتّى وَصَلْتُ إلى مَنْزِلٍ كَبيرٍ عَتيقِ الطِّرازِ ، خَرَجَتْ مِنْهُ كِلابٌ كَثيرَةٌ تَثِبُ نَحْوي وَتَنْبَحُ في وَجْهي ، فَرَأيْتُ أنَّهُ مِنَ الأفْضَلِ لي ألا أخْطُوَ نَحْوَ المَنْزِلِ خُطْوَةً أخْرى .

الفَصْلُ السّابع

الثّأر

بَعْدَ نِصْفِ دَقيقَةٍ سَمِعْتُ صَوْتَ شَخْصٍ يَسْألُ عَبْرَ النّافِذَةِ دونَ أنْ يُظْهِرَ بِرَأسِهِ : « مَنْ هُناكَ ؟ »

أجَبْتُهُ : « أنا – جورج جاكسون . »

قالَ الصَّوْتُ : « وَماذا تُريدُ في هَذا الوَقْتِ مِنَ اللَّيْلِ ؟ »

قُلْتُ : « لا شَيْءَ ، يا سَيِّدي . لَقَدْ سَقَطْتُ مِنْ ظَهْرِ السَّفينَةِ في الماءِ . »

قالَ الصَّوْتُ : « آهِ ! سَقَطْتَ مِنَ السَّفينَةِ .. صَحيحٌ ؟ لا داعِيَ لِلْخَوْفِ ، فَلَنْ يُؤْذيكَ أحَدٌ . وَلَكِنْ لا تُحاوِلْ أنْ تَتَحَرَّكَ . اِسْتَيْقِظْ يا بوب ، وَأنْتَ يا توم ، وَلْيُحْضِرْ كُلٌّ مِنْكُما بُنْدُقِيَّتَهُ . »

وَأضافَ : « جورج جاكسون ، هَلْ مَعَكَ أحَدٌ ؟ »

قُلْتُ : « لا ، يا سَيِّدي . لَيْسَ مَعي أحَدٌ . »

قالَ الصَّوْتُ : « جورج جاكسون ، هَلْ تَعْرِفُ عائِلَةَ شيبردسون ؟»

أجبْتُهُ « لا ، يا سيِّدي . لَمْ أسْمَعْ عَنْها قطُّ .»

قالَ الصَّوْتُ : « حَسَنًا ، اُخطُ لِلأمامِ بِبُطْءٍ ، وَإذا كانَ معَكَ أحَدٌ فاطْلُبْ مِنْهُ أنْ يَبْقى في مَكانِهِ ، وإلّا سأطْلِقُ عَلَيْهِ الرَّصاصَ . اِدْفَعِ البابَ بِرِفْقٍ لِتَفْتَحَهُ بِالقَدْرِ الذي يَسْمَحُ لَكَ بِالانْسِلالِ مِنْ خِلالِهِ . هَلْ تَسْمَعُني ؟»

أخَذْتُ أخْطو بِبُطْءٍ ، خُطْوَةً خُطْوَةً . وَعِنْدَما وَصَلْتُ إلى الدَّرَجاتِ الثَّلاثِ المَوْجودَةِ أمامَ البابِ ، والمَصْنوعَةِ مِنْ جُذوعِ الأشْجارِ ، سَمِعْتُهُمْ يَفْتَحونَ القُفْلَ ، وَيَرْفَعونَ المِزْلاجَ ، فَدَفَعْتُ البابَ رُوَيْدًا رُوَيْدًا حَتّى سَمِعْتُ أحَدَهُمْ يَقولُ : « كَفى ! أدْخِلْ رَأسَكَ فَقَطْ .»

فَعَلْتُ كَما أمَرَني ، فَرَأيْتُهُمْ ، عَلى ضَوْءِ شَمْعَةٍ مَوْضوعَةٍ عَلى الأرْضِ، واقِفينَ هُناكَ جَميعًا . وَانْقَضى ما يَقْرُبُ مِنْ دَقيقَةٍ وَهُمْ يَنْظُرونَ إلَيَّ وَأنا أنْظُرُ إلَيْهِمْ .

كانَ هُناكَ ثَلاثَةُ رِجالٍ ضِخامُ الجِسْمِ ، أحَدُهُمْ شَيْخٌ مُسِنٌّ أشْيَبُ الشَّعْرِ . أمّا الآخَرانِ فَلَمْ يَتَجاوَزا الثّانِيَةَ والثَّلاثينَ ، أوْ رُبَّما

تَجاوَزاها بِقَليلٍ . وَكانوا جَميعُهُمْ ذَوي أناقَةٍ وَمَظْهَرٍ حَسَنٍ . وَكانَتْ مَعَهُمْ أجْمَلُ سَيِّدَةٍ عَجوزٍ رَأيْتُها ، وَقَدْ تَتَوَّجَتْ بِشَعْرٍ أشْيَبَ جَميلٍ ، وَخَلْفَها كانَتْ تَقِفُ فَتاتانِ .

قالَ الشَّيْخُ ذو الشَّعْرِ الأشْيَبِ : « أعْتَقِدُ أنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَلى ما يُرام . اُدْخُلْ .»

وَما إنْ دَخَلْتُ حَتّى أغْلَقَ البابَ بِالمِفْتاحِ ، وَأنْزَلَ المِزْلاجَ ، ثُمَّ اتَّجَهوا جَميعُهُمْ إلى غُرْفَةِ الجُلوسِ ، وَهُناكَ رَفَعوا الشَّمْعَةَ وَأخَذوا يُنْعِمونَ النَّظَرَ فِيَّ ، ثُمَّ قالوا كُلُّهُمْ : « إنَّهُ لَيْسَ مِنْ عائِلَةِ شيبردسون .» وَرَحَّبَ بي الشَّيْخُ ، وَطَلَبَ مِنّي أنْ أسْرُدَ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ عَنّي .

قالَتِ السَّيِّدَةُ العَجوزُ : « لِيُبارِكْكَ اللّهُ ، يا سُول . إنَّ الصَّبِيَّ المِسْكينَ مُبْتَلٌّ تَمامًا ، وَرُبَّما يَكونُ جائِعًا .»

فَقالَ الشَّيْخُ : « أنْتِ مُحِقَّةٌ في هذا ، يا راشيل . لَقَدْ نَسيتُ .»

وَقالَتِ السَّيِّدَةُ لِلْفَتاتَيْنِ: « لِتَذْهَبْ إحْداكُما فَتوقِظَ ‹‹ بَكْ ›› وَتُخْبِرَهُ أنَّ ... آهٍ ها هُوَ ذا بَكْ نَفْسُهُ . بَكْ أعْطِ لِهذا الغَريبِ الصَّغيرِ بَعْضَ مَلابِسِكَ الجافَّةِ لِيَرْتَدِيَها .»

كانَ بَكْ يُقارِبُني سِنًّا ، فَهُوَ في الثّالِثَةَ عَشْرَةَ أوِ الرّابِعَةَ عَشْرَةَ .

وَكانَ قَدْ دَخَلَ الغُرْفَةَ وَهُوَ يَتَثاءَبُ وَيَفْرُكُ عَيْنَيْهِ بِيَدٍ وَيَجُرُّ بُنْدُقِيَّةً بِاليَدِ الأُخْرى .

تَساءَلَ : « أَلا يوجَدُ أَحَدٌ هُنا مِنْ عائِلَةِ شيبردسون ؟» فَهَزَّ الشَّيْخُ رَأْسَهُ نَفْياً .

وَعِنْدَما صَعِدْنا إِلى الطّابَقِ العُلْوِيِّ حَيْثُ توجَدُ غُرْفَتُهُ أَعْطاني بَكْ بَعْضَ مَلابِسِهِ ، فَارْتَدَيْتُها .

سَأَلَني بَكْ : « كَمْ يَطولُ مُكْثُكَ هُنا ؟ لا بُدَّ أَنْ تَمْكُثَ هُنا طَويلاً ، فَنَقْضِيَ مَعاً أَوْقاتاً رائِعَةً . إِنَّنا الآنَ في عُطْلَةٍ مِنَ المَدْرَسَةِ . أَ مُسْتَعِدٌّ أَنْتَ ؟ إِذاً هَيّا بِنا .»

وَعِنْدَما هَبَطْتُ إِلى الطّابَقِ الأَرْضِيِّ وَجَدْتُهُمْ قَدْ أَعَدّوا لي خُبْزَ ذُرَةٍ بارِداً ، وَلَحْمَ بَقَرٍ بارِداً ، وَزُبْدَةً ، وَلَبَناً مَخيضاً . وَفي حَياتي لَمْ أَتَناوَلْ طَعاماً أَلَذَّ مِنْ هذا . وَراحوا كُلُّهُمْ يُمْطِرونَني بِالأَسْئِلَةِ ، فَلَفَّقْتُ لَهُمْ قِصَّةً ، فَسَمَحوا لي بِالبَقاءِ مَعَهُمْ حَسْبَما أُريدُ . وَكانَ الفَجْرُ قَدِ انْبَلَجَ في هذا الوَقْتِ ، وَذَهَبَ كُلٌّ مِنْهُمْ إِلى فِراشِهِ ، وَقاسَمْتُ بَكْ الغُرْفَةَ .

وَعِنْدَما اسْتَيْقَظْتُ مِنْ نَوْمي نَسيتُ اسْمي الَّذي كُنْتُ قَدْ لَفَّقْتُهُ لَهُمْ ، وَلِذلِكَ قُلْتُ لِبَكْ حينَ اسْتَيْقَظَ : « هَلْ تَسْتَطيعُ أَنْ تَتَهَجّى ، يا بَكْ ؟»

قالَ : « نَعَمْ ، أَسْتَطيعُ .»

قُلْتُ : « أُراهِنُ أَنَّكَ لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَتَهَجّى اسْمي .»

قالَ : « وَأَنا أُراهِنُ أَنَّني أَسْتَطيعُ .. ج – و – ر – ج ثُمَّ ج – ا – ك – س – و – ن .»

فَدَوَّنْتُ الاسْمَ سِرّاً خَشْيَةَ أَنْ يَطْلُبَ مِنّي أَحَدُهُمْ هِجاءَهُ .

كانَتْ عائِلَةً لَطيفَةً ، وَكانَ مَنْزِلاً جَميلاً . كانَ عَلى البابِ الأَمامِيِّ مِقْبَضٌ مِنَ النُّحاسِ الأَصْفَرِ ، أَمّا في غُرْفَةِ الجُلوسِ فَثَمَّةَ مِدْفَأَةٌ كَبيرَةٌ مِنَ القِرْميدِ ، تَسَعُ جِذْعَ شَجَرَةٍ بِأَكْمَلِهِ ، وَفَوْقَ رَفِّها ساعَةٌ كَبيرَةٌ لَها دَقّاتٌ جَميلَةٌ رَنّانَةٌ ، تَنْطَلِقُ مِنْها حينَ تَعْمَلُ بَعْدَ أَنْ يَقومَ أَحَدُ مُصْلِحي السّاعاتِ الجَوّالينَ بِتَنْظيفِها ، فَفي ذاكَ الوَقْتِ تَبْدَأُ العَمَلَ وَتَدُقُّ مِئَةً وَخَمْسينَ دَقَّةً قَبْلَ أَنْ تَتَوَقَّفَ . وَأَحْسَبُ أَنَّهُمْ لا يَبيعونَها أَبَداً نَظيرَ أَيِّ مَبْلَغٍ مِنَ المالِ .

وَعَلى الجُدْرانِ لَوْحاتٌ مُعَلَّقَةٌ رَسَمَتْها إِحْدى بَناتِهِمْ قَبْلَ أَنْ تَقْضِيَ نَحْبَها في رَبيعِها الخامِسَ عَشَرَ . وَقَدْ سَقَطَتْ مَريضَةً وَهِيَ تَعْمَلُ في أَعْظَمِ لَوْحاتِها – وَهِيَ صورَةٌ لامْرَأَةٍ شابَّةٍ تَرْتَدي ثَوْباً أَبْيَضَ فَضْفاضاً ، وَتَقِفُ عَلى حاجِزِ جِسْرٍ تَتَأَهَّبُ لِلْقَفْزِ مِنْهُ ، وَقَدِ

اسْتَرْسَلَ شَعْرُها على ظَهْرِها ، وَتتطَلَّعُ نَحْوَ القمرِ وَالدُّموعُ تَنْهَمِرُ على وَجْهِها ، وَلَها ذِراعانِ طَوَتْهُما على صَدْرِها ، وَذِراعانِ مُمْتَدَّتانِ أمامَها ، وَذِراعانِ مَبْسوطَتانِ نَحْوَ القَمَرِ . وَكانَتِ الفِكْرَةُ مِنْ وَراءِ كُلِّ تِلْكَ الأَذْرُعِ أَنْ تَرى أَيَّ الذِّراعَيْنِ أَجْمَلَ وَأَنْسَبَ ، فَتُبْقيهُما وَتَمْحُو الأَذْرُعَ الأخرى ، وَلكِنَّها ماتَتْ قَبْلَ أَنْ تُقَرِّرَ ذلِكَ . وَكانَ وَجْهُ المَرْأَةِ الشَّابَّةِ في الصُّورَةِ جَميلاً إلى حَدٍّ ما ، وَلكِنَّ هَذِهِ الأَذْرُعَ الكَثيرَةَ جَعَلَتْها تَبْدو ، في رَأْيي ، مِثْلَ العَنْكَبوتِ .

كانَ الكولونيل غرانجرفورد ، في مُجْمَلِهِ ، سَيِّداً مُهَذَّباً . وَكانَ طَويلَ القامَةِ ، نَحيلَها ، ذا وَجْهٍ شاحِبٍ يَميلُ إلى السُّمْرَةِ ، حَليقَ اللِّحْيَةِ . وَكانَتْ شَفَتاهُ شَديدَتَي الرِّقَّةِ . وَكانَ أَنْفُهُ مُرْتَفِعاً ، وَحاجِباهُ كَثيفَيْنِ ، وَعَيْناهُ عَميقَتَي السَّوادِ ، غائِرَتَيْنِ في وَجْهِهِ ، كَأَنَّهُما يَتَطَلَّعانِ إِلَيْكَ مِنْ كَهْفَيْنِ . أَمّا شَعْرُهُ فَكانَ سَبْطاً مُسْتَرْسِلاً على كَتِفَيْهِ . وَأَمّا يَداهُ فَكانَتا طَويلَتَيْنِ نَحيلَتَيْنِ .

كانَ يَبْدَأُ يَوْمَهُ دائِماً بِارْتِداءِ قَميصٍ نَظيفٍ ، وَحُلَّةٍ ناصِعَةِ البَياضِ ، رُبَّما تُسَبِّبُ لِعَيْنَيْكَ أَذًى مِنْ شِدَّةِ بَياضِها .

وَفي أَيّامِ الآحادِ كانَ يَرْتَدي مِعْطَفاً أَزْرَقَ ، طَويلَ الذَّيْلِ ، نُحاسِيَّ الأَزْرارِ . وَكانَ يَحْمِلُ عَصاً ذاتَ مَقْبِضٍ فِضِّيٍّ . وَكانَ

بالِغَ العَطْفِ على الآخَرينَ ، حَتّى إِنَّكَ لَتَسْتَطيعُ أَنْ تَلْمِسَ هذا العَطْفَ وَتَعْرِفَهُ ، وَمِنْ ثَمَّ تُحِسُّ نَحْوَهُ بِالثِّقَةِ وَالأَمانِ .

وَكانَ بوب أَكْبَرَ أَبْنائِهِ ، وَيَليهِ توم . وَهُما رَجُلانِ فارِعا القامَةِ ، وَذَوا مَظْهَرٍ حَسَنٍ ، وَلَهُما أَكْتافٌ عَريضَةٌ ، وَوُجوهٌ بُنِّيّانِ ، وَشَعْرٌ أَسْوَدُ طَويلٌ ، وَعُيونٌ سَوْداءُ . وَكانا يَرْتَدِيانِ ثِياباً بَيْضاءَ مِثْلَ أَبيهِما تَماماً ، وَيَضَعانِ على رَأْسَيْهِما قُبَّعَتَيْنِ عَريضَتَيْنِ .

وَهُناكَ الآنِسَةُ شارلوت ، وَهِيَ في الخامِسَةِ وَالعِشْرينَ مِنْ عُمْرِها ، جَميلَةٌ ، مَمْشوقَةٌ ، مُتَكَبِّرَةٌ مَغْرورَةٌ . إذا غَضِبَتْ نَظَرَتْ إِلَيْكَ نَظْرَةً تَجْعَلُكَ تَتَجَمَّدُ في مَكانِكَ ، وَهِيَ في هذا تُشْبِهُ أَباها .

أَمّا أُخْتُها صوفيا فَكانَتْ جَميلَةً مِثْلَها ، وَلكِنَّ جَمالَها مِنْ نَوْعٍ مُخْتَلِفٍ ، فَقَدْ كانَتْ رَقيقَةً حُلْوَةً ، لَمْ تَتَجاوَزِ العِشْرينَ مِنْ عُمْرِها .

تِلْكَ كانَتِ الأُسْرَةَ كُلَّها ، وَذلِكَ عَدا الأَبْناءِ الثَّلاثَةِ الَّذينَ قُتِلوا ، وَعَدا إميلين الَّتي ماتَتْ .

وَكانَ الشَّيْخُ يَمْتَلِكُ الكَثيرَ مِنَ المَنازِلِ ، وَما يَزيدُ على المِئَةِ مِنَ العَبيدِ . وَأَحْياناً كانَ يَفِدُ على مَنْزِلِهِ جَمْعٌ مِنَ النّاسِ ، مُعْظَمُهُمْ مِنَ الأَقارِبِ . كانوا يَأْتونَ راكِبينَ جِيادَهُمْ ، وَقَدْ قَطَعوا مَسافاتٍ تَتَراوَحُ بَيْنَ خَمْسَةَ عَشَرَ وَعِشْرينَ كيلومِتْراً ، فَيَمْكُثونَ لَدى الشَّيْخِ خَمْسَةَ أَوْ

سِتَّةَ أيامٍ يقومونَ خِلالَها بِرِحْلاتٍ لِلْمُتْعَةِ فيما جاوَرَهُمْ مِنْ أماكِنَ . وَيَرْكَبونَ النَّهْرَ ، وَيُقيمونَ حَفَلاتٍ في الغابَةِ أثْناءَ النَّهارِ وَحَفَلاتٍ لِلرَّقْصِ في المَنْزِلِ لَيْلاً . وَكانَ الرِّجالُ يَصْحَبونَ مَعَهُمْ بَنادِقَهُمْ .. كانُوا أناساً مُتَكَبِّرينَ .

كَما كانَتْ في المِنْطَقَةِ مَجْموعَةٌ أُخْرى مِنْ عائِلاتِ الطَّبَقَةِ العُلْيا ، تَبْلُغُ خَمْسَ أَوْ سِتَّ عائِلاتٍ . وَكانَ غالِبُ هَذِهِ العائِلاتِ يَنْتَمي إلى آلِ شيبروسون ، وَهُمْ أغْنِياءُ وَمُتَكَبِّرونَ ، مِثْلُهُمْ في ذَلِكَ مِثْلُ أُسْرَةِ غرانجرفورد .

وَقَدِ اعْتَدْتُ رُؤْيَةَ الشيبردسونيِّينَ مُمْتَطينَ صَهَواتِ جِيادِهِمُ الجَميلَةِ عِنْدَ مَرْسى السُّفُنِ البُخارِيَّةِ ، وَهُوَ نَفْسُهُ المَرْسى الَّذي يَسْتَخْدِمُهُ الغرانجرفوردِيُّونَ .

وَذاتَ يَوْمٍ خَرَجْتُ أنا وَبَكْ إلى الغابَةِ نَقْتَنِصُ ، وَأثْناءَ عُبورِنا الطَّريقَ سَمِعْنا جَواداً يَرْكُضُ في اتِّجاهِنا ، فَقالَ بَكْ : « أَسْرِعْ ! اِقْفِزْ إلى الغابَةِ ! »

وَما إنْ فَعَلْنا ذَلِكَ حَتّى ظَهَرَ شابٌّ رائِعٌ مُمْتَطِياً صَهْوَةَ جَوادِهِ وَيَعْدو سَريعاً في الطَّريقِ ، وَيَحْمِلُ بُنْدُقِيَّتَهُ . كانَ هَذا الشّابُّ هُوَ هارتي شيبردسون . وَفَجْأَةً سَمِعْتُ صَوْتَ رَصاصَةٍ تَنْطَلِقُ مِنْ بُنْدُقِيَّةِ بَكْ ، وَتَمْرُقُ بِجِوارِ أُذُني ، وَرَأَيْتُ قُبَّعَةَ هارتي تَسْقُطُ ، فَاتَّجَهَ مُباشَرَةً

بِجَوادِهِ إِلَيَّ حَيْثُ كُنّا مُخْتَبِئَيْنِ ، فَأَسْرَعْنا بِالابْتِعادِ ، فَتَحَوَّلَ عَنّا وَسارَ مُبْتَعِداً ، غَيْرَ أَنَّنا لَمْ نَتَوَقَّفْ عَنِ العَدْوِ حَتّى وَصَلْنا البَيْتَ .

وَبَيْنَما كانَ بَكْ يَسْرُدُ قِصَّتَهُ لَمَعَتْ عَيْنا الشَّيْخِ دَقيقَةً – مِنَ السُّرورِ عَلى ما أَعْتَقِدُ – ثُمَّ عادَ لِهُدوئِهِ وَقالَ بِرِفْقٍ : « أنا لا أُحِبُّ إِطْلاقَ الرَّصاصِ مِنْ وَراءِ الشَّجَرِ . لِماذا لَمْ تَعْتَرِضْ طَريقَهُ ؟ »

أَجابَ بَكْ : « الشيبردسونيُّونَ لا يَفْعَلونَ ذَلِكَ ، يا أَبي ، بَلْ يَتَّخِذونَ ساتِراً عَلى الدَّوامِ . »

شَمَخَتِ الآنِسَةُ شارلوت بِأَنْفِها لِأَعْلى ، كَأَنَّها مَلِكَةٌ ، حينَ كانَ بَكْ يَرْوي حِكايَتَهُ . وَبَدا الرَّجُلانِ مُتَجَهِّمَيْنِ ، وَلَكِنَّهُما لَمْ يَقولا شَيْئاً . أَمّا الآنِسَةُ صوفيا فَشَحَبَ وَجْهُها ، وَلَكِنَّ الدَّمَ عادَ إلى وَجْهِها مَرَّةً أُخْرى حينَ سَمِعَتْ أَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يُصَبْ بِسوءٍ .

سَأَلْتُ بَكْ حينَ انْفَرَدْنا بِأَنْفُسِنا : « هَلْ كُنْتَ تُريدُ أَنْ تَقْتُلَهُ ، يا بَكْ ؟ »

« نَعَمْ . »

« لِماذا ؟ ماذا فَعَلَ لَكَ ؟ »

« هُوَ ؟ لا شَيْءَ . »

« حَسَناً ، إذاً لِماذا تُريدُ أَنْ تَقْتُلَهُ ؟ »

« طَلَبًا لِلثَّأرِ .»

« أيُّ ثَأرٍ ؟»

قالَ بَكْ : « يَبْدَأُ الأمْرُ بِأنْ يَتَشاجَرَ رَجُلٌ مَعَ آخَرَ ، وَيَقْتُلَهُ ، فَيَثْأرُ لَهُ أخوهُ ، ثُمَّ يَسْتَشْري القَتْلُ بَيْنَ الإخْوَةِ الآخَرينَ وَأوْلادِ العُمومَةِ مِنْ كِلا الجانِبَيْنِ حَتّى يَهْلِكَ كُلُّ فَرْدٍ في العائِلَتَيْنِ ، وَهُنا يَنْتَهي الثَّأرُ وَتَنْقَضي العَداوَةُ ، وَلكِنَّ ذَلِكَ يَسْتَغْرِقُ زَمَنًا طَويلاً .»

قُلْتُ : « هَلْ حَدَثَ ذَلِكَ مُنْذُ زَمَنٍ طَويلٍ ، يا بَكْ ؟»

أجابَ « بِالتَّأكيدِ . لَقَدْ بَدَأ مُنْذُ حَوالى ثَلاثينَ عامًا . بَدَأ الأمْرُ بِمُشْكِلَةٍ تَتَعَلَّقُ بِشَيْءٍ مُعَيَّنٍ ، ثُمَّ كانَتْ هُناكَ قَضِيَّةٌ في المَحْكَمَةِ لِتَسْوِيَةِ تِلْكَ المُشْكِلَةِ . وَقَدْ حُكِمَ لِأحَدِ الرَّجُلَيْنِ ضِدَّ الآخَرِ ، فَقامَ الأخيرُ الَّذي خَسِرَ القَضِيَّةَ بِقَتْلِ الأوَّلِ الَّذي فازَ بِها .. وَكانَ عَلَيْهِ أنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ بِالطَّبْعِ .»

سَألْتُهُ : « مَنِ الَّذي أطْلَقَ الرَّصاصَ ؟ هَلْ كانَ مِنْ عائِلَةِ غرانجرفورد أمْ مِنْ عائِلَةِ شيبردسون ؟»

قالَ بَكْ : « أعْتَقِدُ أنَّ أبي هُوَ الَّذي يَعْرِفُ ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ بَعْضُ كِبارِ السِّنِّ في العائِلَةِ . وَلكِنَّهُمْ لا يَعْرِفونَ السَّبَبَ الأساسِيَّ لِلْمُشْكِلَةِ .»

قُلْتُ : « هَلْ قُتِلَ الكَثيرُ ، يا بَكْ ؟»

أجابَ : « نَعَمْ ، وَلكِنَّ الأمْرَ لا يَنْتَهي غالِبًا بِالقَتْلِ . لَقَدْ أُصيبَ أبي بِعَدَدٍ مِنَ الرَّصاصاتِ ، وَطُعِنَ بوب بِسِكّينٍ ، وَأُصيبَ توم بِجِراحٍ مَرَّةً أوْ مَرَّتَيْنِ .»

سَألْتُهُ : « وَهَلْ قُتِلَ أحَدٌ هَذِهِ السَّنَةَ ؟»

كانَ جَوابُهُ : « نَعَمْ ، قُتِلَ مِنّا واحِدٌ وَقُتِلَ مِنْهُمْ واحِدٌ .»

وَفي يَوْمِ الأحَدِ التّالي ذَهَبْنا جَميعًا في نُزْهَةٍ على ظُهورِ الجِيادِ ، وَبَعْدَ الغَداءِ بِساعَةٍ كانَ كُلُّ فَرْدٍ في البَيْتِ غارِقًا في نَوْمِهِ ، وَتَمَدَّدَ بَكْ وَكَلْبُهُ عَلى العُشْبِ وَقَدْ غَلَبَهُما النُّعاسُ . وَعِنْدَما ذَهَبْتُ أنا إلى غُرْفَتِنا لِأنالَ قِسْطًا مِنَ الرّاحَةِ ، وَجَدْتُ الآنِسَةَ صوفيا هُناكَ ، وَقَدْ طَلَبَتْ مِنّي أنْ أتَسَلَّلَ مِنَ البَيْتِ دونَ أنْ يَشْعُرَ بي أحَدٌ ، وَأنْ أذْهَبَ إلى الحَديقَةِ لِأُحْضِرَ لَها كِتابَ الصَّلَواتِ الَّذي كانَتْ قَدْ نَسِيَتْهُ عَلى مَقْعَدِها هُناكَ ، فَرَضَخْتُ لِطَلَبِها وَذَهَبْتُ .

وَقُلْتُ في نَفْسي : لا بُدَّ أنَّ في الأمْرِ سِرًّا ؛ فَلَيْسَ مِنَ الطَّبيعِيِّ أنْ تَقْلَقَ فَتاةٌ عَلى كِتابِ الصَّلَواتِ ، فَهَزَزْتُ الكِتابَ فَسَقَطَتْ مِنْهُ قُصاصَةُ وَرَقٍ مُدَوَّنٌ فيها بِالقَلَمِ الرَّصاصِ : « الثّانِيَةَ وَالنِّصْفَ » وَلَمّا لَمْ أسْتَطِعْ أنْ أسْتَنْتِجَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ العِبارَةِ أعَدْتُ القُصاصَةَ إلى

مَكانِها في الكِتابِ .

وَعِنْدَما وَصَلْتُ البَيْتَ ، وَصَعِدْتُ إلى الطّابَقِ العُلْويِّ ، وَجَدْتُ الآنِسَةَ صوفيا في انْتِظاري ، فَأخَذَتْ مِنّي الكِتابَ وَفَتَّشَتْ فيه حَتّى وَجَدَتِ القُصاصَةَ ، وَحينَ قَرَأتْها لَمَعَتْ عَيْناها سُروراً وَقالَتْ لي إنَّني أحْسَنُ غُلامٍ في العالَمِ ، وَطَلَبَتْ مِنّي ألا أخبِرَ أحَداً بِشَيْءٍ .

خَرَجْتُ مِنَ المَنْزِلِ مُتَّجِهاً نَحْوَ النَّهْرِ وَأنا أقَلِّبُ الأمْرَ في عَقْلي . وبَعْدَ قَليلٍ لاحَظْتُ أنَّ جاك خادِمَ بَكْ ، يَتْبَعُني . وَعِنْدَما أصْبَحْنا بَعيدَيْنِ عَنِ المَنْزِلِ هَرْوَلَ نَحْوي قائِلاً : « يا سَيِّدُ جورج ، لَوْ جِئْتَ مَعي ، فَإنَّني سَأريكَ كَثيراً مِنْ ثَعابينِ الماءِ.» فَتَبِعْتُهُ مَسافَةَ كيلومِتْرٍ ، خُضْنا الوَحْلَ في بَعْضٍ مِنْها ، حَتّى وَصَلْنا إلى قِطْعَةٍ صَغيرَةٍ مِنَ الأرْضِ المُنْبَسِطَةِ ، وَكانَتْ هَذِهِ الأرْضُ جافَّةً وَقَدْ تَكاثَفَتْ فيها الأشْجارُ وَالشُّجَيْراتُ. وَقالَ جاك : « تَقَدَّمْ مِنْ خِلالِ هَذِهِ الأشْجارِ ، يا سَيِّدُ جورج ، وَسَتَجِدُ الثَّعابينَ هُناكَ .» ثُمَّ ذَهَبَ مُبْتَعِداً عَنّي .

تَقَدَّمْتُ أشُقُّ طَريقي وَسْطَ الأشْجارِ حَتّى جِئْتُ إلى ساحَةٍ صَغيرَةٍ تُشْبِهُ غُرْفَةَ نَوْمٍ كَبيرَةٍ ، وَهُناكَ رَأيْتُ رَجُلاً نائِماً ، وَحينَ اقْتَرَبْتُ مِنْهُ ألْفَيْتُهُ صَديقي جيم العَجوزَ .

أيْقَظْتُ جيم وَأنا أعْتَقِدُ أنَّ رُؤْيَتَهُ لي سَتَكونُ مُفاجَأةً كُبْرى لَهُ ؛ فَلَمّا اسْتَيْقَظَ لَمْ يَبْدُ عَلَيْهِ أنَّهُ فوجِئَ بِوُجودي .. كانَ مُفْعَماً بِالسُّرورِ

لِرُؤْيَتي ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ دَهِشاً .

قالَ لي : « لَقَدْ سَبَحْتُ في إثْرِكَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ ، وَسَمِعْتُكَ تُناديني ، وَلَكِنَّني لَمْ أجْسُرْ عَلى إجابَةِ نِدائِكَ ، لأنَّني خِفْتُ أنْ يَقْبِضَ عَلَيَّ أحَدُهُمْ . وَكانَ قَدْ أصابَني جُرْحٌ ؛ وَمِنْ ثَمَّ لَمْ أسْتَطِعْ أنْ أسْرِعَ في سِباحَتي ، وَظَنَنْتُ أنَّني مُدْرِكُكَ عَلى البَرِّ . وَلَمّا رَأيْتُكَ تَدْخُلُ ذَلِكَ المَنْزِلَ جَعَلْتُ طَريقي إلى الغابَةِ أنْتَظِرُ فيها طُلوعَ النَّهارِ . وَفي الصَّباحِ الباكِرِ جاءَ بَعْضُ عُمّالِ المَزْرَعَةِ ، وَدَلّوني عَلى هَذا المَكانِ. وَكانوا يُحْضِرونَ لي طَعاماً كُلَّ لَيْلَةٍ وَيُخْبِرونَني عَمّا يَحْدُثُ لَكَ .»

سَألْتُهُ : « لِماذا لَمْ تَطْلُبْ مِنْ جاك أنْ يُحْضِرَني إلى هُنا بِسُرْعَةٍ ؟»

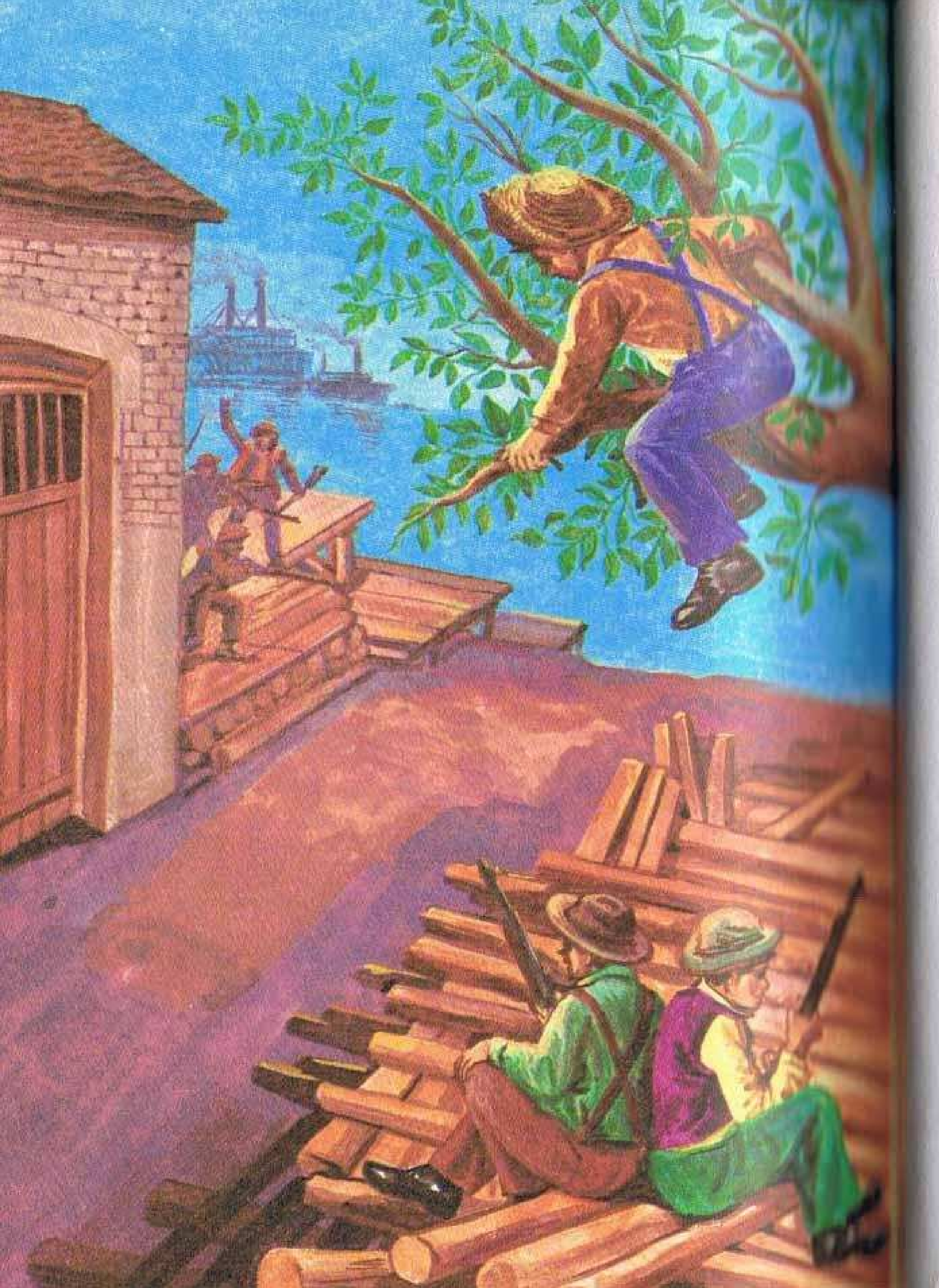
أجابَ : « لَمْ تَكُنْ ثَمَّةَ جَدْوى مِنْ إزْعاجِكَ قَبْلَ أنْ نَتَمَكَّنَ مِنْ عَمَلِ شَيْءٍ . نَحْنُ الآنَ عَلى ما يُرامُ . لَقَدِ اشْتَرَيْتُ قُدوراً وَمَقالِيَ وَطَعاماً ، وَأصْلَحْتُ الرَّمَثَ ، و ...»

قاطَعْتُهُ مُتَسائِلاً : « أيُّ رَمَثٍ ، يا جيم ؟»

قالَ : « رَمَثُنا القَديمُ .»

قُلْتُ : « أ تَعْني أنَّ رَمَثَنا القَديمَ لَمْ يَتَحَطَّمْ ؟»

قال مُجيباً : « بَلى ، لَمْ يَتْلَفْ فيهِ سِوى أحَدِ طَرَفَيْهِ ، وَهِيَ



خَسارَةً لَيْسَتْ بِالجَسيمَةِ ، رَغْمَ أَنَّنا فَقَدْنا مُعْظَمَ أَمْتِعَتِنا .»

سَأَلْتُهُ : « وَكَيْفَ عَثَرْتَ عَلى الرَّمَثِ مَرَّةً أُخْرى ؟»

قالَ : « لَقَدْ وَجَدَهُ بَعْضُ الزُّنوجِ ، وَاحْتَفَظوا بِهِ .»

لا أُريدُ أَنْ أُطيلَ في الحَديثِ عَمّا وَقَعَ في اليَوْمِ التّالي ، لَكِنَّني عِنْدَما اسْتَيْقَظْتُ عِنْدَ الفَجْرِ لاحَظْتُ أَنَّ بَكْ قَدْ نَهَضَ مِنْ مَرْقَدِهِ وَذَهَبَ ، كَما لاحَظْتُ أَنَّ المَنْزِلَ يَسودُهُ السُّكونُ ، فَهَبَطْتُ الدَّرَجَ ، فَلَمْ أَجِدْ أَحَداً ، ثُمَّ تَقابَلْتُ عِنْدَ كَوْمَةِ الخَشَبِ مَعَ جاك ، فَسَأَلْتُهُ: « ما الخَبَرُ ؟»

أَجابَني : « لَقَدْ هَرَبَتِ الآنِسَةُ صوفيا مَعَ هارتي شيبردسون لِيَتَزَوَّجا . وَاكْتَشَفَتِ الأُسْرَةُ الأَمْرَ مِنْ نِصْفِ ساعَةٍ ، وَلَمْ أَرَ مِنْ قَبْلُ مِثْلَ هٰذِهِ العَجَلَةِ في امْتِطاءِ الجِيادِ وَحَمْلِ السِّلاحِ . و وَرَكِبَ سَيِّدي الشَّيْخُ سول وَمَعَهُ الأَوْلادُ مُتَّجِهينَ صَوْبَ النَّهْرِ لِيَقْبِضوا عَلى ذٰلِكَ الشّابِّ وَيَقْتُلوهُ ، قَبْلَ أَنْ يَعْبُرَ النَّهْرَ مَعَ الآنِسَةِ صوفيا .»

انْطَلَقْتُ أَعْدو في الطَّريقِ المُفْضي إِلى النَّهْرِ ، وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ حَتّى تَناهى إِلى سَمْعي أَصْواتُ طَلَقاتِ الرَّصاصِ عَلى بُعْدٍ . وَعِنْدَما بَدا لِناظِرَيَّ مَخْزَنُ جُذوعِ الأَشْجارِ وَأَكْوامِ الخَشَبِ ، حَيْثُ تَرْسو السُّفُنُ البُخارِيَّةُ ، تَسَلَّقْتُ شَجَرَةً وَجَلَسْتُ أُراقِبُ .

كانَ هُناكَ أرْبَعةُ أوْ خَمْسَةُ رِجالٍ يَنْدَفِعونَ بِجِيادِهِمْ هُنا وَهُناكَ في السّاحَةِ المَوْجودَةِ أمامَ مَخْزَنِ الجُذوعِ ، وَيُحاوِلونَ الوُصولَ إلى شابَّيْنِ يَكْمُنانِ خَلْفَ كَوْمَةِ الخَشَبِ المُواجِهَةِ لِمَرْسى السُّفُنِ البُخارِيَّةِ ، غَيْرَ أنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطيعوا أنْ يَخْلُصوا إلَيْهِما ، فَفي كُلِّ مَرَّةٍ يَظْهَرُ فيها أحَدُهُمْ عَلى جانِبِ الكَوْمَةِ كانَ الرَّصاصُ يَنْهَمِرُ عَلَيْهِ . وَكانَ الفَتَيانِ يَجْلِسانِ ظَهْرًا لِظَهْرٍ خَلْفَ الكَوْمَةِ ، وَمِنْ ثَمَّ كانَ بِاسْتِطاعَتِهِما مُراقَبَةُ الطَّريقَيْنِ .

وَبَعْدَ قَليلٍ تَوَقَّفَ الرِّجالُ عَنْ الانْدِفاعِ هُنا وَهُناكَ ، وَاتَّجَهوا بِجِيادِهِمْ نَحْوَ المَخْزَنِ ، فَوَقَفَ أحَدُ الشّابَّيْنِ ، وَصَوَّبَ بُنْدُقِيَّتَهُ فَأوْقَعَ واحِدًا مِنْهُمْ مِنْ عَلى سَرْجِ جَوادِهِ ، فَقَفَزَ الرِّجالُ جَميعُهُمْ مِنْ عَلى ظُهورِ جِيادِهِمْ وَبَدَءوا يَحْمِلونَ الرَّجُلَ الجَريحَ إلى المَخْزَنِ . وَفي هَذِهِ اللَّحْظَةِ جَرى الشّابّانِ حَتّى وَصَلا إلى كَوْمَةِ الخَشَبِ المَوْجودَةِ أمامَ الشَّجَرَةِ الَّتي أجْلِسُ فَوْقَها ، وَاخْتَفَيا خَلْفَها ، وَهَكَذا أصْبَحا في مَوْقِعٍ أفْضَلَ مِنْ مَوْقِعِ الرِّجالِ . وَعَرَفْتُ في أحَدِ الشّابَّيْنِ بَكْ ، أمّا الآخَرُ فَكانَ شابًّا يَبْلُغُ التّاسِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ . وَأخَذَ الرِّجالُ يَرْكُضونَ لَحْظَةً هُنا وَهُناكَ ثُمَّ ابْتَعَدوا بِجِيادِهِمْ . وَبِمُجَرَّدِ أنِ اخْتَفَوْا عَنْ ناظِرَيَّ نادَيْتُ بَكْ ، الَّذي دَهِشَ لِسَماعِ صَوْتي آتِيًا مِنْ فَوْقِ الشَّجَرَةِ ، فَطَلَبَ مِنّي أنْ أخْبِرَهُ حينَ ألْحَظُ الرِّجالَ مَرَّةً

أخْرى . وَتَمَنَّيْتُ لَوْ لَمْ أكُنْ أجْلِسُ عَلى هَذِهِ الشَّجَرَةِ ، غَيْرَ أنَّني لَمْ أجْسُرْ عَلى الهُبوطِ مِنْ فَوْقِها . وَسَألْتُ بَكْ عَمّا حَدَثَ لِهارْتي وَالآنِسَةِ صوفيا ، فَأخْبَرَني أنَّهُما عَبَرا النَّهْرَ ، فَسَرَّني ذَلِكَ كَثيرًا . وَلَكِنَّني سَمِعْتُ سَيْلاً مِنَ اللَّعَناتِ يَنْطَلِقُ مِنْ فَمِ بَكْ ؛ إذْ إنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَقْتُلَ هارْتي في ذَلِكَ اليَوْمِ الَّذي أطْلَقَ فيهِ الرَّصاصَ عَلَيْهِ .. وَلَمْ أسْمَعْ في حَياتي شَيْئًا مِثْلَ هَذا .

وَفَجْأةً انْطَلَقَتْ أصْواتُ الرَّصاصِ مِنْ ثَلاثٍ أوْ أرْبَعِ بَنادِقَ ، فَقَدْ تَسَلَّلَ الرِّجالُ مِنْ خِلالِ الأخْشابِ ، وَجاءوا مِنَ الخَلْفِ مُتَرَجِّلينَ . وَعِنْدَ سَماعِ أصْواتِ الرَّصاصِ ألْقى الشّابّانِ بِنَفْسَيْهِما في النَّهْرِ ، وَلاحَقَهُما الرِّجالُ بِمُحاذاةِ ضِفَّةِ النَّهْرِ وَهُمْ يُطْلِقونَ الرَّصاصَ عَلَيْهِما وَيَصيحونَ : « اُقْتُلوهُما ! اقْتُلوهُما !» وَقَدْ أصابَني هَذا المَشْهَدُ بِالغَثَيانِ لِدَرَجَةِ أنَّني كِدْتُ أسْقُطُ مِنْ فَوْقِ الشَّجَرَةِ .

قَبَعْتُ عَلى الشَّجَرَةِ إلى أنْ بَدَأ الظَّلامُ يَكْسو الكَوْنَ ، وَقَدِ اسْتَوْلى عَلَيَّ الخَوْفُ حَتّى إنَّني لَمْ أسْتَطِعْ أنْ أنْزِلَ مِنْ فَوْقِ الشَّجَرَةِ . وَبَيْنَ الحينِ وَالآخَرِ كانَتْ أصْواتُ الطَّلَقاتِ تَأْتيني مِنْ أعْماقِ الغابَةِ ، فَاسْتَوْلى عَلَيَّ شُعورٌ بِالتَّعاسَةِ فَقَرَّرْتُ عَدَمَ الذَّهابِ إلى ذَلِكَ المَنْزِلِ مَرَّةً أخْرى ، لأنَّني أحْسَسْتُ أنَّ اللَّوْمَ فيما حَدَثَ يَقَعُ عَلَيَّ إلى حَدٍّ ما ، فَتِلْكَ الوَرَقَةُ كانَتْ تَعْني أنَّ عَلى الآنِسَةِ

صوفيا أنْ تُقابِلَ هارتي في مَكانٍ ما السّاعَةَ الثّانيَةَ وَالنِّصْفَ لِيَهْرُبا معًا . وَكانَ عَلَيَّ أنْ أبْلِغَ أباها عَنْ تِلْكَ الوَرَقَةِ ، وَعَنِ الطَّريقَةِ الغَريبَةِ الَّتي تَصَرَّفَتْ بِها صوفيا ، فَعِنْدَئِذٍ كانَ يُمْكِنُهُ أنْ يَحْبِسَها ، وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الأَحْداثُ الرَّهيبَةُ لِتَقَعَ .

عِنْدَما هَبَطْتُ مِنْ فَوْقِ الشَّجَرَةِ تَسَلَّلْتُ بِمُحاذاةِ ضِفَّةِ النَّهْرِ ، وَ وَجَدْتُ جُثَّتَي الشّابَّيْنِ طافِيَتَيْنِ فَوْقَ الماءِ ، فَأَخْرَجْتُهُما إلى الشّاطِئِ ، وَبَكَيْتُ وَأنا أُغَطّي وَجْهَ بَكْ ، فَقَدْ كانَ طَيِّبًا مَعي جِدًّا .

كانَ الظَّلامُ قَدِ انْتَشَرَ ، فاتَّخَذْتُ طَريقي نَحْوَ جَزيرَةِ جيم ، وَلَمّا وَصَلْتُ لَمْ أجِدْهُ هُناكَ ، فَأَسْرَعْتُ نَحْوَ جَدْوَلٍ تَمْلَؤُني اللَّهْفَةُ لأنْ أَقْفِزَ فَوْقَ الرَّمَثِ وَأُغادِرَ هَذِهِ البِلادَ المُرْعِبَةَ . وَلَكِنَّ الرَّمَثَ كانَ قَدِ اخْتَفى ، فَأَصابَني الرُّعْبُ وَأَخَذْتُ أَصيحُ ، وَهُنا جاءَني صَوْتُ جيم قائِلاً : « يا إلَهي ! أَهُوَ أَنْتَ ، يا عَزيزي ؟ »

وَ وَسْطَ هَذِهِ الظُّروفِ خُيِّلَ إلَيَّ أنَّني لَمْ أَسْمَعْ أَعْذَبَ مِنْ هَذا الصَّوْتِ مِنْ قَبْلُ ، وَجَرَيْتُ عَلى طولِ ضِفَّةِ النَّهْرِ ، وَاعْتَلَيْتُ ظَهْرَ الرَّمَثِ . وَقالَ جيم وَهُوَ يَحْتَضِنُني : « لِيُبارِكْكَ اللَّهُ ، يا وَلَدي . كُنْتُ في هَذِهِ المَرَّةِ موقِنًا أنَّكَ قُتِلْتَ ، وَكُنْتُ في هَذِهِ اللَّحْظَةِ أُحَرِّكُ الرَّمَثَ إلى مَصَبِّ الجَدْوَلِ حَتّى أَكونَ جاهِزًا لِمُغادَرَةِ المَكانِ ، بِمُجَرَّدِ أنْ يَأْتِيَني جاك وَيُخْبِرَني بِأَنَّكَ مِتَّ حَقيقَةً . كَمْ أَنا

سَعيدٌ بِعَوْدَتِكَ ثانِيَةً ، يا عَزيزي ! »

وَلَمْ أُحِسَّ إطْلاقًا بِالرّاحَةِ حَتّى تَحَرَّكَ الرَّمَثُ كيلومِتْرَيْنِ ، وَخَرَجَ مِنَ الجَدْوَلِ وَأَصْبَحَ في مُنْتَصَفِ نَهْرِ المسيسيبي ، عِنْدَئِذٍ عَلَّقْنا فانوسَ الإشاراتِ وَأَحْسَسْنا بِأَنَّنا طَليقانِ آمِنانِ مَرَّةً أُخْرى . وَلَمْ أَكُنْ قَدْ تَناوَلْتُ طَعامًا مُنْذُ اليَوْمِ السّابِقِ ، وَلِذا فَقَدْ أَخْرَجَ جيم بَعْضَ الطَّعامِ . وَكُنْتُ سَعيدًا لأَنَّني أَبْتَعِدُ عَنْ جَوِّ هَذِهِ العَداوَةِ وَالشَّحْناءِ ، وَكانَ جيم سَعيدًا لأَنَّهُ ابْتَعَدَ عَنِ الوَحْلِ . وَقُلْنا لِبَعْضِنا إنَّهُ لَيْسَ مِثْلَ الرَّمَثِ مِنْ بَيْتٍ ! فَأَنْتَ تَشْعُرُ فَوْقَهُ بِالحُرِّيَّةِ وَراحَةِ البالِ .

الفَصْلُ الثّامِن

وَغْدانِ عَلى الرَّمْث

مَرَّ يَوْمانِ ، أَوْ رُبَّما ثَلاثَةُ أَيّامٍ .. أَوْ يَحْسُنُ أَنْ أَقولَ إِنَّ تِلْكَ الأَيّامَ انْسابَتْ في هُدوءٍ وَسَلاسَةٍ وَجَمالٍ . وَكانَ النَّهْرُ يَزْدادُ اتِّساعًا لِمَسافَةِ ثَلاثَةِ كيلومِتْراتٍ . وَكُنّا نَسْري لَيْلاً ، ثُمَّ نَرْبُطُ الرَّمْثَ قَبْلَ الفَجْرِ أَسْفَلَ رابِيَةٍ رَمْلِيَّةٍ ، عادَةً ، وَنُخْفيهِ بِفُروعِ الأَشْجارِ ، ثُمَّ نَنْصِبُ الصَّنانيرَ ، وَبَعْدَها نَنْزِلُ إِلى النَّهْرِ ، نَسْبَحُ وَنُراقِبُ ضَوْءَ النَّهارِ وَهُوَ يَشُقُّ ظَلامَ اللَّيْلِ . وَقَدْ تَهُبُّ عَلَيْنا نَسْمَةٌ رَقيقَةٌ بارِدَةٌ عَذْبَةٌ تَحْمِلُ إِلى وَجْهَيْنا ، وَهِيَ تَروحُ عَلَيْهِما ، رائِحَةَ الغابَةِ وَالأَزْهارِ العَطِرَةِ .

وَفي هَذا الوَقْتِ مِنَ النَّهارِ لا يُمْكِنُ مُلاحَظَةُ الدُّخانِ المُنْبَعِثِ مِنْ طَهْيِ الطَّعامِ ، وَمِنْ ثَمَّ كُنّا نَأْخُذُ بَعْضَ السَّمَكِ مِنَ الصَّنانيرِ وَنَطْهوهُ لإِفْطارِنا ، ثُمَّ نُراقِبُ قَليلاً جَوَّ الهُدوءِ الَّذي يَلُفُّ سَطْحَ النَّهْرِ ، وَيَغْلِبُنا النَّوْمُ فَنَنامُ ، ثُمَّ نَسْتَيْقِظُ ، ثُمَّ نَنامُ مَرَّةً أُخْرى .

وَما إِنْ يَجُنَّ اللَّيْلُ حَتّى نَنْدَفِعَ بِالرَّمْثِ في النَّهْرِ ، وَما إِنْ نَبْلُغَ مُنْتَصَفَ النَّهْرِ حَتّى نَدَعَ الرَّمْثَ يَطْفو حَسْبَما يَدْفَعُهُ التَّيّارُ ، وَنُدَلّي أَرْجُلَنا في النَّهْرِ ، وَنَنْطَلِقَ في أَحاديثَ شَتّى ، وَأَحْيانًا يَكونُ لَنا النَّهْرُ وَحْدَنا فَتْرَةً طَويلَةً ، وَأَحْيانًا كُنّا نَرى سَفينَةً بُخارِيَّةً تَتَسَلَّلُ في ظَلامِ اللَّيْلِ .

وَذاتَ صَباحٍ عَثَرْتُ عَلى زَوْرَقٍ ، فَعَبَرْتُ بِهِ نَحْوَ الشّاطِئِ ، وَأَخَذْتُ أُجَدِّفُ في أَحَدِ الجَداوِلِ بَحْثًا عَنْ بَعْضِ التّوتِ . وَفَجْأَةً أَتى نَحْوي رَجُلانِ يَرْكُضانِ ، وَتَوَسَّلا إِلَيَّ أَنْ أُنْقِذَ حَياتَهُما ، وَقالا إِنَّ النّاسَ وَالكِلابَ تُطارِدُهُما ؛ فَسَمَحْتُ لَهُما بِرُكوبِ الزَّوْرَقِ ، وَما إِنْ رَكِباهُ حَتّى أَخَذْتُ طَريقي نَحْوَ الرّابِيَةِ الرَّمْلِيَّةِ .

كانَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ شَيْخًا في حَوالَى السَّبْعينَ مِنْ عُمْرِهِ ، أَشْيَبَ اللِّحْيَةِ ، أَصْلَعَ الرَّأْسِ . أَمّا الآخَرُ فَكانَ في نَحْوِ الثَّلاثينَ . وَكانَ كُلٌّ مِنْهُما يَحْمِلُ حَقيبَةَ سَفَرٍ .

قالَ الرَّجُلُ الأَصْلَعُ يَسْأَلُ صاحِبَهُ : « ما الَّذي أَوْقَعَكَ في المَتاعِبِ ؟ »

رَدَّ عَلَيْهِ الشّابُّ : « كُنْتُ أَبيعُ مادَّةً تُزيلُ البُقَعَ مِنَ الأَسْنانِ ، وَهِيَ بِالفِعْلِ تُزيلُ البُقَعَ ، وَلَكِنَّها تُزيلُ سَطْحَ الأَسْنانِ أَيْضًا . وَقَدْ

مَكَثْتُ في ذَلِكَ المَكانِ الّذي كُنْتُ أبيعُ فيهِ لَيْلَةً تَزيدُ على ما كانَ عَلَيَّ أنْ أبْقى فيهِ . وَعِنْدَما قابَلْتُكَ وَأخْبَرْتَني أنَّ النّاسَ قادِمونَ ، قَرَّرْتُ أنْ أهْرُبَ مَعَكَ . هَذِهِ هِيَ قِصَّتي . وَلَكِنْ ما حِكايَتُكَ أنْتَ ؟»

أجابَ الشَّيْخُ : « مُنْذُ أسْبوعٍ تَقْريباً بَدَأتُ أعْقِدُ اجْتِماعاتٍ أُقْنِعُ فيها النّاسَ أنْ يُقْلِعوا عَنِ التَّدْخينِ ، وَكانَ أجْري على ذَلِكَ سِتَّةَ دولاراتٍ في اللَّيْلَةِ . إلّا أنَّ إشاعَةً سَرَتْ بِأنّني أدَخِّنُ سِرًّا . وَقَدْ أيْقَظَني أحَدُ الزُّنوجِ هَذا الصَّباحَ وَأخْبَرَني أنَّ النّاسَ سَيُعَذِّبونَني بِأنْ يُغَطّوني بِالقارِ وَريشِ الطُّيورِ ؛ فَلَمْ أنْتَظِرْ مَجيءَ طَعامِ الإفْطارِ ، إذْ لَمْ أكُنْ جائِعاً .»

قالَ الشّابُّ : « أيُّها الشَّيْخُ ، فَلْنُوَحِّدْ جُهودَنا .»

قالَ الشَّيْخُ : « ما هُوَ عَمَلُكَ أساساً ؟ »

أجابَ الشّابُّ: « طابِعٌ ، وَصانِعُ أدْوِيَةٍ ، وَمُمَثِّلٌ ، وَأقومُ بِتَعْليمِ الغِناءِ ، وَالجُغْرافيا ، وَألْقي الأحاديثَ – بِاخْتِصارٍ أفْعَلُ أيَّ شَيْءٍ طالَما أنَّهُ لَيْسَ وَظيفَةً أوْ عَمَلاً . وَلَكِنْ ما عَمَلُكَ أنْتَ ؟»

قالَ الشَّيْخُ : « كُنْتُ أمارِسُ التَّطْبيبَ في أيّامي المُبَكِّرَةِ ، وَكانَ دِهانُ الأيْدي بِالمَرْهَمِ هُوَ أفْضَلَ صَنْعَةٍ مارَسْتُها ، فَهِيَ شِفاءٌ مِنْ

كُلِّ الأمْراضِ . كَما أنَّني أسْتَطيعُ أنْ أتَنَبَّأَ بِالحَظِّ لَوْ وَجَدْتُ شَخْصاً يُساعِدُني على اكْتِشافِ الحَقائِقِ . إلى جانِبِ أنَّني أعْمَلُ واعِظاً .»

وَسادَ الصَّمْتُ هُنَيْهَةً ، ثُمَّ تَنَهَّدَ الشّابُّ بِعُمْقٍ وَقالَ : « يا لَلْحَسْرَةِ !»

سَألَ الشَّيْخُ : « مِمَّ تَتَحَسَّرُ ؟»

قالَ الشّابُّ : « أتَحَسَّرُ مِنْ مَعيشَتي مِثْلَ هَذِهِ المَعيشَةِ ، وَقَدْ هَبَطْتُ في رُفْقَتي إلى مِثْلِ هَذا المُسْتَوى .»

وَبَدَأ يُجَفِّفُ مُؤْخِرَ إحْدى عَيْنَيْهِ بِخِرْقَةٍ ، وَتابَعَ حَديثَهُ : « رُبَّما تَسْتَطيعُ الدُّنْيا أنْ تَأخُذَ مِنّي كُلَّ شَيْءٍ .. أحْبابي ، وَمُمْتَلَكاتي .. كُلَّ شَيْءٍ .. كُلَّ شَيْءٍ ، وَلَكِنَّها لَنْ تَسْتَطيعَ أنْ تَأخُذَ مِنّي قَبْري ، فَهُوَ المَكانُ الّذي سَيَكونُ مَثْوايَ ذاتَ يَوْمٍ ، وَيَسْتَريحُ فيهِ قَلْبِي المُحَطَّمُ .»

قالَ الرَّجُلُ الأصْلَعُ غاضِباً : « لِماذا تُلْقي عَلَيْنا بِمَآسيكَ ؟ نَحْنُ لَمْ نَفْعَلْ لَكَ شَيْئاً .»

قالَ الشّابُّ : « أعْرِفُ ذَلِكَ . أنا الّذي تَسَبَّبْتُ في إذْلالِ نَفْسي . آهِ ! لَنْ تُصَدِّقوني إذا أخْبَرْتُكُمْ عَنْ سِرِّ مَوْلِدي .»

صاحَ الشَّيْخُ مُتَعَجِّباً : « سِرُّ مَوْلِدِكَ ؟ »

قالَ الشّابُّ بِوقارٍ وَجِدِّيَّةٍ : « أيُّها السّادَةُ ، سأُخبِرُكُم . إنّني ، وَبِكُلِّ صِدْقٍ ، أحْمِلُ لَقَبَ دوقٍ .»

كِدْنا ، أنا وَجيم ، نَقَعُ مِنْ جانِبِ الرَّمَثِ دَهْشَةً . أضافَ الشّابُّ : « نَعَمْ ؛ فَأَبو جَدّي ، وَهُوَ الابْنُ الأكْبَرُ لِلدّوقِ بريدجووتر جاءَ إلى هَذِهِ البِلادِ في نِهايَةِ القَرْنِ الماضي لِيَتَنَفَّسَ هَواءَ الحُرِّيَّةِ النَّقِيَّ ، وَتَزَوَّجَ هُنا ، ثُمَّ ماتَ مُخَلِّفاً وَراءَهُ طِفْلاً جاءَ إلى الحَياةِ في نَفْسِ الوَقْتِ الَّذي ماتَ فيهِ أبوهُ . فاسْتَوْلى الأخُ الثّاني لِلْمَرْحومِ الدّوقِ عَلى اللَّقَبِ وَالمُمْتَلَكاتِ ، أمّا الدّوقُ الحَقيقِيُّ – وَكانَ طِفْلاً – فَقَدْ أهْمَلوهُ . وَأنا يا سادَةُ سَليلُ ذَلِكُمُ الطِّفْلِ .. أنا الدّوقُ بريدجووتر الشَّرْعِيُّ . وَهأَنَذا أمامَكُمْ مُنْتَزَعٌ مِنْ بَيْنِ طَبَقَتي ؛ مُجَرَّدٌ مِنْ رُتْبَتي السّامِيَةِ ، يُطارِدُني عالَمٌ قاسٍ وَيَحْتَقِرُني .. رَثُّ الثِّيابِ .. مُحَطَّمُ القَلْبِ . وَقَدِ انْحَدَرْتُ إلى صُحْبَةِ جَماعَةٍ مِنَ المُجْرِمينَ عَلى رَمَثٍ .»

أشْفَقَ عَلَيْهِ جيم كَثيراً جِدّاً ، وَكَذلِكَ أنا ، وَحاوَلْنا أنْ نُواسِيَهُ ، وَلَكِنَّه قالَ إنَّ هَذا لَنْ يُجْدِيَهُ نَفْعاً ، وَلَكِنَّنا إذا اعْتَرَفْنا أنَّهُ الدّوق فَإنَّ ذَلِكَ سَيُفيدُهُ أكْثَرَ مِنْ أيِّ شَيْءٍ آخَرَ ؛ فَقَدْ قالَ إنَّنا يَنْبَغي أنْ نَنْحَنِيَ عِنْدَما نَتَكَلَّمُ مَعَهُ وَنَقولَ – يا سَيِّدي أوْ يا صاحِبَ السُّمُوِّ . إلّا أنَّهُ لَنْ يَهْتَمَّ إذا نادَيْناهُ بِاسْمِهِ المُجَرَّدِ بريدجووتر . وَيَنْبَغي أنْ يَقومَ أحَدُنا

عَلى خِدْمَتِهِ أثْناءَ تَناوُلِهِ الطَّعامَ ، وَيُؤَدّي ما يَطْلُبُهُ مِنْهُ وَلَوْ كانَ تافِهاً . وَكانَ هَذا سَهْلاً عَلَيْنا فَفَعَلْناهُ أنا وَجيم . وَلَكِنَّ الشَّيْخَ غاصَ في صَمْتٍ عَميقٍ وَبَدا عَلَيْهِ أنَّ ما نُبْديهِ لِلدّوقِ مِنِ احْتِفاءٍ لا يَروقُهُ ، وَأنَّ ثَمَّةَ شَيْئاً يَدورُ في رَأْسِهِ .

أخيراً وَفي عَصْرِ ذَلِكَ اليَوْمِ قالَ : «بريدجووتر ، أنا حَزينٌ مِنْ أجْلِكَ ، وَلَكِنَّكَ لَسْتَ الوَحيدَ الَّذي سُلِبَتْ مِنْهُ مَكانَتُهُ السّامِيَةُ .»

وَراحَ يَبْكي .. ثُمَّ سَأَلَ الشّابَّ وَالدُّموعُ تَنسابُ مِنْ عَيْنَيْهِ : « بريدجووتر ، هَلْ أسْتَطيعُ أنْ أثِقَ بِكَ ؟»

قالَ الشّابُّ : « حَتّى المَوْتِ .»

قالَ الشَّيْخُ : « بريدجووتر ، أنا المَرْحومُ دوفين .»

جَحَظَتْ عُيونُنا أنا وجيم دَهْشَةً حَتّى كادَتْ تَخْرُجُ مِنْ مَحاجِرِها ، وَصاحَ الشّابُّ : « مَنْ ؟»

قالَ الشَّيْخُ : « نَعَمْ ، يا صَديقي . إنَّ عَيْنَيْكَ تَنْظُرانِ في هَذِهِ اللَّحْظَةِ إلى دوفين المِسْكينِ ، الَّذي اخْتَفى مُنْذُ زَمَنٍ طَويلٍ – دوفين ابْنِ لويس السّادِسَ عَشَرَ وَماري أنْطوانيت . نَعَمْ أيُّها السّادَةُ ، أنْتُمْ تَرَوْنَ أمامَكُمْ لويس السّابِعَ عَشَرَ مَلِكَ فَرَنْسا الشَّرْعِيَّ ، وَقَدِ ارْتَدى الأسْمالَ البالِيَةَ وَأحاطَ بِهِ البُؤْسُ .»

لَمْ نَكُنْ نَعْرِفُ ، أنا وَجيم ، ما الَّذي يَنْبَغي عَلَيْنا أنْ نَفْعَلَهُ . لَقَدْ حَزِنّا مِنْ أجْلِهِ ، وَحاوَلْنا مُواساتَهُ ، وَلكِنَّهُ قالَ إنَّ ما يُعَزّيهِ هُوَ أنْ نُعامِلَهُ طِبْقًا لِحُقوقِهِ الشَّرْعِيَّةِ ، فَنَرْكَعَ عَلى رُكْبَةٍ واحِدَةٍ حينَ نَتَكَلَّمُ مَعَهُ ، وَنَدْعوهُ دائِمًا « صاحِبَ الجَلالَةِ » ، وَنَقومَ عَلى خِدْمَتِهِ أوَّلاً حَتّى يَتَناوَلَ طَعامَهُ ، وَلا نَجْلِسَ في حَضْرَتِهِ حَتّى يَطْلُبَ ذَلِكَ مِنّا . فَفَعَلْنا ذَلِكَ أنا وَجيم ، فَجَعَلَهُ هذا مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ سَعيدًا. إلّا أنَّ الدّوق بَدا مُتَألِّمًا وَغَيْرَ مُقْتَنِعٍ بِالشَّكْلِ الَّذي تَسيرُ عَلَيْهِ الأمورُ .

قالَ المَلِكُ : « بريدجووتر ، دَعْ عَنْكَ الوُجومَ ، وَتَعالَ ، أعْطِني يَدَكَ وَدَعْنا نَكُنْ صَديقَيْنِ .»

قامَ الدّوقُ وَصافَحَهُ ، وَقَدْ سُرِرْنا مِنْ ذَلِكَ ، أنا وَجيم ، فَنَحْنُ لا نُريدُ سِوى أنْ يَكونَ كُلُّ مَنْ عَلى الرَّمَثِ راضِيَ النَّفْسِ ، وَرَفيقًا بِالآخَرينَ .

وَلَمْ يَسْتَغْرِقِ الأمْرُ مِنّي وَقْتًا طَويلاً لِكَيْ أُدْرِكَ أنَّ هَذَيْنِ الكَذّابَيْنِ لَيْسا مَلِكًا وَلا دوقًا ، بَلْ وَغْدانِ مُحْتالانِ . غَيْرَ أنَّني لَمْ أُعَقِّبْ بِشَيْءٍ ، فَإذا أرادا مِنّا أنْ نَدْعُوَهُما بِلَقَبِ الدّوقِ أوِ المَلِكِ فَلا اعْتِراضَ لَدَيَّ ما دامَ هَذا يَجْعَلُ السَّلامَ يَسودُ بَيْنَ العائِلَةِ الجَديدَةِ .

الفَصْلُ التّاسِع

الوَغْدانِ عَلى خَشَبَةِ المَسْرَح

وَجَّهَ إلَيْنا الرَّجُلانِ أسْئِلَةً كَثيرَةً ، مِثْلَ : لِماذا نُخَبِّئُ الرَّمَثَ أثْناءَ النَّهارِ ؟ وَهَلْ هَرَبَ جيم مِنْ سَيِّدِهِ ؟ فَقُلْتُ لَهُما ، مُحاوِلاً أنْ أنْفِيَ هَذِهِ الفِكْرَةَ مِنْ رَأْسَيْهِما : « ماذا تَقولانِ ؟ يا إلهي ! وَهَلْ يَتَّجِهُ هارِبٌ نَحْوَ الجَنوبِ ؟ »

وَما إنْ حَلَّ الظَّلامُ حَتّى رَحَلْنا ، وَعِنْدَ الفَجْرِ خَبَّأْنا الرَّمَثَ طيلَةَ النَّهارِ . وَبَعْدَ تَناوُلِ الإفْطارِ سَأَلَ الدّوقُ المَلِكَ : « هَلْ زاوَلْتَ التَّمْثيلَ عَلى مَسْرَحٍ ، يا صاحِبَ الجَلالَةِ ؟»

رَدَّ المَلِكُ : « لا .»

قالَ الدّوقُ : « سَتُمَثِّلُ في أوَّلِ مَدينَةٍ نَصِلُ إلَيْها . سَنَقومُ بِتَأْجيرِ قاعَةٍ ، وَنُمَثِّلُ مَشْهَدَ المُبارَزَةِ مِنْ مَسْرَحِيَّةِ ريتشارد الثّالِثِ ، وَمَشْهَدَ الشُّرْفَةِ مِنْ مَسْرَحِيَّةِ روميو وَجولييت .»

قالَ المَلِكُ : « ولكِنّي لا أعرِفُ شيْئًا عَنِ التَّمْثيلِ ، يا بريدجووتر هَلْ تَعْتَقِدُ أنَّ بِاسْتِطاعَتِكَ أنْ تُعَلِّمَني التَّمْثيلَ ؟ ».

قالَ الدّوقُ : « بِكُلِّ سُهولَةٍ .»

قالَ المَلِكُ : « حَسَنًا ، لِنَبْدَإِ الآنَ .»

أخْبَرَهُ الدّوقُ عَمَّنْ يَكونُ روميو ، وَمَنْ تَكونُ جولييت ، فَقالَ المَلِكُ : « وَلَكِنْ إذا كانَتْ جُولييت ، كَما تَقولُ ، فَتاةً صَغيرَةً فَإنَّني بِرَأسي الأصْلَعِ سَأبْدو شاذًّا بِالنِّسْبَةِ لَها .»

قالَ الدّوقُ : « لا تَقْلَقْ بِهَذا الشَّأنِ ، فَهَؤُلاءِ الرّيفِيّونَ السُّذَّجُ لَنْ يُفَكِّروا إطْلاقًا في هَذا الأمْرِ . زِدْ عَلى ذَلِكَ أنَّكَ سَتَكونُ مُرْتَدِيًا أبْهى حُلَلِكَ ، وَهَذا سَيَجْعَلُكَ مُخْتَلِفًا اخْتِلافًا كَبيرًا عِنْدَما تَكونُ عَلى المَسْرَحِ .»

وَأخْرَجَ الدّوقُ حُلَّتَيْنِ أوْ ثَلاثَ حُلَلٍ مَصْنوعَةٍ مِنْ قُماشِ السَّتائِرِ ، وَقالَ عَنْها إنَّها دُروعُ المَلِكِ ريتشارد الثّالِثِ وَالشَّخْصِ الَّذي سَيُبارِزُهُ. كَما أخْرَجَ مَنامَةً طَويلَةً مِنَ القُطْنِ الأبْيَضِ ، وَغِطاءً لِلرَّأْسِ تَتَلاءَمُ مَعَ المَنامَةِ ، فَاقْتَنَعَ المَلِكُ بِكَلامِ الدّوقِ . ثُمَّ أخْرَجَ الدّوقُ كِتابًا وَأخَذَ يَقْرَأُ الأدْوارَ بِطَريقَةٍ تَمْثيلِيَّةٍ رائِعَةٍ ، وَكانَ يَقْفِزُ هُنا وَهُناكَ ، وَهُوَ يُمَثِّلُ ، حَتّى يَرى المَلِكُ طَريقَةَ الأداءِ . ثُمَّ أعْطى الكِتابَ لِلْمَلِكِ

وَطَلَبَ مِنْهُ أنْ يَحْفَظَ دَوْرَهُ .

كانَتْ هُناكَ مَدينَةٌ صَغيرَةٌ قَريبَةٌ مِنّا ، قالَ الدّوقُ بَعْدَ تَناوُلِ الغَداءِ إنَّهُ ذاهِبٌ إلَيْها في عَمَلٍ . وَعِنْدَما عادَ إلى الرَّمَثِ أرانا إعْلانًا مَطْبوعًا بِهِ صورَةُ شَخْصٍ هارِبٍ ، مَكْتوبٌ أسْفَلَها « مُكافَأةٌ قَدْرُها مِئَتا دولارٍ » ، وَيَلي هَذِهِ العِبارَةَ وَصْفٌ دَقيقٌ لِجيم . وَيَقولُ الإعْلانُ أيْضًا إنَّهُ هَرَبَ مِنْ مَزْرَعَةِ سان جاك عَلى بُعْدِ سِتّينَ كيلومِتْرًا مِنْ نيو أورْليانز ، وَمَنْ يَقْبِضْ عَلَيْهِ يَنَلْ مُكافَأةً بِالإضافَةِ إلى أنَّهُ سَيُدْفَعُ لَهُ جَميعُ النَّفَقاتِ الَّتي يَكونُ قَدْ أنْفَقَها في القَبْضِ عَلَيْهِ وَتَوْصيلِهِ .

قالَ الدّوقُ : « وَالآنَ نَسْتَطيعُ بَعْدَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ أنْ نُبْحِرَ نَهارًا ، وَحينَ نَرى أحَدًا يَقْتَرِبُ مِنّا نُريهِ الإعْلانَ قائِلينَ إنَّنا قَبَضْنا عَلى جيم في النَّهْرِ ، وَإنَّنا في سَبيلِنا لِلْحُصولِ عَلى المُكافَأةِ .»

وَانْطَلَقْنا في السّاعَةِ العاشِرَةِ ، وَلَمْ نَتَوَقَّفْ عِنْدَ شُروقِ الشَّمْسِ بَلْ واصَلْنا سَيْرَنا . وَبَعْدَ الإفْطارِ شَرَعَ المَلِكُ في حِفْظِ دَوْرِهِ في مَسْرَحِيَّةِ روميو وَجولييت ، ثُمَّ أخْرَجَ هُوَ وَالدّوقُ سَيْفَيْنِ مِنَ الخَشَبِ وَبَدَآ المِرانَ عَلى المُبارَزَةِ ؛ وَقَدْ أطْلَقَ الدّوقُ عَلى نَفْسِهِ اسْمَ ريتشارد الثّالِثِ . وَكانا يَتَبارَزانِ وَيَقْفِزانِ بِطَريقَةٍ تُثيرُ الإعْجابَ . إلّا أنَّ المَلِكَ انْزَلَقَتْ قَدَمُهُ وَسَقَطَ مِنْ جانِبِ الرَّمَثِ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ أخْلَدا إلى

الرّاحَةِ ، وَراحا يَتَحدَّثانِ عَنْ مُغامَراتِهِما .

وَكانَ مَعَ الدّوقِ بَعْضُ الإعْلاناتِ المَطْبوعَةِ . وَخِلالَ الأيّامِ الثَّلاثَةِ التّالِيَةِ لَمْ يَحْدُثْ شَيْءٌ سِوى المُبارَزَةِ والتَّمَرُّنِ طَوالَ الوَقْتِ . وَذاتَ صَباحٍ أبْصَرْنا مَدينَةً صَغيرَةً أمامَنا ، فَرَبَطْنا الرَّمَثَ عَلى بُعْدِ كيلو مِتْرٍ مِنْها ، وَرَكِبْنا جَميعًا الزَّوْرَقَ ، عَدا جيم ، لِنَرى هَلْ تُتاحُ لَنا الفُرْصَةُ في ذَلِكَ المَكانِ لِنُقَدِّمَ فيهِ عَرْضَنا المَسْرَحِيَّ أمْ لا .

وَقَدْ حالَفَنا الحَظُّ ؛ فَبَعْدَ ظُهْرِ ذَلِكَ اليَوْمِ كانَ سَيُقامُ مَعْرِضٌ زِراعِيٌّ ، وَقَدْ بَدَأ الرّيفِيّونَ يَتَوافَدونَ عَلى المَكانِ بِالفِعْلِ ، وَكانَ المَعْرِضُ يَنْتَهي قَبْلَ حُلولِ الظَّلامِ ، وَمِنْ ثَمَّ كانَتْ أمامَنا فُرْصَةٌ طَيِّبَةٌ لِتَقْديمِ عَرْضِنا ؛ فاسْتَأجَرَ الدّوقُ قاعَةً ، وَطافَ بِالمَدينَةِ يُلْصِقُ الإعْلاناتِ عَلى جُدْرانِها . وَكانَ مَنْطوقُ هَذِهِ الإعْلاناتِ كالآتي :

شكسبير !!!

عَرْضٌ رائِعٌ لِمُدَّةِ لَيْلَةٍ واحِدَةٍ فَقَطْ !!

ديڤيد جاريك الأصْغَرُ ،

مِنْ مَسْرَحِ دروري لين في لَنْدَن

إدموند كين الأكْبَرُ

مِنْ مَسْرَحِ رويال هايماركت ،

هوايت تشابل

بودينغ لين ، بيكاديللي ، لَنْدَن

مَشْهَدُ الشُّرْفَةِ مِنْ مَسْرَحِيَّةِ

روميو وجولييت

روميو : السَّيِّدُ / جاريك

جولييت : السَّيِّدُ / كين

وَتُساعِدُهُما الفِرْقَةُ بِأكْمَلِها

مَلابِسُ جَديدَةٌ وَمَناظِرُ طَريفَةٌ

وَأيْضًا

بِناءً عَلى طَلَبٍ خاصٍّ

مَشْهَدُ المُبارَزَةِ مِنْ **مَسْرَحِيَّةِ ريتشارد الثّالث**

ريتشارد الثّالِثُ : السَّيِّدُ / جاريك

ريتشموند : السَّيِّدُ / كين

ثَمَنُ تَذْكَرَةِ الدُّخولِ ٢٥ سِنْتًا وَالأوْلادُ وَالخَدَمُ ١٠ سِنْتات .

قَدَّمْنا عَرْضَنا بَعْدَ المَعْرِضِ الزِّراعِيِّ ، غَيْرَ أنَّهُ لَمْ يَحْضُرْ لِمُشاهَدَةِ

العَرْضِ سِوى اثْنَيْ عَشَرَ شَخْصاً فَقَطْ ، كانَ ما دَفَعوهُ كافِياً لِتَغْطِيَةِ النَّفَقاتِ. وَظَلّوا يَضْحَكونَ طولَ الوَقْتِ مِمّا أثارَ حَفيظَةَ الدّوقِ ، فَعَلَّقَ بِقَوْلِهِ إنَّ هَؤُلاءِ الأَرْكانسيِّينَ الحَمْقى لا يَسْتَطيعونَ أنْ يَفْهَموا شكسبير . وَما يُريدونَه هُوَ التَّهْريجُ الرَّخيصُ ، فَقامَ في صَباحِ اليَوْمِ التّالي وَحَمَلَ بَعْضَ الإعْلاناتِ وَلَصَقَها في جَميعِ أنْحاءِ المَدينَةِ ، وَكانَتِ تَقولُ :

في دارِ المَحْكَمَةِ

لِمُدَّةِ ثَلاثِ لَيالٍ فَقَطْ

المُمَثِّلانِ العالَمِيّانِ الشَّهيرانِ

ديفيد جاريك الأَصْغَرُ

وَإدموند كين الأَكْبَرُ

في عَرْضِهِما الرّائِعِ

تحفة ملكية

ثَمَنُ الدُّخولِ ٥٠ سِنتاً .

وفي أسْفَلِ الإعْلانِ كُتِبَ بِخَطٍّ بارِزٍ :

لا يُسْمَحُ بِدُخولِ السَّيِّداتِ وَالأَطْفالِ

وَقالَ الدّوقُ : « إنْ لَمْ يَجْعَلْهُمْ هَذا الإعْلانُ يُسْرِعونَ بِالحُضورِ أكُنْ جاهِلاً بِأَهْلِ أرْكانسو . »

وَانْشَغَلَ هُوَ وَالمَلِكُ طَوالَ اليَوْمِ في إقامَةِ خَشَبَةِ المَسْرَحِ . وَفي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ضَجَّتْ دارُ المَحْكَمَةِ بِالنّاسِ في وَقْتٍ قَصيرٍ . وَعِنْدَما غَدا المَكانُ لا يَسَعُ المَزيدَ ؛ وَقَفَ الدّوقُ وَأخَذَ يَكيلُ المَديحَ لِلْمَسْرَحِيَّةِ وَلإدموند كين الكَبيرِ ، الَّذي سَيَلْعَبُ الدَّوْرَ الرَّئيسِيَّ فيها . وَأخيراً فُتِحَ السِّتّارُ ، وَفي الدَّقيقَةِ التّالِيَةِ ظَهَرَ المَلِكُ وَهُوَ يَرْقُصُ عَلى أرْبَعٍ ، وَقَدْ طَلى وَجْهَهُ وَجِسْمَهُ بِجَميعِ ألْوانِ الطَّيْفِ ، وَبِرُسوماتٍ عَلى شَكْلِ دَوائِرَ وَبُقَعٍ وَخُطوطٍ . وَلا داعِيَ لأَنْ أطيلَ الحَديثَ عَنْ بَقِيَّةِ مَظْهَرِهِ . قُصارى القَوْلِ إنَّهُ كانَ مُثيراً لِلضَّحِكِ ، وَقَدْ ضَحِكَ النّاسُ حَتّى اسْتَلْقَوْا عَلى أقْفائِهِمْ ؛ فَقَدْ كانَ مَنْظَرُ هَذا العَجوزِ الأَحْمَقِ وَهُوَ يُؤَدّي دَوْرَهُ يُثيرُ الضَّحِكَ حَتّى لَدى القِطِّ !

وَأسْدَلَ الدّوقُ السِّتّارَ ، وَهُوَ يَقولُ إنَّ هُناكَ عَرْضَيْنِ آخَرَيْنِ فَقَطْ ؛ لأنَّ أمامَهُما مَواعيدَ عاجِلَةً في لَنْدَن ، وَصاحَ فَريقٌ مِنَ النّاسِ : « ما هَذا ؟ هَلِ انْتَهى العَرْضُ ؟» ثُمَّ أعْقَبَ ذَلِكَ ثَوْرَةُ غَضَبٍ جامِحَةٌ ، غَيْرَ أنَّ رَجُلاً كَبيراً ، ذا مَظْهَرٍ حَسَنٍ ، صاحَ في النّاسِ قائِلاً : « تَوَقَّفوا ، اسْمَحوا لي بِكَلِمَةٍ أيُّها السّادَةُ ! » فَكَفَّ النّاسُ عَنِ الشِّجارِ وَأنْصَتوا .

قالَ الرَّجُلُ : « لَقَدْ خُدِعْنا ، ولَكِنَّنا لا نُريدُ أَنْ تَضْحَكَ عَلَيْنا المَدينَةُ . الأَفْضَلُ أَنْ نَخْدَعَ نَحْنُ بَقِيَّةَ سُكّانِ المَدينَةِ . وَعِنْدَئِذٍ نَكونُ جَميعاً في نَفْسِ القارِبِ . أَلَيْسَ هَذا مَعْقولاً ؟»

صاحَ المُتَفَرِّجونَ : « بَلى ، القاضي على حَقٍّ .»

أَضافَ القاضي : « حَسَناً . اذْهَبوا إلى بُيوتِكُمْ ، وانْصَحوا مَنْ تُقابِلونَهُ أَنْ يَأْتِيَ إلى هُنا لِيَرى العَرْضَ .»

وَفي اليَوْمِ التّالي لَمْ يَكُنْ يُسْمَعُ في المَدينَةِ سوى عِبارَةٍ واحِدَةٍ : « كَمْ هِيَ رائِعَةٌ مَسْرَحِيَّةُ تُحْفَةٍ مَلَكِيَّةٍ ! » وَقَدِ امْتَلأَتْ دارُ المَحْكَمَةِ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَيْضاً عَنْ آخِرِها .

وَفي اللَّيْلَةِ الثّالِثَةِ غَصَّتِ الدّارُ بِالنّاسِ الَّذينَ حَضَروا عَرْضَ اللَّيْلَتَيْنِ الماضِيَتَيْنِ ، وَقَدْ لاحَظْتُ أَنَّ كُلا مِنْهم يَحْمِلُ شَيْئاً في جَيْبِهِ أَوْ تَحْتَ مِعْطَفِهِ ، وَشَمَمْتُ رائِحَةَ بَيْضٍ فاسِدٍ وَخَضْرَواتٍ مُتَعَفِّنَةٍ ، وَما شابَهَ ذَلِكَ مِنْ أَشْياءَ . وَعِنْدَما لَمْ يَعُدِ المَكانُ يَتَّسِعُ لِمَزيدٍ ، بَدَأَ الدّوقُ يَدورُ مُتَّجِهاً نَحْوَ بابِ خَشَبَةِ المَسْرَحِ ، إِلّا أَنَّهُ في اللَّحْظَةِ الَّتي انْعَطَفَ فيها عِنْدَ رُكْنِ المَسْرَحِ ، وَباتَ في الظَّلامِ ، قالَ لي : « اجْرِ بِسُرْعَةٍ الآنَ حَتّى نَبْتَعِدَ عَنِ المَساكِنِ ، ثُمَّ شُقَّ طَريقَكَ نَحْوَ الرَّمَثِ وَكَأَنَّ الشَّيْطانَ يُطارِدُكَ ! »

وَعِنْدَما وَصَلْنا إلى الرَّمَثِ تَسَلَّلْنا مُبْحِرَيْنِ . وَدارَ في خَلَدي أَنَّ المَلِكَ المِسْكينَ سَيُواجِهُ وَقْتاً عَصيباً مَعَ الجُمْهورِ . وَلَكِنَّ شَيْئاً مِنْ هَذا لَمْ يَحْدُثْ ، فَسُرْعانَ ما زَحَفَ مِنْ تَحْتِ المَأْوى وَهُوَ يَقولُ : « حَسَناً ، كَيْفَ سارَتِ الأُمورُ هَذِهِ المَرَّةَ ، أَيُّها الدّوقُ ؟ » لَمْ يَكُنْ قَدْ ذَهَبَ إلى المَدينَةِ أَصْلاً .

لَمْ نُشْعِلْ ضَوْءاً حَتّى ابْتَعَدْنا مَسافَةَ خَمْسَةَ عَشَرَ كيلومِتْراً عَنِ المَدينَةِ ، ثُمَّ أَضَأْنا الفانوسَ ، وَجَلَسْنا نَتَناوَلُ عَشاءَنا . وَفي أَثْناءِ ذَلِكَ كانَ المَلِكُ وَالدّوقُ يَضْحَكانِ مِلْءَ شِدْقَيْهِما عَلى الطَّريقَةِ الَّتي خَدَعا بِها النّاسَ .

وَقَدْ جَمَعَ هَذانِ الوَغْدانِ ما يَزيدُ عَلى أَرْبَعمِئَةٍ وَخَمْسَةٍ وَسِتّينَ دولاراً في اللَّيالي الثَّلاثَةِ . وَما رَأَيْتُ في حَياتي مِنْ قَبْلُ مالاً تَمَّ جَمْعُهُ بِهَذِهِ الطَّريقَةِ .

ذَهَبْتُ لِأَنامَ . وَعِنْدَما حانَ دَوْري في الحِراسَةِ لَمْ يوقِظْني جيم ، وَكانَ غالِباً ما يَفْعَلُ ذَلِكَ . وَحينَما اسْتَيْقَظْتُ في الفَجْرِ كانَ يَجْلِسُ هُناكَ وَقَدْ وَضَعَ رَأْسَهُ بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ مُنْتَحِباً . وَتَظاهَرْتُ بِأَنَّني لَمْ أَلْحَظْ ذَلِكَ . وَكُنْتُ أَعْرِفُ السَّبَبَ في بُكائِهِ : كانَ يُفَكِّرُ في زَوْجَتِهِ وَأَوْلادِهِ الَّذينَ خَلَّفَهُمْ وَراءَهُ ، وَكانَ حَزيناً وَيَشْعُرُ بِالحَنينِ إلى بَيْتِهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَبْتَعِدْ عَنْهُ مِنْ قَبْلُ طيلَةَ حَياتِهِ . وَعِنْدَما يَجِنُّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ

كانَ شعورُ الحُزْنِ يمْلؤهُ ، وَيَبْكي حينَ يظُنُّ أنّني نائمٌ ويَقولُ : « بُنيّتي الصَّغيرةَ إليزابيث ! وَلَدِيَ المِسْكينَ الصَّغيرَ جوني ! آهٍ ! إنَّها لَقَسْوَةٌ ألا أراكُما مَرَّةً أخْرى . » كانَ جيم زِنْجيًّا رائعاً .

وَلكِنَّني في هَذِهِ المَرَّةِ تَحَدَّثْتُ مَعَهُ عَنْ زَوْجَتِهِ وَصَغيرَيْهِ . وبَعدَ هُنَيْهَةٍ قالَ لي : « إنَّ ما يَجْعَلُني حَزيناً الآنَ أنَّني سَمِعْتُ هُناكَ عَلى الضَّفَّةِ صَوْتاً يُشْبِهُ صَوْتَ صَفْعَةٍ أوْ ضَرْبَةٍ . وَقَدْ ذَكَّرَني ذَلِكَ الصَّوْتُ بِتِلْكَ المَرَّةِ الَّتي عامَلْتُ فيها صَغيرَتي إليزابيث بِقَسْوَةٍ. كانَتْ في الرّابِعَةِ مِنْ عُمُرِها ، وَأصابَتْها الحُمّى القِرْمِزيَّةُ ، وَ واجَهَتْ وَقْتاً عَصيباً ، إلا أنَّها شُفِيَتْ مِنْها . وَذاتَ يَوْمٍ كانَتْ تَقِفُ بِالقُرْبِ مِنّي ، وَقُلْتَ لَها : « أغْلِقي البابَ . » فَلَمْ تَفْعَلْ ، بَلْ وَقَفَتْ في مَكانِها تَبْتَسِمُ لي ، وَقَدْ أثارَ هَذا جُنوني ، فَقُلْتُ لَها مَرَّةً أخْرى بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ : « أ لا تَسْمَعينَني ؟ أغْلِقي البابَ . »

« وَلكِنَّها لَمْ تَفْعَلْ ، بَلْ وَقَفَتْ تَبْتَسِمُ . وَهُنا فَقَدْتُ أعْصابي وَقُلْتُ لَها : سَأُرِيكِ . وَصَفَعْتُها صَفْعَةً أطارَتْها مِنْ فَوْقِ الأرْضِ وَألْقَتْ بِها بَعيداً . ثُمَّ ذَهَبْتُ إلى الغُرْفَةِ الأخْرى . وَمَكَثْتُ بِها عَشْرَ دَقائِقَ ، وَعِنْدَما عُدْتُ كانَ البابُ لا يَزالُ مَفْتوحاً ، وَكانَتِ الطِّفْلَةُ عِنْدَ المَدْخَلِ تَجْري الدُّموعُ عَلى خَدَّيْها .

« وَثارَتْ ثائِرَتي ، وَاتَّجَهْتُ نَحْوَها . غَيْرَ أنَّ الرّيحَ هَبَّتْ في تِلْكَ

اللَّحْظَةِ وَصَفَقَتِ البابَ . وَلَمْ تَتَحَرَّكِ الطِّفْلَةُ ، فَشَعَرْتُ أنَّني .. أنَّني .. لا أدْري بِمَ شَعَرْتُ . لَقَدْ تَسَلَّلْتُ خارِجاً وَأنا أرْتَعِدُ ، وَفَتَحْتُ البابَ بِرِفْقٍ ، وَأخْرَجْتُ مِنْهُ رَأسي وَ وَضَعْتُها خَلْفَ الطِّفْلَةِ ، وَفَجْأةً صَرَخْتُ بِأعْلى صَوْتي ، فَلَمْ تَتَحَرَّكْ قَطُّ . آهٍ يا هَكْ ! لَقَدِ انْفَجَرْتُ في البُكاءِ ، وَأخَذْتُها بَيْنَ ذِراعَيَّ وَأنا أقولُ : « يا صَغيرَتي المِسْكينَةَ ، لِيُسامِحِ اللّهُ جيم العَجوزَ ! لأنَّهُ لَنْ يُسامِحَ نَفْسَهُ أبَداً طولَ حَياتِهِ . آهٍ يا هَكْ ! لَقَدْ كانَتِ الطِّفْلَةُ صَمّاءَ بَكْماءَ . وَكُنْتُ أنا أعامِلُها بِتِلْكَ القَسْوَةِ ! »

الفَصْلُ العاشِر

« أَنْتَ مُحْتال ! »

في اليَوْمِ التّالي ، وَقَبلَ حُلولِ الظّلامِ ، رَكَنّا إلى فِراشِنا . وكُنّا قَدْ رَبَطْنا الرَّمَثَ إلى الشّاطِئِ أسْفَلَ رابِيَةٍ رَمْلِيَّةٍ . وَكانَتْ تَقَعُ عَلى جانِبَي النَّهرِ قَرْيَتانِ ، فَبدَأَ الدّوقُ وَالمَلِكُ يَضَعانِ الخُطَطَ لِلاحْتِيالِ عَلَيْهِما .

وَأَخبَرَ جيم الدّوقَ أنَّ رُقودَهُ في المَأوى طَوالَ النَّهارِ مُقيَّدَ اليَدَيْنِ شَيْءٌ لا يَسْتَسيغُهُ ، وَذَلِكَ أنَّنا كُنّا نُضطَرُّ إلى تَقْييدِهِ عِنْدَما نَتْرُكُهُ بِمُفْرَدِهِ خَشْيَةَ أنْ يَبْدُوَ وَكَأنَّهُ غَيرُ هارِبٍ. وَقَدْ خَطَرَتْ لِلدّوقِ فِكْرَةٌ ، فَقامَ بِتَنْفيذِها عَلى الفَوْرِ ، فَأَلبَسَ جيم مَلابِسَ المَلِكِ لير – وَهِيَ عِبارَةٌ عَنْ رِداءٍ طَويلٍ مَصْنوعٍ مِنْ قُماشِ السَّتائِرِ ، وَشَعْرٍ أَبْيَض مُسْتَعارٍ ، وَلِحْيَةٍ بَيْضاء . ثُمَّ قامَ بِطِلاءِ وَجْهِهِ وَيَدَيْهِ وَأُذُنَيْهِ وَعُنُقِهِ بِمَساحيقَ تَمْثيلِيَّةٍ ، فَبَدا جيم أَزرَقَ اللَّوْنِ ، شاحِبًا ، جامِدًا ، كَئيبًا ، كَأَنَّهُ رَجُلٌ ماتَ غَرَقًا مُنْذُ تِسْعَةِ أيّامٍ ؛ فَكانَ مَنْظَرُهُ مُرْعِبًا ، لَمْ أَرَ

لَهُ مِنْ قَبْلُ مَثيلاً . وَكَتَبَ الدّوقُ عَلى لَوْحَةٍ هَذِهِ العِبارَةَ : « هَذا رَجُلٌ مَريضٌ ، وَهُوَ خَطِرٌ حينَ يَفْقِدُ صَوابَهُ . »

وَثَبَّتَ اللَّوْحَةَ بِالمَساميرِ عَلى عَصًا أَمامَ المَأوى . وَأَخبَرَ الدّوقُ جيم أنْ يَقْفِزَ مِنَ المَأوى مِثْلَ المَجْنونِ إذا جاءَهُ أَحَدٌ ، وَأنْ يُطْلِقَ عُواءً مِثْلَ عُواءِ حَيَوانٍ مُفْتَرِسٍ ، مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ، فَيَخافَ مِنْهُ النّاسُ ، وَيَتْرُكوهُ وَشَأْنَهُ . وَلَكِنْ ما كانَ لِأَحَدٍ أنْ يَراهُ وَيَنْتَظِرَ في مَكانِهِ حَتّى يُصْدِرَ عُواءَهُ ؛ فَإنَّ نَظْرَةً واحِدَةً إلَيْهِ تَكْفي لِأَنْ تَجْعَلَ مَنْ يَراهُ يَنْطَلِقُ هارِبًا ؛ فَقَدْ كانَ جيم يَبْدو وَكَأَنَّهُ مَيِّتٌ خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ لِتَوِّهِ .

وَقالَ الدّوقُ إنَّهُ سَيُفَكِّرُ فيما يُمْكِنُ أنْ يَفْعَلَهُ لِقَرْيَةِ أركانسو ، عَلى حينَ قالَ المَلِكُ إنَّهُ سَيَزورُ القَرْيَةَ الأُخْرى ، وَيَرْجو مِنَ اللَّهِ أنْ يَهْدِيَهُ إلى طَريقَةٍ يَجْني مِنْ وَرائِها رِبْحًا وَفيرًا . وَكُنّا قَدِ اشْتَرَيْنا مَلابِسَ جاهِزَةً مِنَ المَكانِ الَّذي تَوَقَّفْنا فيهِ آخِرَ مَرَّةٍ ، فَارْتَدى المَلِكُ مَلابِسَهُ وَكَذَلِكَ فَعَلْتُ أنا . وَكانَتْ مَلابِسُ المَلِكِ سَوْداءَ ، فَبَدا كَأَنَّهُ سَيِّدٌ مِنْ عِلْيَةِ القَوْمِ . وَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ أنَّ المَلابِسَ يُمْكِنُها أنْ تُغَيِّرَ مَظْهَرَ المَرْءِ بِمِثْلِ هَذا الشَّكْلِ .

كانَتْ ثَمَّةَ سَفينَةٌ بُخارِيَّةٌ مُحَمَّلَةٌ ، راسِيَةً بِمُحاذاةِ ضِفَّةِ النَّهْرِ ، عَلى بُعْدِ خَمْسَةِ كيلومِتْراتٍ مِنَ القَرْيَةِ . وَقالَ المَلِكُ : « يَحْسُنُ وَأَنا بِمَلابِسي هَذِهِ أنْ أَقولَ إنَّني وَصَلْتُ مِنْ مَدينَةِ سان لوي أَوْ مِنْ مَدينَةِ

نسينسيناتي ، أوْ مِنْ أيِّ مَدينَةٍ أخرى كَبيرَةٍ . هيَّا بِنا إلى السَّفينَةِ البُخارِيَّةِ ، يا هكلبري ؛ فَسَنَذْهَبُ بِها إلى القَرْيَةِ .»

اِنْطَلَقْتُ أنا وَالمَلِكُ في الزَّوْرَقِ ، وَقَبْلَ أنْ يَمْضِيَ وَقْتٌ طَويلٌ ، رَأَيْنا شابًّا ريفيًّا لَطيفًا يَجْلِسُ عَلى جِذْعِ شَجَرَةٍ وَهُوَ يُجَفِّفُ عَرَقَهُ ، فَقَدْ كانَ الطَّقْسُ حارًّا جِدًّا . وَكانَتْ مَعَهُ حَقيبَتانِ ، فَسَأَلَهُ المَلِكُ : « إلى أيْنَ أنْتَ ذاهِبٌ أيُّها الشّابُّ ؟»

أجابَ الشّابُّ : « إلى السَّفينَةِ البُخارِيَّةِ ، فَأنا ذاهِبٌ إلى نيو أورليانز .»

قالَ المَلِكُ : « اِرْكَبْ مَعَنا . سَيُساعِدُكَ خادِمي في حَمْلِ الحَقيبَتَيْنِ .»

وَشَرَعْنا في الإبْحارِ مَرَّةً أخرى . وَأعْرَبَ الشّابُّ عَنِ امْتِنانِهِ ، ثُمَّ قالَ : « إنَّ رَفْعَ حَقيبَتَيْنِ ثَقيلَتَيْنِ في هَذا الجَوِّ الحارِّ لَعَمَلٌ شاقٌّ . عِنْدَما رَأَيْتُكَ لأوَّلِ مَرَّةٍ قُلْتُ في نَفْسي ها هُوَ السَّيِّدُ وِلكس .. بِالتَّأكيدِ هُوَ . وَقَدْ وَصَلَ إلى هُنا تَقْريبًا في المَوْعِدِ المُناسِبِ . وَلَكِنِّي عُدْتُ فَقُلْتُ : « لا . لَيْسَ هُوَ ، فَلا يُعْقَلُ أنْ يُجَدِّفَ في النَّهْرِ . » أنْتَ لَسْتَ هُوَ ، ألَيْسَ كَذَلِكَ ؟»

قالَ المَلِكُ : « نَعَمْ . لَسْتُ هُوَ ، أنا اسْمي بلودجت ، ألكساندر

بلودجت .. أنا آسِفٌ لأنَّ السَّيِّدَ وِلْكس لَمْ يَصِلْ في الميعادِ . وَلَكِنْ هَلْ أضاعَ شَيْئًا بِعَدَمِ وُصولِهِ ؟»

قالَ الشّابُّ : « لا . لَمْ يُضِعْ شَيْئًا ، فَهُوَ سَيَحْصُلُ على المُمْتَلَكاتِ . وَلَكِنَّهُ أضاعَ فُرْصَةَ رُؤْيَةِ أخيهِ بيتر قَبْلَ أنْ يَموتَ ؛ فَهُما لَمْ يَرَيا بَعْضَهُما مُنْذُ أنْ كانا طِفْلَيْنِ يَعيشانِ مَعًا . كَما أنَّ بيتر لَمْ يَرَ أيْضًا أخاهُ وليم عَلى الإطْلاقِ ؛ فَهُوَ أصَمٌّ وَأبْكَمُ .. وَهُوَ وَجورج هُما وَحْدَهُما اللَّذانِ أتَيا إلى هُنا . وَكانَ جورج هُوَ الأخَ المُتَزَوِّجَ ، وَقَدْ ماتَ هُوَ وَزَوْجَتُهُ في العامِ الماضي ، وَلَمْ يَبْقَ سِوى هارفي وَ وليم ، وَكَما قُلْتُ لَمْ يَصِلا إلى هُنا في المَوْعِدِ المُناسِبِ .»

سَأَلَ المَلِكُ : « هَلْ أرْسَلَ لَهُما أحَدٌ رِسالَةً ؟»

قالَ الشّابُّ : « نَعَمْ ، مُنْذُ شَهْرٍ أوْ شَهْرَيْنِ . فَعِنْدَما مَرِضَ بيتر كانَ يُريدُ أنْ يَرى هارفي وَ وليم أيْضًا . وَقَدْ تَرَكَ رِسالَةً لِهارفي ، وَقالَ إنَّهُ أخْبَرَهُ فيها عَنِ المَكانِ الَّذي خَبَّأَ فيهِ المالَ ، وَعَنِ الطَّريقَةِ الَّتي يُريدُ بِها أنْ يُقَسِّمَ بَقِيَّةَ المُمْتَلَكاتِ ، حَتّى تَنالَ بَناتُ جورج حَظًّا طَيِّبًا مِنَ الثَّرْوَةِ ؛ لأنَّ جورج لَمْ يُخَلِّفْ وَراءَهُ شَيْئًا .»

« لِماذا لَمْ يَأْتِ هارفي ؟ وَأيْنَ يَعيشُ ؟»

أجابَ الشّابُّ : « إنَّهُ يَعيشُ في إنْجِلْتِرا – شيفيلد ، وَيَعْمَلُ واعِظًا .

لكِنْ رُبَّما لا يكونُ قَدْ تَلقّى الرِّسالَةَ .»

سألَ المَلِكُ : « كَمْ عُمْرُ بَناتِ جورج ؟»

أجابَ الشّابُّ : « ماري جين تِسْعَ عَشْرَةَ سَنَةً ، سوزان خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَجُوانا أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً .»

قالَ المَلِكُ وَالأسى يُغلِّفُ صَوْتَهُ : « أَيَّتُها الحُمْلانُ المِسْكينَةُ ! إنَّهُ لأَمْرٌ بالغُ القَسْوَةِ أَنْ يُتْرَكْنَ هكَذا في هَذِهِ الدُّنْيا الّتي لا تَرْحَمُ .»

قالَ الشّابُّ : « كانَ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ يَكُنَّ في حالٍ أَسْوَأ، لَوْلا أَنَّ بيتر لَهُ أَصْدِقاءُ ، وَهؤلاءِ الأَصْدِقاءُ لَنْ يَسْمَحوا بِأَيِّ أَذًى يُصيبُ الفَتَياتِ ، فَهُناكَ هُوبِسون الواعِظُ ، وَلوت هوڤي ، وبِنْ روكر ، وأَبْنَر شاكلفورد ، ولِيڤي بِل المُحامي ، وَالدُّكتور روبنسون ، وزَوْجاتُهُمْ ، وَالأَرْمَلَةُ بارْتلي . وَهُناكَ الكَثيرُ مِنْ هَؤلاءِ الأَصْدِقاءِ ، وَلكِنْ مَنْ ذَكَرْتُهُمْ الآنَ هُمْ أَقْرَبُ الأَصْدِقاءِ لِبيتر ، وَكانَ يَكْتُبُ عَنهُمْ أَحْيانًا حينَ كانَ يُرْسِلُ رَسائِلَ إلى وَطَنِهِ ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ هارڤي سَيَعْرِفُ أَيْنَ يَجِدُ الأَصْدِقاءَ عِنْدَما يَصِلُ إلى هُنا .»

وَاسْتَمَرَّ المَلِكُ في تَوْجيهِ أَسْئِلَتِهِ حَتّى أَفْرَغَ ما في جَعْبَةِ الشّابِّ مِنْ مَعْلوماتٍ تَقْريبًا ، ثُمَّ سَأَلَ : « هَلْ كانَ بيتر وِلْكس ثَرِيًّا ؟»

أجابَ الشّابُّ : « جدًّا ، كانَ يَمْلِكُ بُيوتًا وَأَراضِيَ . وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ

تَرَكَ ثَلاثَةَ أَوْ أَرْبَعَةَ آلافِ قِطْعَةٍ ذَهَبِيَّةٍ مُخَبَّأَةٍ في مَكانٍ ما هُنا .»

سَأَلَهُ المَلِكُ : « الجِنازَةُ غَدًا ؟ »

قالَ الشّابُّ : « نَعَمْ ، عِنْدَ الظُّهْرِ .»

عِنْدَما وَصَلْنا إلى السَّفينَةِ البُخارِيَّةِ كانَ تَحْميلُها قَدِ انْتَهى ، وَسُرْعانَ ما بَدَأَتِ الرَّحيلَ . وَلَمْ يَذْكُرِ المَلِكُ شَيْئًا عَنِ الصُّعودِ إلى سَطْحِها ، بَلِ اتَّجَهَ إلى الشّاطِئِ وَقالَ : « وَالآنَ أَسْرِعْ ، يا هَكْ ، وَأَحْضِرِ الدّوقَ وَالحَقائِبَ الجَديدَةَ ، وَأَخْبِرْهُ أَنْ يَرْتَدِيَ أَجْمَلَ مَلابِسِهِ .» وَحينَ عُدْتُ بِالدّوقِ ، أَخْبَرَهُ المَلِكُ بِكُلِّ شَيْءٍ قالَهُ الشّابُّ .

وَفي عَصْرِ ذَلِكَ اليَوْمِ وَصَلَتْ سَفينَةٌ بُخارِيَّةٌ أُخْرى ، فَصَعِدْنا عَلى سَطْحِها . وَعِنْدَما وَصَلْنا إلى القَرْيَةِ ذَهَبْنا إلى الشّاطِئِ في القارِبِ ، وَتَجَمَّعَ حَوْلَنا عَدَدٌ مِنَ النّاسِ ، فَقالَ لَهُمُ المَلِكُ : « أَيُّها السّادَةُ ، هَلْ بَيْنَكُمْ أَحَدٌ يَسْتَطيعُ أَنْ يَدُلَّنا عَلى المَنْزِلِ الّذي يَقْطُنُ فيهِ السَّيِّدُ بيتر وِلْكس ؟»

قالَ أَحَدُهُمْ : « آسِفٌ ، يا سَيِّدي ، نَسْتَطيعُ أَنْ نَدُلَّكَ عَلى المَنْزِلِ الّذي كانَ يَعيشُ فيهِ حَتّى الأَمْسِ .»

رَمى الوَغْدُ العَجوزُ بِنَفْسِهِ عَلى الرَّجُلِ وَراحَ يَبْكي ، وَدُموعُهُ

تَنْحَدِرُ على ظَهْرِ الرَّجُلِ ، وَقالَ : « وَا حَسْرَتاهُ ! أَ رَحَلَ أَخونا المِسْكينُ ؟ لَمْ نَصِلْ في الميعادِ لِرُؤْيَتِهِ . آهِ إِنَّهُ لأَمْرٌ صَعْبٌ ! صَعْبٌ جِدًّا ! »

اِسْتَدار وَهُوَ يَبْكي ، وَصَنَعَ بِيَدَيْهِ بَعْضَ الإشاراتِ البَلْهاءِ لِلدّوقِ ، فانْفَجَرَ الأخيرُ باكِياً . وَتَجَمَّعَ الرِّجالُ حَوْلَهُما ، وَأَخَذوا يُواسونَهُما ، وَحَمَلوا أَمْتِعَتَهُما ، وَصَعِدوا بِها إلى أَعْلى التَّلِّ .

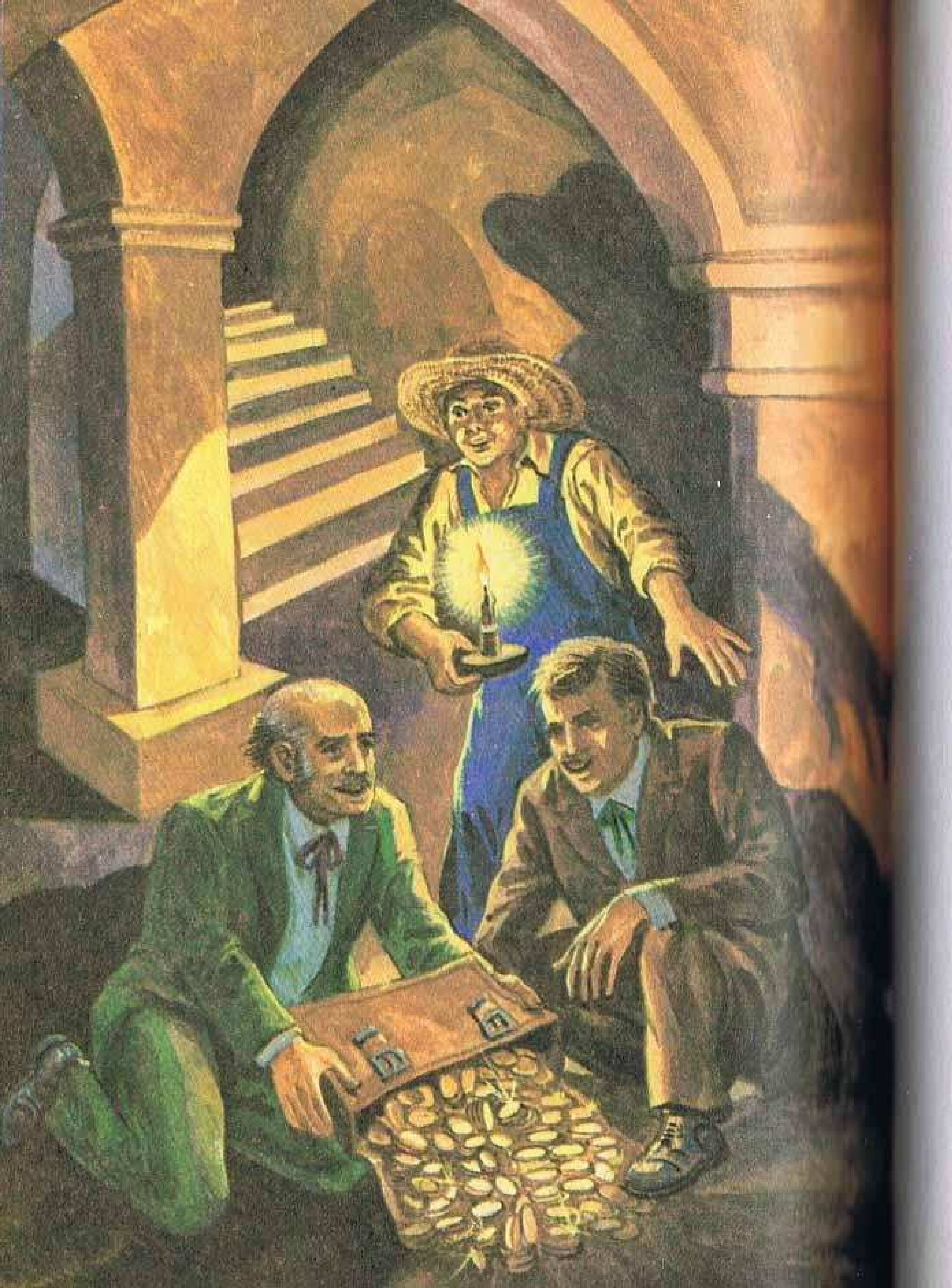
وَعِنْدَما وَصَلْنا إلى المَنْزِلِ وَجَدْنا الشّارِعَ الَّذي أَمامَهُ يَعِجُّ بِالنّاسِ ، وَكانَتِ الفَتَياتُ الثَّلاثُ يَقِفْنَ على عَتَبَةِ البابِ . كانَتْ ماري جين بارِعَةَ الجَمالِ ، يُشِعُّ وَجْهُها ضِياءً ، وَعَيْناها سُروراً بِمَقْدَمِ عَمَّيْها . وَقَدْ بَكى الواقِفونَ تَأَثُّراً وَسُروراً حينَ رَأَوْا شَمْلَ الأُسْرَةِ يَجْتَمِعُ أَخيراً .

وَأَلْقى المَلِكُ خُطْبَةً مَلأَها دُموعاً وَكَلاماً أَجْوَفَ ، وَضَمَّنَها ما يُحِسُّ بِهِ هُوَ وَأَخوهُ مِنْ أَلَمٍ وَحُزْنٍ ؛ لأَنَّهُما لَمْ يَرَيا الفَقيدَ الرّاحِلَ وَهُوَ حَيٌّ بَعْدَ أَنْ قَطَعا في رِحْلَتِهِما سِتَّةَ آلافِ كيلومِترٍ وَقالَ إِنَّهُ سَيَكونُ سَعيداً هُوَ وَبَناتُ أَخيهِ لَوْ أَنَّ قَليلاً مِنْ أَصْدِقاءِ العائِلَةِ الحَميمينَ تَناوَلوا مَعَهُمُ العَشاءَ هَذا المَساءَ – الأَصْدِقاءِ الَّذينَ كانَ يَذْكُرُهُمْ أَخوهُ المِسْكينُ في خِطاباتِهِ : السَّيِّدَ هوبسون ، ولوت هوڤي ، وَالسَّيِّدَ بن روكر ، وَأَبنر شاكلفورد ، وَليڤي بل ، وَالدُّكْتور

روبنسون وَزَوْجاتِهِمْ ، وَالأَرْمَلَةَ بارتلي .

وَكانَ هوبسون الواعِظُ وَالدُّكْتورُ روبنسون في شُغْلٍ بِالمَدينَةِ ، أَمّا المُحامي بِنْ فَكانَ غائِباً في عَمَلٍ ، وَالباقونَ كانوا حاضِرينَ ، وَقَدْ جاءوا جَميعُهُمْ وَصافَحوا المَلِكَ وَالدّوقَ . وَاسْتَطاعَ المَلِكُ أَنْ يَسْتَفْسِرَ – تَقْريباً – عَنْ كُلِّ واحِدٍ في القَرْيَةِ بِالاسْمِ ، وَذَكَرَ جَميعَ الأَحْداثِ الصَّغيرَةِ الَّتي كانَتْ تَقَعُ في القَرْيَةِ بَيْنَ الحينِ وَالآخَرِ ، أَوْ تِلْكَ الَّتي وَقَعَتْ لِعائِلَةِ جورج ، أَوِ الَّتي حَدَثَتْ لِبيتر . وَكانَ يُشيرُ دائِماً إلى أَنَّ بيتر كَتَبَ لَهُ عَنْ تِلْكَ الأَحْداثِ . وَما كانَ هَذا كُلُّهُ إِلّا كَذِباً ، وَما هِيَ إِلّا الأَحْداثُ الَّتي كانَ قَدْ عَرَفَها مِنْ ذَلِكَ الشّابِّ الأَحْمَقِ الَّذي أَرْكَبْناهُ مَعَنا في الزَّوْرَقِ ، وَأَوْصَلْناهُ إلى السَّفينَةِ البُخارِيَّةِ .

وَأَحْضَرَتْ ماري جين الرِّسالَةَ الَّتي تَرَكَها عَمُّها ، فَأَخَذَها المَلِكُ ، وَقَرَأَها بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ . وَقَدْ أَوْصى العَمُّ في هَذِهِ الرِّسالَةِ بِالمَنْزِلِ وَثَلاثَةِ آلافِ دولارٍ لِلْبَناتِ . وَأَعْطى الطّاحونَةَ – وَكانَتْ تُدِرُّ دَخْلاً وَفيراً – وَبَعْضَ البُيوتِ الأُخْرى وَالأَرْضَ (وَهَذِهِ الأَشْياءُ تُساوي سَبْعَةَ آلافِ دولارٍ) ، بِالإضافَةِ إلى ثَلاثَةِ آلافِ دولارٍ لِهارڤي وَ وليم . وَ وَصَفَ في الرِّسالَةِ المَكانَ الَّذي خَبَّأَ فيهِ السِّتَّةَ آلافِ دولارٍ الذَّهَبِيَّةِ ، وَقالَ إِنَّها في حَقيبَةٍ في القَبْوِ ، فَقالَ المُحْتالانِ



إنَّهما سَيَذْهَبانِ وَيَأتِيانِ بِها وَيُعْلِنانِ كُلَّ شَيْءٍ على رُءوسِ الأشْهادِ .
وَطَلَبا مِنّي أنْ أحْضِرَ شَمْعَةً وَأتْبَعَهُما .

وَعِنْدَما وَجَدا الحَقيبَةَ فَتَحاها وَأفْرَغا النُّقودَ على الأرْضِ. وَكانَ مَنْظَرُ تِلْكَ الدولاراتِ الذَّهَبِيَّةِ وَهِيَ مُكَوَّمَةٌ عَلى الأرْضِ رائِعاً ، دَمَعَتْ لَهُ عَيْنا المَلِكِ ، وَقامَ هُوَ وَالدُّوقُ بِعَدِّها فَوَجَدَاها تَنْقُصُ أرْبَعَمِئَةٍ وَخَمْسينَ دولاراً عَنِ السِّتَّةِ آلافٍ ، فَقالَ المَلِكُ : « نَحْنُ نُريدُ أنْ نَعُدَّ النُّقودَ أمامَهُمْ حَتّى لا يَشُكّوا في شَيْءٍ ، وَلكِنَّ الرَّجُلَ المَيِّتَ يَقولُ إنَّها سِتَّةُ آلافِ دولارٍ .»

قالَ الدّوقُ : « اِنْتَظِرْ . دَعْنا نُعَوِّضِ المَبْلَغَ النّاقِصَ .»

وَبَدَأ يُخْرِجُ مِنْ جَيْبِهِ دولاراتٍ صَفْراءَ ذَهَبِيَّةً .

صاحَ المَلِكُ : « هَذِهِ فِكْرَةٌ عَظيمَةٌ ، أيُّها الدّوقُ .»

وَبَدَأ هُوَ أيْضاً يُخْرِجُ ما بِجَيْبِهِ مِنْ دولاراتٍ ذَهَبِيَّةٍ وَيُكَوِّمُها أمامَهُ. وَقَدْ قَضى ذَلِكَ تَقْريباً على كُلِّ الدّولاراتِ الّتي كانَتْ مَعَهُما ، وَهكَذا أكْمَلا السِّتَّةَ آلافِ دولارٍ .

وَقالَ الدّوقُ : « لَدَيَّ فِكْرَةٌ أخْرى . لِنَصْعَدْ إلى الطّابَقِ العُلْوِيِّ ، وَنُحْصِ النُّقودَ ثُمَّ نَهَبْها لِلْفَتَياتِ .»

صاحَ المَلِكُ : « يا إلهي ! إنَّها لأرْوَعُ فِكْرَةٍ نَطَقَ بِها إنْسانٌ ! »

وَعِنْدَما صَعِدْنا إلى الطّابَقِ العُلوِيِّ تجمَّعَ الحاضِرونَ حَوْلَ المِنْضَدَةِ ، وَأحصى المَلِكُ النُّقودَ ، وكَوَّمَها أمامَ الحاضِرينَ ، وَبَدأَ يَنْتَفِخُ زَهْواً استِعْداداً لِخُطَّةٍ أخرى ، ثُمَّ قالَ :

« أيُّها السّادَةُ ، لَقَدْ تصرَّفَ أخي المِسْكينُ بِكُلِّ كَرَمٍ نَحْوَ هاتيكُمُ الحُمْلانِ الصَّغيرَةِ المِسْكينَةِ الّتي أحبَّها وَآواها . وَنَحْنُ اللَّذانِ نَعْرِفُهُ جيِّداً ، نَعْلَمُ أنَّهُ كانَ سَيَتَصَرَّفُ بِمَزيدٍ مِنَ الكَرَمِ لَوْلا أنَّهُ خافَ مِنْ جَرْحِ مَشاعِرِ أخيهِ العَزيزِ وليم وَمشاعِري . وَلَكِنْ كَيْفَ يَكونُ مَنْظَرُ هَذَيْنِ العَمَّيْنِ اللَّذَيْنِ يَسْرِقانِ – نَعَمْ يَسْرِقانِ – هؤلاءِ الحُمْلانَ الجَميلَةَ المِسْكينَةَ في مِثْلِ هَذا الوَقْتِ الحَزينِ ؟ لا .. هَذا لا يُمْكِنُ أنْ يَكونَ . ماري جين ، سوزان ، جوانا ، خُذْنَ هَذا المالَ جَميعَهُ ، إنَّهُ هِبَةٌ مِنْ أخي المِسْكينِ . »

قالَتِ الفَتَياتُ : « يا أحِبّاءَنا ! كَمْ هُوَ جَميلٌ مِنْكُما أنْ تَفْعَلا هَذا ! »

وَفي هَذِهِ اللَّحْظَةِ انْطَلَقَتْ ضِحْكَةٌ مُدَوِّيَةٌ ، أطْلَقَها في وَجْهِ المَلِكِ رَجُلٌ ذو فَكٍّ حَديدِيٍّ كانَ قَدْ دَخَلَ لِتَوِّهِ . وَأصيبَ كُلُّ واحِدٍ مِنَ الحاضِرينَ بِصَدْمَةٍ . وَتَساءَلَ أبنر شاكلفورد : « مَنْ ؟ روبنسون ؟ ألَمْ تَسْمَعِ الأخبارَ ؟ هَذا هُوَ هارفي وِلْكس . »

وَابْتَسَمَ المَلِكُ في شَوْقٍ وَمَدَّ يَدَهُ مُصافِحاً وَقالَ : « أ هَذا هُوَ

صَديقُ أخي العَزيزُ الدُّكتور روبنسون ؟ »

قالَ الدُّكتورُ : « أبْعِدْ يَدَكَ عَنّي ! هَلْ أنْتَ أخو بيتر وِلْكس ؟ لا ، لَسْتَ هُوَ ، ما أنت إلاّ مُحْتالٌ . »

وَأثارَتْ هَذِهِ العِبارَةُ أحاسيسَ الحاضِرينَ ، وَتجمَّعوا حَوْلَ الدُّكتور ، وَحاوَلوا أنْ يُخْبِروهُ كَيْفَ أنَّ هذا الرَّجُلَ قَدْ أثْبَتَ لَهُمْ بِكُلِّ الطُّرُقِ أنَّهُ هارفي .

قالَ الدُّكتورُ ، مُلْتَفِتاً لِلْفَتَياتِ : « أصْغَيْنَ لي . اُطْرُدْنَ هَذا الوَغْدَ مِنْ هُنا ! أتَوَسَّلُ إلَيْكُنَّ أنْ تَفْعَلْنَ هَذا . »

قالَتْ ماري جين وَهِيَ تَضَعُ حَقيبَةَ النُّقودِ في يَدِ المَلِكِ : « هاكَ إجابَتي .. خُذْ هَذِهِ الآلافَ السِّتَّةَ وَضَعْها في أيِّ مَكانٍ يُمْكِنُ أنْ يَعودَ عَلَيْنا بِالفائِدَةِ . »

صَفَّقَ الحاضِرونَ ، وَضَرَبوا الأرْضَ بِأرْجُلِهِمْ مِثْلَ المَجانينِ ، عَلى حينَ شَمَخَ المَلِكُ بِأنْفِهِ وَابْتَسَمَ مَزْهُوّاً .

قالَ الدُّكتورُ : « إنَّني أنْفُضُ يَدي مِنْ هَذا المَوْضوعِ ، وَلَكِنْ سَيَحينُ الوَقْتُ الَّذي تَشْعُرْنَ فيهِ بِالغُصَّةِ كُلَّما تَذَكَّرْتُنَّ هَذا اليَوْمَ . »

وَانْصَرَفَ خارِجاً .

الفَصْلُ الحادِي عَشَر

حَقيبَةُ الذَّهَب

عِنْدَما انْصَرَفَ النّاسُ سَأَلَ المَلِكُ ماري عَمّا إذا كانَتْ ثَمَّةَ غُرَفٌ شاغِرَةٌ لِمَبيتِنا ، فَقالَتْ إِنَّ هُناكَ واحِدَةً تَصْلُحُ لِلْعَمِّ وليم ، وَسَتَتَخَلّى هِيَ عَنْ غُرْفَتِها لِلْعَمِّ هارفي وَتُشارِكُ أُخْتَيْها حُجْرَتَهُما ، وَثَمَّ فِراشٌ في الكوخِ يَصْلُحُ لي .

وَفي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أُقيمَ عَشاءٌ فَخْمٌ حَضَرَهُ جَميعُ أُولَئِكَ الرِّجالِ الَّذينَ كانوا حاضِرينَ مِنْ قَبْلُ وَزَوْجاتُهُمْ . وَقَدْ تَناوَلْتُ عَشائي في المَطْبَخِ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَبَذَلَتِ الأَخَواتُ ، بَلْ كُلُّ مَنْ في المَنْزِلِ ، ما في وُسْعِهِنَّ لِيَجْعَلْنَني أَشْعُرُ وَكَأَنَّني في بَيْتي ، غَيْرَ أَنَّني أَحْسَسْتُ بِالخَجَلِ حينَ ذَهَبْتُ إِلى الفِراشِ . وَقُلْتُ في نَفْسي : « يَجِبُ أَنْ أَسْرِقَ ذَلِكَ المالَ بِطَريقَةٍ أَوْ بِأُخْرى ، وَأُخَبِّئَهُ ، ثُمَّ حينَ أُبْحِرُ في النَّهْرِ أُرْسِلُ رِسالَةً أُخْبِرُ فيها ماري جين بِمَكانِهِ ؛ لِذَلِكَ سَأَذْهَبُ وَأُفَتِّشُ الغُرْفَتَيْنِ .»

وَجَدْتُ غُرْفَةَ المَلِكِ ، وَبَدَأْتُ أَتَحَسَّسُ طَريقي في الظَّلامِ ؛ فَلَمْ أَكُنْ لأَجْرُؤَ عَلى إِشْعالِ شَمْعَةٍ . وَمَرَّ بَعْضُ الوَقْتِ ، ثُمَّ سَمِعتُ صَوْتَ أَقْدامِهِما آتِيَةً ، وَفي هَذِهِ اللَّحْظَةِ لَمَسَتْ يَدي السِّتارَةَ الَّتي تُخْفي مَلابِسَ ماري جين ، فَقَفَزْتُ وَراءَها ، وَاخْتَفَيْتُ خَلْفَ المَلابِسِ في اللَّحْظَةِ الَّتي دَخَلا فيها الغُرْفَةَ وَجَلَسا .

سَأَلَ المَلِكُ : « ما الخَبَرُ ؟»

قالَ الدّوقُ : « إِنَّني قَلِقٌ أَيُّها المَلِكُ . ذَلِكَ الدُّكتور يَشْغَلُ فِكْري ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّنا يَجِبُ أَنْ نَنْسَلَّ خارِجينَ مِنْ هُنا ، وَنُسْرِعَ إِلى النَّهْرِ بِما حَصَلْنا عَلَيْهِ .»

صاحَ المَلِكُ : « ماذا ؟ أَ نَمْشي وَنَتْرُكُ ثَمانِيَةَ أَوْ تِسْعَةَ آلافِ دولارٍ ، قيمَةَ العَقاراتِ ، وَهِيَ تَنْتَظِرُنا لِنَلْتَقِطَها ؟»

تَذَمَّرَ الدّوقُ قائِلاً إِنَّ حَقيبَةَ الذَّهَبِ تَكْفي ، وَإِنَّهُ لا يُريدُ أَنْ يَسْلُبَ الفَتَياتِ كُلَّ شَيْءٍ يَمْتَلِكْنَهُ ، فَأَخَذَ المَلِكُ يُناقِشُ الدّوقَ ، حَتّى اقْتَنَعَ أَخيراً .

قالَ الدّوقُ لِلْمَلِكِ وَهُما يَخْرُجانِ : « أَعْتَقِدُ أَنَّنا لَمْ نَضَعِ النُّقودَ في مَكانٍ أَمينٍ .»

قالَ المَلِكُ : « أَنْتَ عَلى حَقٍّ ، يا دوق .»

وجاء يتحسس الذهب تحت الستارة على بعد متر من حيث كنت مختبئا ، ولم يساوره الشك إطلاقا في أنني كنت هناك . ودفعا بالنقود في الحشية المحشوة بالقش ، والموجودة تحت السرير ، من خلال مزق فيها . وكان على السرير حشية أخرى محشوة بريش الطيور . وما إن فعلا ذلك حتى قالا إن هذا أفضل ؛ لأن الخادمة تنظف الفراش وحشية ريش الطيور مرة كل يوم ، على حين تقلب حشية القش مرتين في العام ، ومن ثم فإن خطر السرقة غير محتمل .

ولكنني أخرجت المال قبل أن يهبطا منتصف الدرج ، وخبأته في الكوخ ، ثم رقدت وأنا مرتد لملابسي كلها .

ومرت لحظات ثم سمعت الملك والدوق يصعدان ، وعندما سكنت الأصوات آخر الليل ، وقبل أن يبدأ ضجيج يوم جديد انسللت خارجا .

تسللت إلى غرفتيهما ، وأصغيت ، فجاء إلى أذني صوت شخيرهما ، فتسللت هابطا الدرج ، ونظرت بحذر من خلال باب غرفة الطعام ، حيث كانت شمعة تحترق ، وحيث كان الرجال الذين يحرسون جثمان الميت غارقين في نوم عميق على كراسيهم . وكانت ثمة شمعة أخرى في الغرفة الأمامية حيث يرقد الجثمان ،

غير أنه لم يكن بها أحد ، فاتجهت إلى الباب الأمامي ، فوجدته مغلقا بالقفل ، والمفتاح غير موجود به .

وفي تلك اللحظة سمعت شخصا يهبط الدرج فجريت إلى الغرفة الأمامية ، ولم أر أمامي سوى التابوت مكانا أخفي فيه الحقيبة ، وكان غطاؤه مرفوعا قدر قدم ، ويظهر منه وجه الرجل الميت مغطى بقطعة من القماش ، فدفعت بالحقيبة تحت الغطاء ، وجريت عبر الغرفة واختبأت خلف الباب .

كانت القادمة ماري جين ، التي توجهت إلى التابوت ، وجثت على ركبتيها ونظرت إلى التابوت ، ثم أخرجت منديلها وراحت تبكي ، فتسللت خارجا ، وصعدت إلى فراشي وأنا أشعر بخيبة أمل من الطريقة التي سارت بها الأمور ، رغم ما تكبدت من متاعب ، وواجهت من أخطار .

وكنت أريد ، بالطبع ، أن أتسلل هابطا وأحضر الحقيبة من مكانها ، إلا أنني لم أجرؤ على محاولة ذلك ، فبعد قليل سينهض الحراس وقد يقبضون علي .

وفي الصباح عندما هبطت إلى الطابق السفلي كانت الغرفة الأمامية مغلقة . وعند الظهر جاء رجلان و وضعا التابوت على

كُرْسِيَّيْنِ في مُنْتَصَفِ الغُرْفَةِ ، وَرَأَيْتُ الغطاءَ مَرْفوعاً كَما كانَ مِنْ قَبْلُ ، وَلٰكِنَّني لَمْ أَجْسُرْ عَلى النَّظَرِ تَحْتَهُ .

وَبَدَأَ النّاسُ يَدْخُلونَ فُرادى ، وَيَمُرُّ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ بِبُطْءٍ حَوْلَ التّابوتِ ، وَيَنْظُرُ إِلى وَجْهِ الفَقيدِ دَقيقَةً ، وَكانَ البَعْضُ مِنْهُمْ تَفِرُّ مِنْ عَيْنَيْهِ دَمْعَةٌ أَوْ دَمْعَتانِ ، وَقَد سادَ المَكانَ السُّكونُ وَالجَلالُ .

وَأَلْقى هوبسون الواعِظُ خُطْبَةً ، ثُمَّ أَلْقى المَلِكُ كَالعادَةِ بَعْضاً مِنْ هَذَرِهِ. وَبَعْدَ أَنِ انْتَهَتِ المَراسِمُ قامَ الرَّجُلانِ بِإِنْزالِ الغطاءِ وَتَثْبيتِهِ بِالمَسامير .

وَبَعْدَ أَنْ دَفَنوهُ عُدْنا إِلى البَيْتِ . وَظَلِلْتُ أُراقِبُ الوُجوهَ ، لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَفْعَلَ شَيْئاً بِخُصوصِ الحَقيبَةِ ، فَلا حيلَةَ لي في الأَمْرِ ، إِلّا أَنَّ الوُجوهَ لَمْ تُنْبِئْني بِشَيْءٍ .

وَفي المَساءِ أَفْصَحَ المَلِكُ عَنْ أَنَّ أَهْلَهُ في إِنْجِلْترا قَدْ يُحِسّونَ بِالقَلَقِ عَلَيْهِ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ عَلَيْهِ أَنْ يُسَوِّيَ مَسْأَلَةَ العَقاراتِ فَوْراً ، وَيَرْحَلَ . وَقالَ إِنَّهُ وَ وليم سَيَصْحَبانِ الفَتَياتِ مَعَهُما . وَقَدْ سُرَّتِ الفَتَياتُ مِنْ هذا الخَبَرِ ، فَطَلَبْنَ مِنْهُ أَنْ يَبيعَ العَقاراتِ بِأَسْرَعِ ما يُمْكِنُهُ . وَقَدْ شَعَرْتُ بِالأَلَمِ يَعْتَصِرُ قَلْبي وَأَنا أَرى الفَتَياتِ يَقَعْنَ في شَرَكِ الاحْتِيالِ وَالكَذِبِ .

وَأَيْقَظَني المَلِكُ وَالدّوقُ صَباحَ يَوْمِ البَيْعِ مُبَكِّراً ، وَسَأَلَني المَلِكُ : « هَلْ كُنْتَ في غُرْفَتي اللَّيْلَةَ قَبْلَ الماضِيَةِ ؟»

أَجَبْتُهُ : « لا ، يا صاحِبَ الجَلالَةِ .»

سَأَلَني الدّوقُ : « هَلْ رَأَيْتَ شَخْصاً آخَرَ يَدْخُلُها ؟»

فَكَّرْتُ هُنَيْهَةً ، وَ وَجَدْتُ في هَذا السُّؤالِ فُرْصَتي فَقُلْتُ : « رَأَيْتُ الخَدَمَ يَدْخُلونَ هُناكَ عِدَّةَ مَرّاتٍ . وَكُنْتُ موشِكاً عَلى مُغادَرَةِ غُرْفَتي حينَ رَأَيْتُهُمْ .»

قالَ المَلِكُ : « حَسَناً ، اِسْتَمِرَّ .. اسْتَمِرَّ ، ماذا فَعَلوا ؟»

قُلْتُ : « لَمْ يَفْعَلوا شَيْئاً . لَقَدِ انْسَلّوا بَعيداً .»

وَقَفا هُناكَ يُفَكِّرانِ وَيَهْرُشانِ رَأْسَيْهِما ، ثُمَّ قالَ المَلِكُ لِلدّوقِ: « يَجِبُ أَنْ نَبْتَلِعَها ، وَلا نَقولَ شَيْئاً .»

وَأَقاما البَيْعَ في المَيْدانِ العامِّ ، وَاسْتَمَرَّتْ عَمَلِيَّةُ البَيْعِ . وَعِنْدَما أَوْشَكوا عَلى الانْتِهاءِ مِنْ آخِرِ قِطْعَةِ أَرْضٍ ، رَسَتْ سَفينَةٌ بُخارِيَّةٌ عَلى الضِّفَّةِ . وَبَعْدَ دَقيقَتَيْنِ جاءَتْ جَماعَةٌ مِنَ النّاسِ يَصيحونَ :

« لَقَدْ جاءَ أَخَوانِ آخَرانِ لِبيتر وِلْكس العَجوزِ ! »

الفَصْلُ الثّاني عَشَر

أكْثَرُ المتاعِبِ رُعْبًا

كانَتْ هَذِهِ الجَماعَةُ مِنَ النّاسِ تَصْحَبُ مَعَها شَيْخًا وَقورًا وَشابًّا وَسيمًا ، وَقَدْ وَضَعَ يَدَهُ في جَبيرَةٍ .

قالَ الشّيْخُ : « أنا هارڤي أخو بيتر وِلْكس ، وَهَذا أخوهُ وليم الأصَمُّ الأخْرَسُ . لَقَدْ صادَفَتْنا بَعْضُ المِحَنِ ، فَقَدْ كُسِرَتْ ذِراعُ وليم ، وَأضَعْنا أمْتِعَتَنا بِطَريقِ الخَطَأ في مَدينَةٍ ما ، في اللَّيْلَةِ الماضِيَةِ .»

قالَ المَلِكُ وَهُوَ يَضْحَكُ ساخِرًا : « كُسِرَتْ ذِراعُهُ ، مُحْتَمَلٌ جِدًّا ، أ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟ وَلَكِنْ أضاعوا أمْتِعَتَهُمْ !! هَذا حَسَنٌ جِدًّا وَمُناسِبٌ جِدًّا .»

وَقَهْقَهَ مَرَّةً أخْرى ، وَقَهْقَهَ مَعَهُ الواقِفونَ ، ما عَدا قِلَّةً مِنْهُمْ ، كانَ أحَدُهُمْ الدُّكتور هوبسون ، وَكانَ الآخَرُ ليڤي بِل المُحامي ،

الّذي كانَ قَدْ عادَ مِنْ مَدينَةِ لويزڤيل .

قالَ الطَّبيبُ : « أيُّها الجيرانُ ، أنا لا أعْرِفُ إذا كانَ القادِمانِ الجَديدانِ مُحْتالَيْنِ أوْ لا ، وَلَكِنْ إذا لَمْ يَكُنْ هَذانِ الاثْنانِ مُحْتالَيْنِ فانْعَتوني بِالحُمْقِ ! هَذا كُلُّ ما لَدَيَّ . وَأعْتَقِدُ أنَّ مِنْ واجِبِنا أنْ نَحْذَرَ هُروبَهُما حَتّى نَتَحَقَّقَ مِنْ هَذا الأمْرِ . سَنأخُذُ هَذَيْنِ الشَّخْصَيْنِ الجَديدَيْنِ إلى الفُنْدُقِ وَنُواجِهُهُما بِالآخَرَيْنِ ، وَأعْتَقِدُ أنَّنا سَنَكْتَشِفُ شَيْئًا قَبْلَ أنْ تَنْتَهِيَ المُواجَهَةُ .»

بَدَأنا السَّيْرَ جَميعًا إلى الفُنْدُقِ ، وَتَجَمَّعْنا في غُرْفَةٍ كَبيرَةٍ هُناكَ ، وَأحْضِرَ الشَّيْخُ الوَقورُ وَأخوهُ . وَبَدَأ الدُّكتور قائِلاً :

« إذا لَمْ يَكُنْ هَذانِ الرَّجُلانِ مُحْتالَيْنِ فَلَنْ يَعْتَرِضا عَلى أنْ يُرْسِلا في طَلَبِ حَقيبَةِ الذَّهَبِ وَإبْقائِها هُنا حَتّى تَنْجَلِيَ الحَقيقَةُ .»

وَ وافَقَ المَوْجودونَ جَميعُهُمْ عَلى هَذا الاقْتِراحِ . وَهَكَذا ضَيَّقوا الخِناقَ عَلى المَلِكِ وَالدّوقِ مِنَ البِدايَةِ .

قالَ المَلِكُ حَزينًا : « أيُّها السّادَةُ ، عِنْدَما أعْطَتْني ابْنَةُ أخي الحَقيبَةَ لأحْفَظَها لَها ، خَبَّأتُها داخِلَ حَشِيَّةِ القَشِّ المَوْضوعَةِ تَحْتَ فِراشي ، فَلَمْ تَكُنْ لَدَيَّ رَغْبَةٌ لِوَضْعِها في البَنْكِ طيلَةَ الأيّامِ القَليلَةِ الّتي سَنَمْكُثُها هُنا . وَلَكِنّي اكْتَشَفْتُ أنَّ الخَدَمَ سَرَقوها في صَباحِ

اليَوْمِ الَّذي وَضَعْتُها فيهِ في الحَشِيَّةِ . وَاكْتَشَفْتُ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ هَبَطْتُ إِلى الطَّابَقِ الأَرْضِيِّ .»

قالَ الطَّبيبُ وَآخَرونَ : « هَذا كَلامٌ فارِغ ! »

بَلْ إِنَّهُ ما مِنْ أَحَدٍ مِنَ الحاضِرينَ – عَلى ما رَأَيْتُ – صَدَّقَ المَلِكَ .

وَبَدَءوا التَّحْقيقَ العامَّ ، فَجَعَلوا المَلِكَ يَسْرُدُ قِصَّتَهُ ، كَما طَلَبوا مِنَ الشَّيْخِ أَنْ يُخْبِرَهُم بِحِكايَتِهِ .

وَكانَ مِنَ الواضِحِ لِكُلِّ ذي عَيْنَيْنِ مِنَ الحُضورِ ، عَدا الحَمْقى مِنْهُمْ ، أَنَّ المَلِكَ يُلَفِّقُ أَكاذيبَ وَأَنَّ الشَّيْخَ يَقولُ الصِّدْقَ .

قالَ الدُّكْتورُ : « لَوْ كُنْتَ حاضِراً هُنا مِنَ البِدايَةِ ، يا ليفي بِل ...»

صاحَ المَلِكُ مُقاطِعاً : « ماذا ؟ أَ هَذا صَديقُ أَخي المِسْكينِ الَّذي كانَ يَكْتُبُ لي عَنْهُ كَثيراً ؟»

وَتَصافَحَ المُحامي وَالمَلِكُ ، وَتَحادَثا هُنَيْهَةً بِصَوْتٍ خَفيضٍ .

قالَ المُحامي بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ : « هَذا سَيُوَضِّحُ كُلَّ شَيْءٍ . سَأُضاهي خُطوطَكُمْ بِالخُطوطِ المَكْتوبِ بِها الرَّسائِلُ الَّتي مَعي ؛ وَعِنْدَئِذٍ سَيَكونُ كُلُّ شَيْءٍ عَلى ما يُرامُ .»

وَأَحْضَروا وَرَقَةً وَقَلَماً ، وَجَلَسَ المَلِكُ وَدَوَّنَ شَيْئاً ، ثُمَّ أَعْطَوا القَلَمَ لِلدّوق فَكَتَبَ . واسْتَدارَ المُحامي إِلى الشَّيْخِ وَقالَ لَهُ :

« مِنْ فَضْلِكَ اكْتُبْ أَنْتَ وَأَخوكَ سَطْراً أَوِ اثْنَيْنِ ، وَ وَقِّعا بِاسْمَيْكُما .»

وَكَتَبَ الشَّيْخُ ، وَلَكِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَقْرَأَ ما كَتَبَ ، وَبَدا المُحامي دَهِشاً جِدًّا وَقالَ : « إِنَّ هَذا يُحَيِّرُني .»

وَأَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ مَجْموعَةً مِنَ الرَّسائِلِ القَديمَةِ وَفَحَصَها ، وَفَحَصَ كِتابَةَ الشَّيْخِ ، ثُمَّ كِتابَةَ الآخَرَيْنِ مَرَّةً أُخْرى ، ثُمَّ قالَ :

« هَذِهِ الرَّسائِلُ مُرْسَلَةٌ مِنْ هارفي وِلْكس ، وَهَذِهِ الخُطوطُ تُوَضِّحُ لِكُلِّ ذي عَيْنَيْنِ أَنَّهُما لَمْ يَكْتُبا هَذِهِ الرَّسائِلَ .»

وَبَدَتِ البَلاهَةُ عَلى المَلِكِ وَالدّوقِ ، فَقَدْ أَوْقَعَهُما المُحامي في الشَّرَكِ .

وَ واصَلَ المُحامي قَوْلَهُ : « ها هُوَ ذا خَطُّ هَذا الشَّيْخِ الوَقورِ وَمِنْهُ يَتَّضِحُ لَكُمْ ، وَبِكُلِّ سُهولَةٍ ، أَنَّهُ لَمْ يَكْتُبِ الرَّسائِلَ . بَلْ إِنَّ هَذا النَّقْشَ الَّذي صَنَعَهُ لَيْسَ كِتابَةً عَلى الإِطْلاقِ .»

قالَ الشَّيْخُ : « مِنْ فَضْلِكَ دَعْني أَشْرَحْ لَكَ الأَمْرَ . لا يَسْتَطيعُ

أحدَ أنْ يَقرأ ما أكتُبُ سِوى أخي الواقِفِ هُناكَ ، ولِذلكَ فإنَّهُ كانَ يَنْسخُ ما أكتُبُ ، ومِنْ هُنا فإنَّ الرَّسائِلَ الَّتي معكَ مكتوبةٌ بِخطِّهِ هُوَ ولَيْسَ بِخطّي أنا .»

قالَ المُحامي : « حَسَناً ، هذا يَضعُ الأمْرَ في نِصابِهِ . إنَّ معي بَعْضاً مِنْ رَسائِلِ وليم أيْضاً ، فإذا ما جعلْتُهُ يَكْتُبَ سطْراً أوْ سطْرَيْنِ نَسْتَطيعُ أنْ ...»

قاطعَهُ الشَّيْخُ قائِلاً : « إنَّهُ لا يَسْتَطيعُ أنْ يَكْتُبَ بِيَدِهِ اليُسْرى .»

ولَوْ كانَ يَسْتَطيعُ أنْ يَكْتُبَ بِيَدِهِ اليُمْنى الآنَ لأدْرَكْتَ أنَّهُ هُوَ الَّذي كَتَبَ رَسائِلَهُ وَ رَسائِلي . ولَكِنِ انْظُرْ إلى مَجْموعَتَي الرَّسائِلِ فسَتَجِدُ أنَّهُما مكْتوبَتانِ بِنَفْسِ الخطِّ .»

قالَ المُحامي بَعْدَ أنْ نَظَرَ في الرَّسائِلِ : « أعْتَقِدُ أنَّ الأمْرَ كَما تَقولُ . حَسَنٌ حَسَنٌ ، أعْتَقِدُ أنَّنا في طَريقِنا إلى العُثورِ على حَلٍّ ، ولَكِنَّنا لَمْ نَنْجَحْ تَماماً ، ولَكِنْ على أيَّةِ حالٍ لَقَدْ ثَبَتَ أمْرٌ واحِدٌ ، هُوَ أنَّ هَذَيْنِ الاثْنَيْنِ لَيْسا مِنْ عائِلَةِ وِلْكس .» وأشارَ بِرأسِهِ نَحْوَ المَلِكِ والدّوقِ .

ماذا تَعْتَقِدونَ أنْ يَكونَ رَدُّ فِعْلِ المَلِكِ ؟ لَمْ يَسْتَسْلِمْ هَذا الأحْمَقُ العَجوزُ ، بَلْ قالَ إنَّ هَذا امْتِحانٌ غَيْرُ عادِلٍ ؛ فَقالَ الشَّيْخُ

الوَقورُ : « لَقَدْ تَذَكَّرْتُ شَيْئاً . هَلْ يوجَدُ هُنا أحَدٌ مِنَ الَّذينَ ساعَدوا في إعْدادِ أخـ ... أقْصِدُ في إعْدادِ بيتر وِلْكس لِلدَّفْنِ .»

قالَ أحَدُ الحاضِرينَ : « نعم ، لَقَدْ قُمْنا أنا وآب ترنر بِذَلِكَ .»

قالَ الشَّيْخُ وَهُوَ يَسْتَديرُ نَحْوَ المَلِكِ : « رُبَّما يَسْتَطيعُ هَذا السَّيِّدُ أنْ يُخْبِرَني ما هِيَ العَلامَةُ المَوْجودَةُ على صَدْرِ بيتر .»

شَحَبَ وَجْهُ المَلِكِ قَليلاً ، وَسادَ الصَّمْتُ لَحْظَةً ، وَحَمْلَقَ الحاضِرونَ فيهِ ، وَقُلْتُ في نَفْسي : الآنَ سَيَسْتَسْلِمُ . وَلَكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ، بَلْ قالَ :

« آهٍ .. نَعَمْ ، يا سَيِّدي ، أسْتَطيعُ أنْ أخْبِرَكَ . إنَّهُ سَهْمٌ صَغيرٌ رَفيعٌ لا يُمْكِنُكَ أنْ تَراهُ عَنْ قُرْبٍ إذا لَمْ تُدَقِّقِ النَّظَرَ فيهِ .»

ما رَأيْتُ في حَياتي شَخْصاً فَقَدَ بُرْقُعَ الحَياءِ مِثْلَ هَذا الوَغْدِ العَجوزِ . وَاسْتَدارَ الشَّيْخُ الجَديدُ نَحْوَ آب ترنر وَشَريكِهِ وَقالَ : « ها قَدْ سَمِعْتُما ما قالَهُ . هَلْ كانَتْ توجَدُ مِثْلُ هَذِهِ العَلامَةِ على صَدْرِ بيتر وِلْكس ؟»

قالَ الرَّجُلانِ : « لا ، لَمْ نَرَ مِثْلَ هَذِهِ العَلامَةِ .»

قالَ الشَّيْخُ الوَقورُ : « حَسَناً ، إنَّ ما رَأيْتُماهُ بِالفِعْلِ على صَدْرِهِ

هُوَ حَرْفا « ب » و « ت » ، وَالحَرْفُ الثاني هُوَ أَوَّلُ حَرْفٍ مِن اسمٍ نادِراً ما يُسْتَعْمَلُ ، ثُمَّ حَرْفُ « و » . وَيَفْصِلُ بَيْنَ كُلٍّ مِنْ هَذِهِ الحُروفِ شَرْطَةٌ .»

وقامَ بِكِتابَةِ هَذِهِ الحُروفِ عَلى قِطْعَةِ وَرَقٍ بِالطَّريقَةِ الَّتي قالَها ، ثُمَّ تَساءَلَ : « أَلَيْسَ هَذا هُوَ ما رَأَيْتُماهُ ؟»

قالَ الرَّجُلانِ : « لا لَمْ نَرَ هَذِهِ الحُروفَ ، بَلْ لَمْ نَرَ أَيَّةَ عَلامَةٍ عَلى الإِطْلاقِ .»

وَاسْتَوْلَتِ الحيرَةُ عَلى الحاضِرينَ ، وَصاحوا : « إِنَّهُمْ جَميعاً عِصابَةٌ مِنَ المُحْتالينَ ، دَعونا نَقْتُلْهُمْ ! »

صاحَ المُحامي : « أَيُّها السّادَةُ ، أَيُّها السّادَةُ . لا تَزالُ ثَمَّةَ طَريقَةٌ لِنَتَأَكَّدَ بِها ، دَعونا نَذْهَبْ وَنُخْرِجِ الجُثْمانَ مِنَ القَبْرِ ، وَنَنْظُرْ .» فَصاحَ الحاضِرونَ مُهَلِّلينَ وَمُوافِقينَ .

صَدِّقوني ، لَقَدِ اسْتَوْلى عَلَيَّ الرُّعْبُ في هَذِهِ اللَّحْظَةِ ، فَقَدْ أَمْسَكوا بِنا جَميعاً ، وَساقونا مُباشَرَةً نَحْوَ المَقْبَرَةِ وَهُمْ يَتَصَرَّفونَ كالقِطَطِ المُتَوَحِّشَةِ .

وَمِمّا زادَ في رُعْبي أَنَّ السَّحابَ غَطّى السَّماءَ وَبَدَأَ البَرْقُ يَتَوَهَّجُ ، وَأَخَذَتِ الريحُ تَزْأَرُ بَيْنَ أَوْراقِ الشَّجَرِ . وكانَتْ هَذِهِ أَخْطَرَ

مِحْنَةٍ أُواجِهُها وَأَكْثَرَها رُعْباً ، فَلا يوجَدُ شَيْءٌ في هَذِهِ الدُّنيا يَحولُ الآنَ بَيْني وَبَيْنَ المَوْتِ سِوى تِلْكَ العَلامَةِ ، فَإِذا لَمْ يَجِدوها ...

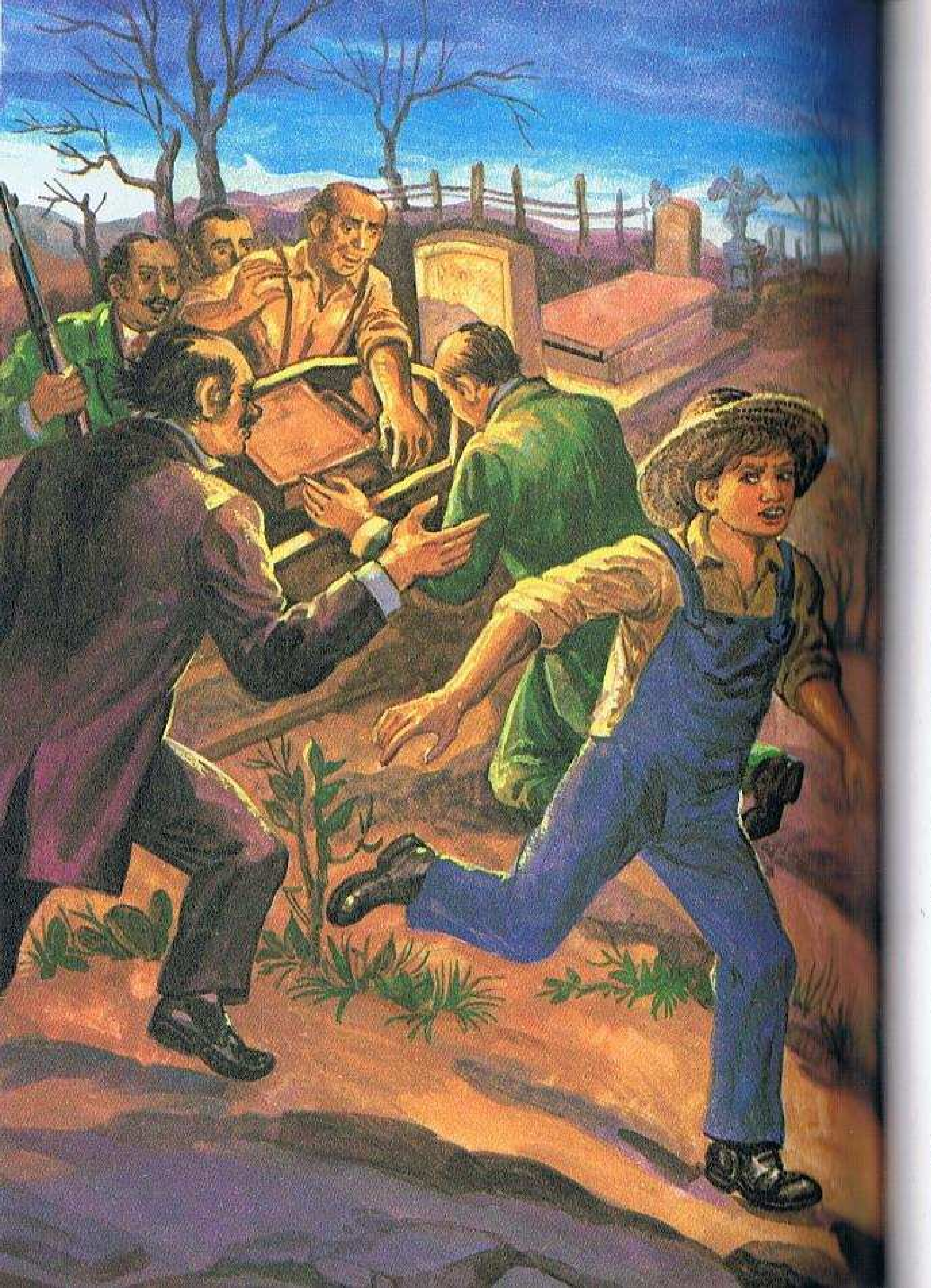
أَخَذَتْ حُلْكَةُ اللَّيْلِ تَزْدادُ ، وَهُوَ وَقْتٌ يَصْلُحُ لِلْهَرَبِ مِنْ بَيْنِ هَذا الحَشْدِ ، وَلَكِنَّ شَخْصاً ضَخْماً يُدْعى هاينز كانَ يُمْسِكُ بي مِنْ مِعْصَمي .

وَاحْتَشَدَ النّاسُ في المَقْبَرَةِ ، وَمَعَهُمْ مِئاتُ المَعاوِلِ ، وَلَكِنَّهُم لَمْ يُحْضِروا مَعَهُمْ فانوساً ، فَأَرْسَلوا رَجُلاً لِيَسْتَعيرَ واحِداً . وَبَدَءوا الحَفْرَ عَلى ضَوْءِ البَرْقِ الخافِتِ .

كانوا يَحْفِرونَ مِثْلَ المَجانينِ ، وَازْدادَ اللَّيْلُ عَتَمَةً ، وَانْصَبَّ المَطَرُ مِدْراراً ، وَاشْتَدَّ البَرْقُ وَهيجاً ، وَقَصَفَ الرَّعْدُ . وَفي لَحْظَةٍ كانَ بِمُكْنَتِكَ أَنْ تَرى كُلَّ شَيْءٍ ، وَكُلَّ وَجْهٍ في هَذا الحَشْدِ الهائِلِ ، وَفي اللَّحْظَةِ التّالِيَةِ يَعُمُّ الظَّلامُ وَلا تَسْتَطيعُ أَنْ تَرى شَيْئاً عَلى الإِطْلاقِ .

وَأَخيراً وَصَلوا إِلى التّابوتِ ، وَأَخَذوا يَنْزِعونَ مَساميرَ الغِطاءِ . وَفَجْأَةً بَرَقَ البَرْقُ بِوَميضٍ مُبْهِرٍ .. وَصَرَخَ أَحَدُهُمْ : « يا اللَّهُ ! ها هِيَ ذي حَقيبَةُ الذَّهَبِ عَلى صَدْرِهِ .»

وَأَطْلَقَ هاينز صَرْخَةً مِثْلَ الآخَرينَ ، وَأَطْلَقَ مِعْصَمي ، وَأَلْقى



بِنَفْسِهِ لِلأَمامِ لِيَحْظى بِنَظْرَةٍ .

وَسَنَحَتْ لِيَ الفُرْصَةُ ، فَطِرْتُ مُبْتَعِداً ، وَرَكَضْتُ على الطَّرِيقِ وَسْطَ الظَّلامِ . وَعلى ضَوْءِ أَوَّلِ وَميضٍ لِلْبَرْقِ رَأَيْتُ قارِباً غَيْرَ مَرْبوطٍ بِالضِّفَّةِ فَأَمْسَكْتُ بِهِ ، وَدَفَعْتُهُ بَعيداً . وَبَيْنَما كُنْتُ أَقْفِزُ عَلى سَطْحِ الرَّمَثِ أَخَذْتُ أُنادي : « أَطْلِقْهُ ، يا جيم ، لَقَدْ تَخَلَّصْنا مِنْهُما . »

وَقَفَزَ جيم ، وَاتَّجَهَ نَحْوي وَذِراعاهُ مَفْتوحَتانِ ، وَقَدْ غَمَرَهُ الفَرَحُ لِعَوْدَتي ، وَلَكِنَّني ما إِنْ أَبْصَرْتُهُ عَلى ضَوْءِ البَرْقِ حَتَّى قَفَزَ قَلْبي مِنْ فَمي رُعْباً ، وَسَقَطْتُ مِنْ فَوْقِ سَطْحِ الرَّمَثِ في الماءِ عَلى ظَهْري ، لَقَدْ نَسيتُ أَنَّهُ كانَ مُرْتَدِياً مَلابِسَ المَلِكِ لير ، وَمَلابِسَ الغَريقِ . وَقَدْ أَرْعَبَني مَنْظَرُهُ حَتّى المَوْتِ .

وَلكِنَّ جيم أَخْرَجَني مِنَ الماءِ ، وَكانَ موشِكاً أَنْ يَحْتَضِنَني وَأَنْ يُبارِكَني إِلى آخِرِ هَذِهِ الأُمورِ ، فَقَدْ كانَ فَرِحاً بِعَوْدَتي ، مَعَ تَخَلُّصِنا مِنَ المَلِكِ وَالدّوق .. وَلكِنَّني قُلْتُ لَهُ :

« لَيس الآنَ ، دَعْ هَذِهِ الأُمورَ حَتّى طَعامِ الإِفْطارِ ، وَانْطَلِقْ بِنا . »

وَلِذَلِكَ لَمْ تَمُرَّ ثانِيَتانِ حَتّى كُنّا نَبْتَعِدُ مُبْحِرينَ في عُرْضِ النَّهْرِ .

وَلَكِنَّني سَمِعْتُ بَعْدَ قَليلٍ صَوْتاً أَعْرِفُهُ جَيِّداً ، وَرَأَيْتُ عَلى ضَوْءِ

البَرْقِ – حينَ وَمَضَ – المَلِكَ وَالدوقَ يَنْحَنِيانِ على مِجْدافَيْهِما . وبَذَلْتُ أقصى ما يُمْكِنُني مِنْ جَهْدٍ حَتّى لا أصْرُخَ . وَعِنْدَما صَعِدا إلى سَطْحِ الرَّمْثِ أخَذَ المَلِكُ بِخِناقي وَجَعَلَ يَهُزُّني وَيَصيحُ بي : « تُحاوِلُ أنْ تُفْلِتَ مِنّا أيُّها الوَغْدُ ! »

قُلْتُ : « لا ، يا صاحِبَ الجَلالَةِ ، لَمْ نُحاوِلْ ذَلِكَ . أرْجوكَ ألا ... »

قالَ : « إذاً أسْرِعْ وَأخْبِرْنا ماذا كُنْتَ تَفْعَلُ وَإلّا نَزَعْتُ روحَكَ مِنْ جَسَدِكَ . »

قُلْتُ : « سَأُخْبِرُكَ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَبِكُلِّ أمانَةٍ . سَأُخْبِرُكَ ، يا صاحِبَ الجَلالَةِ . عِنْدَما وَجَدوا الذَّهَبَ ، هَمَسَ الرَّجُلُ الَّذي يُمْسِكُني قائِلاً : اجْرِ مِنْ هُنا وَإلّا فَإنَّهُمْ سَيَقْتُلونَكَ ، فَجَرَيْتُ . لَمْ أكُنْ أُريدُ أنْ أشْنَقَ ! »

قالَ المَلِكُ : « آهْ ، نَعَمْ ، مُحْتَمَلٌ جِدًّا . »

وأخَذَ يَهُزُّني مَرَّةً أُخْرى ، فَقالَ الدوقُ : « أطْلِقِ الغُلامَ . هَلْ سَأَلْتَ أنْتَ عَنْهُ حينَ أطْلِقَ سَراحُكَ ؟ ، إنَّني شَخْصِيًّا لَمْ أتَذَكَّرْهُ . »

وَهَكَذا أطْلَقَني المَلِكُ ، وَبَدَأ يَلْعَنُ تِلْكَ المَدينَةَ وَكُلَّ مَنْ فيها ، فَقالَ الدوقُ : « مِنَ الأفْضَلِ أنْ تَلْعَنَ نَفْسَكَ أنْتَ ! إنَّكَ لَمْ تَفْعَلْ

شَيْئًا لَهُ مَعْنًى مُنْذُ البِدايَةِ ، عَدا ما لَفَّقْتَهُ عَنْ تِلْكَ العَلامَةِ الخَيالِيَّةِ . لَقَدْ كانَتْ فِكْرَةُ السَّهْمِ الأزْرَقِ فِكْرَةً جَيِّدَةً أنْقَذَتْنا مِنَ المَوْتِ ، فَلَوْلا تِلْكَ الفِكْرَةُ لأمْسَكوا بِنا حَتّى يُحْضِروا أمْتِعَةَ الرَّجُلَيْنِ الإنجليزِيَّيْنِ ، ثُمَّ نُساقُ إلى السِّجْنِ . وَلَكِنَّ تِلْكَ الحيلَةَ ساقَتْهُمْ إلى المَقْبَرَةِ ، كَما أنَّ الذَّهَبَ أسْدى لَنا مَعْروفاً أكْبَرَ ؛ لأنَّهُ لَوْ لَمْ يُطْلِقِ الحَمْقى سَراحَنا مِنْ شِدَّةِ الانْفِعالِ الَّذي اسْتَوْلى عَلَيْهِمْ لالْتَفَّتِ الحِبالُ حَوْلَ عُنُقَيْنا هَذِهِ اللَّيْلَةَ . »

وَبَعْدَ قَليلٍ عِنْدَما أخْلَدا لِلنَّوْمِ أخْبَرْتُ جيم بِكُلِّ شَيْءٍ .

الفصلُ الثّالثَ عَشر

« أينَ جيم ؟ »

سِرْنا أيّاماً وَأيّاماً دونَ أنْ نَجسُرَ على التّوَقُّفِ ، وكُنّا في ذَلكَ الوَقْتِ نَتّجِهُ نَحْوَ الجنوبِ حَيْثُ يَزْدادُ الجوُّ دِفْئاً ، وَقَدِ ابْتَعَدْنا عَنْ مَوْطِنِنا مَسافاتٍ طَويلَةً .

وَ ماكادَ يُحِسُّ المُحْتالانِ بِابْتِعادِهِما عَنِ الخطَرِ حَتّى بَدَآ مَرّةً أخرى يَلْعَبانِ حِيلَهُما على القُرى الّتي كُنّا نَمُرُّ بِها .

في إحْدى القُرى ألْقَيا مَوْعِظَةً عَنْ مَضارِّ التّدْخينِ ، وَفي قَرْيَةٍ أخْرى أنْشَآ مَدْرَسَةً لِتَعْليمِ الرَّقْصِ ، رَغْمَ أنّهُما لَمْ يَكونا يَعْرِفانِ عَنِ الرَّقْصِ أكْثَرَ مِمّا يَعْرِفُهُ الحِمارُ ! وَقَدْ طَرَدَهُما الأهالي خارِجَ القَرْيَةِ . ثُمَّ حاوَلا مُمارَسَةَ الطِّبِّ ، وَالتّنَبُّؤَ بِالحَظِّ ، إلّا أنَّ الحَظَّ لَمْ يُحالِفْهُما .

وَأخيراً فَرَغَتْ جَعْبَتُهُما مِنَ النُّقودِ ، فَرَقَدا على الرَّمْثِ ، وَهُوَ

يَطفو على سَطْحِ الماءِ ، وَراحا يُمْعِنانِ الفِكْرَ ، وَقَدْ بَدا عَلَيْهِما الهَمُّ وَالخَوْفُ .

وَذاتَ صَباحٍ ، وَكانَ الوَقْتُ مُبَكّراً ، خَبّأنا الرَّمْثَ في مَكانٍ أمينٍ عَلى بُعْدِ ثَلاثَةِ كيلومِتْراتٍ مِنْ قَرْيَةٍ تُدْعى بايكسفيل ، وَطَلَبَ مِنّا المَلِكُ أنْ نَبْقى مُخْتَبِئَيْنِ حَتّى يَذْهَبَ فَيَرى إذا كانَ في هَذِهِ القَرْيَةِ مَنْ سَمِعَ عَنْ عَرْضِ « تُحْفَة مَلَكيَّة » ، وَقالَ إنَّهُ إذا لَمْ يَرْجِعْ حَتّى الظُّهْرِ فَإنَّ عَلَيْنا أنْ نُواصِلَ سَيْرَنا .

وَقَدْ سُرِرْتُ حينَ انْتَصَفَ النَّهارُ وَلَمْ يَظْهَرِ المَلِكُ ، فَالآنَ يُمْكِنُنا أنْ نُغَيِّرَ مِنْ أوْضاعِنا . وَهكَذا انْطَلَقْتُ أنا وَالدّوقُ إلى القَرْيَةِ ، إلّا أنّنا سَرْعانَ ما وَجَدْنا المَلِكَ يَتَرَنَّحُ وَلا يَكادُ يَسْتَطيعُ السَّيْرَ ، فَصَبَّ الدّوقُ عَلَيْهِ لَعَناتِهِ وَ وَصَفَهُ بِالأحْمَقِ العَجوزِ ، فَرَدَّ عَلَيْهِ المَلِكُ بِصِفاتٍ وَنُعوتٍ أفْضَلَ وَأحْسَنَ .

وَبَيْنَما كانا يَتَبادَلانِ السِّبابَ تَسَلَّلْتُ أنا مِنْ بَيْنِهِما وَرُحْتُ أعْدو في طَريقِ النَّهْرِ في سُرْعَةِ الوَعْلِ ؛ لأنّني رَأيْتُ فيما حَدَثَ فُرْصَتَنا لِلْخَلاصِ مِنْهُما . وَقَدْ صَمَّمْتُ عَلى ألا يَرَياني أنا وَجيم مَرَّةً أُخْرى.

وَ وَصَلْتُ إلى الرَّمْثِ وَقَدِ انْقَطَعَتْ مِنّي الأنْفاسُ ، وَأخَذْتُ أصيحُ : « أطْلِقْهُ يا جيم ، لَقَدْ تَحَرَّرْنا مِنْهُما .»

غَيْرَ أَنَّني لَمْ أَتَلَقَّ جواباً ؛ لَقَدْ ذَهَبَ جيم . وَأَخَذْتُ أَعْدو في الغابَةِ هُنا وَهُناكَ وَأَنا أَصْرُخُ وَأَصيحُ ، وَلَكِنْ دونَ جَدْوى ؛ لَقَدْ ذَهَبَ جيم العَجوزُ . وعِنْدَئِذٍ جَلَسْتُ ، وَغَلَبَني البُكاءُ ، فَبَكَيْتُ .

لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَبْقى ساكِناً فَتْرَةً طَويلَةً ، فَسِرْتُ في الطَّريقِ أُفَكِّرُ فيما يَجِبُ عَلَيَّ فِعْلُهُ . وَقابَلْتُ غُلاماً فَسَأَلْتُهُ عَمّا إذا كانَ قَدْ رَأى زِنْجِيّاً غَريباً يَلْبَسُ كَذا وَكَذا ، فَأَجابَ :

« نَعَمْ ، إِنَّهُ الآنَ في بَيْتِ سايلاس فيلبس عَلى بُعْدِ ثَلاثَةِ كيلومِتْراتٍ مِنْ هُنا . إِنَّهُ عَبْدٌ هارِبٌ وَقَد أَمْسَكوا بِهِ ، وَهُناكَ جائِزَةٌ قَدْرُها مِئَتا دُولارٍ لِمَنْ يَقْبِضُ عَلَيْهِ . »

سَأَلْتُهُ : « مَنْ أَمْسَكَ بِهِ ؟ »

رَدَّ : « رَجُلٌ عَجوزٌ غَريبٌ ، وَقَدْ باعَ نَصيبَهُ في الجائِزَةِ بِمَبْلَغِ أَرْبَعينَ دُولاراً ؛ لأَنَّهُ مُضْطَرٌّ لِلسَّفَرِ في النَّهْرِ ، وَلا يَسْتَطيعُ الانْتِظارَ . »

ذَهَبْتُ إِلى الرَّمْثِ وَجَلَسْتُ في المَأْوى أُفَكِّرُ .. أَ بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ الرِّحْلَةِ الطَّويلَةِ ، وَبَعْدَ كُلِّ ما فَعَلْنا مِن أَجْلِ هَذَيْنِ الوَغْدَيْنِ ، يَضيعُ كُلُّ شَيْءٍ ؟ لَقَدْ طاوَعَهُما قَلْباهُما وَلَعِبا عَلى جيم تِلْكَ الخُدْعَةَ القَذِرَةَ وَباعاهُ لِلْغُرَباءِ في مُقابِلِ أَرْبَعينَ دُولاراً حَقيرَةً .

وَرُحْتُ أَسْتَعْرِضُ في جِلْسَتي ما مَرَّ بي وَبِجيم مِنْ أَحْداثٍ ،

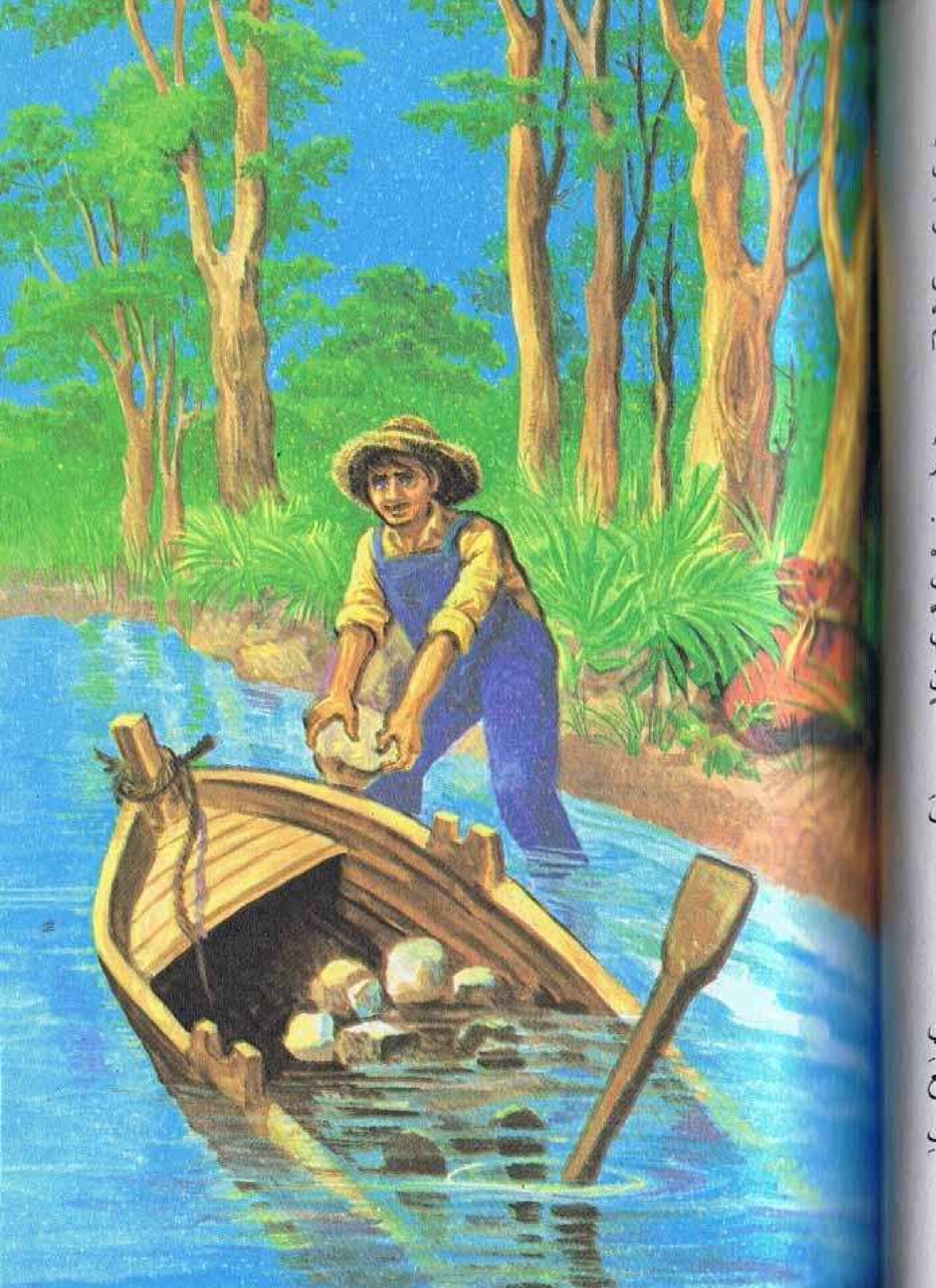
فَفَكَّرْتُ في رِحْلَتِنا في النَّهْرِ ، وَتَراءى لي جيم طَوالَ الوَقْتِ ، في اللَّيْلِ وَفي النَّهارِ ، تَحْتَ ضَوْءِ القَمَرِ ، وَسْطَ العَواصِفِ ، عَلى الرَّمْثِ سابِحَيْنِ في النَّهْرِ ، نَتَحَدَّثُ وَنُغَنّي وَنَضْحَكُ .

وَتَراءى لي جيم وَهُوَ يُواصِلُ الحِراسَةَ دونَ أَنْ يوقِظَني لِتَسَلُّمِ نَوْبَتي في الحِراسَةِ ؛ حَتّى أَسْتَطيعَ أَنْ أَسْتَغْرِقَ في نَوْمي . وَتَذَكَّرْتُهُ وَقَدْ غَمَرَتْهُ الفَرْحَةُ بِعَوْدَتي مِنْ حَيْثُ كانَتْ نيرانُ الثَّأْرِ تَؤُزُّ بَيْنَ الجانِبَيْنِ المُتَحارِبَيْنِ . وَتَذَكَّرْتُهُ وَهُوَ يُلاطِفُني وَيُدَلِّلُني وَيُناديني دائِماً بِعِبارَتِهِ اللَّطيفَةِ : « يا عَزيزي » .. وَتَذَكَّرْتُ كَيْفَ كانَ يَفْعَلُ كُلَّ ما بِوُسْعِهِ مِنْ أَجْلي ، وَكُلَّ ما يَظُنُّ أَنَّهُ في صالِحي .

وَأَخيراً تَذَكَّرْتُ الطَّريقَةَ الَّتي أَنْقَذْتُهُ بِها عِنْدَما أَخْبَرْتُ الرَّجُلَيْنِ أَنَّ لَدَيْنا مَرَضاً خَبيثاً عَلى سَطْحِ الرَّمْثِ ، وَرَنَّتْ في أُذُني كَلِماتُهُ الَّتي عَبَّرَ بِها عَنِ امْتِنانِهِ ، وَقَوْلُهُ لي إِنَّني أَفْضَلُ صَديقٍ في العالَمِ لِجيم العَجوزِ ، بَلْ وَصَديقُهُ الوَحيدُ .

وَمَرَّ وَقْتٌ وَأَنا مُسْتَغْرِقٌ في هَذا التَّفْكيرِ العَميقِ ، وَقَدْ حَبَسْتُ أَنْفاسي ، ثُمَّ قُلْتُ : « سَأَلْجَأُ لِلشَّرِّ مَرَّةً أُخْرى ، وَسَأَجْعَلُهُ سَبَباً لاسْتِعادَةِ جيم . »

وَبِمُجَرَّدِ حُلولِ الظَّلامِ تَسَلَّلْتُ بِالرَّمْثِ إِلى جَزيرَةٍ كَثيفَةِ



الأشْجارِ وَاسْتَغْرَقْتُ في النَّوْمِ . ونَهضْتُ قَبْلَ أنْ تُشْرِقَ الشَّمْسُ بِضَوْئِها ، وَتَناوَلْتُ إفْطاري ، وَارْتَدَيْتُ مَلابِسي ، وَرَبَطْتُ بَعْضَ الأشْياءِ في صُرَّةٍ ، وَأخَذْتُ الزَّوْرَقَ وَأبْحَرْتُ بِهِ ، ثُمَّ هَبَطْتُ مِنْهُ في مَكانٍ قَدَّرْتُ أنَّ بِهِ مَنْزِلَ فيلِبس ، فَخَبَّأْتُ صُرَّتي في الغابَةِ ، ثُمَّ أغْرَقْتُ الزَّوْرَقَ بِأنْ مَلأْتُهُ بِالأحْجارِ .

وَسِرْتُ في الطَّريقِ ، وَمَرَرْتُ بِمَتْجَرٍ ؛ مَكتوبٍ عَلَيْهِ « مَتْجَرُ فيلِبس » ، وَألْقَيْتُ عَلَيْهِ نَظْرَةً ، ثُمَّ انْطَلَقْتُ فى سَيْري نَحْوَ المَدينَةِ . وكانَ أوَّلُ رَجُلٍ أراهُ فيها هُوَ الدّوق . كانَ يَقومُ بِلَصْقِ إعْلانٍ عَنْ عَرْضٍ « تُحْفَة مَلَكِيَّة » لِمُدَّةِ لَيالٍ ثَلاثٍ ، فَقالَ لي وَهُوَ يَنْظُرُ إلَيَّ دَهِشاً : « مَرْحَباً ، مِنْ أيْنَ جِئْتَ ؟ أيْنَ الرَّمْثُ ؟ أ هُوَ في مَكانٍ أمينٍ ؟ »

قُلْتُ : « ماذا ؟ هَذا ما كُنْتُ سَأسْألُكَ عَنْهُ ، يا صاحِبَ السُّمُوِّ . »

قالَ : « وَما الَّذي يَدْفَعُكَ لِسُؤالي عَنْهُ ؟ »

قُلْتُ : « حَسَناً ، عِنْدَما رَأيْتُ المَلِكَ أمْسِ كانَ يَتَرَنَّحُ ، حَتَّى إنَّني قُلْتُ إنَّني لا يُمْكِنُني إحْضارُهُ لِلرَّمْثِ ، وَمِنْ ثَمَّ فَإنَّ أمامي بِضْعَ ساعاتٍ أقْضيها في المَدينَةِ . وهكَذا فَعَلْتُ ، ثُمَّ ذَهَبْتُ إلى الرَّمْثِ

بَعْدَ حُلولِ الظَّلامِ ، وَلكِنَّني عِنْدَما وَصَلْتُ إلى هُناكَ وَجَدْتُ أَنَّ الرَّمَثَ قَدِ اخْتَفى ، فَقُلْتُ في نَفْسي لَقَدْ واجَها بَعْضَ المَتاعِبِ وَاضْطُرّا لِلرَّحيلِ ، وَأَخَذا مَعَهُما جيم . وَجَلَسْتُ أَبْكي ، وَنِمْتُ في الغابَةِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ . وَلكِنْ ما الَّذي حَدَثَ لِلرَّمَثِ ؛ وَما الَّذي حَدَثَ لِجيم ؟ جيم المِسْكينِ ! »

قالَ الدّوقُ : « إنَّني لا أَعْرِفُ ماذا حَدَثَ لِلرَّمَثِ ؛ فَعِنْدَما أَعَدْتُ هَذا العَجوزَ الأَحْمَقَ لِلنَّهْرِ في اللَّيْلَةِ الماضِيَةِ ، وَجَدْتُ أَنَّ الرَّمَثَ قَدْ ذَهَبَ ، فَقُلْتُ إنَّ هَذا الوَغْدَ الصَّغيرَ قَدْ سَرَقَ رَمَثَنا وَانْطَلَقَ بِهِ في النَّهْرِ . »

قُلْتُ : « ما كانَ لي أَنْ أَهْرُبَ بِدونِ جيم . »

قالَ : « لَمْ أُفَكِّرْ إطْلاقًا في ذَلِكَ . هَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّ جيم سَيَشي بِنا ؟ سَنَسْلَخُ جِلْدَهُ لَوْ فَعَلَ ذَلِكَ . »

سَأَلْتُهُ : « كَيْفَ يَسْتَطيعُ أَنْ يَشِيَ بِكُما ؟ أَلَمْ يَهْرُبْ ؟ »

رَدَّ : « نَعَمْ ، هَذا العَجوزُ الأَحْمَقُ باعَهُ ، وَأَنْفَقَ الثَّمَنَ الَّذي قَبَضَهُ فيهِ . »

قُلْتُ : « باعَهُ ! » وَبَدَأْتُ أَبْكي وَأَنا أَقولُ : « أَيْنَ هُوَ ؟ أَيْنَ جيم ؟ أَنا أُريدُ جيم . »

قالَ الدّوقُ : « لا يُمْكِنُكَ أن تَصِلَ إِلَيْهِ ، نَحْنُ سَنَبْقى هُنا ثَلاثَةَ أَيامٍ ، فَإِذا وَعَدْتَني بِأَلا تُخْبِرَ أَحَدًا عَنّا ، وَلا تَجْعَلَ جيم يَشي بِنا فَسَأَدُلُّكَ عَلى مَكانِهِ . »

قُلْتُ لَهُ : « أَعِدُكَ بِذَلِكَ . »

قالَ : « مُزارِعٌ يُدْعى أبراهام فوستر هُوَ الَّذي أَخَذَ جيم ، وَهُوَ يَعيشُ في الرّيفِ عَلى بُعْدِ سِتّينَ كيلومِتْرًا ، في الطَّريقِ إلى لافاييت . »

كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّهُ يَكْذِبُ ، وَأَنَّهُ يُريدُ أَنْ يَتَأَكَّدَ مِنِ ابْتِعادي عَنْ طَريقِهِ طيلَةَ الأَيّامِ الثَّلاثَةِ .

قُلْتُ لَهُ : « حَسَنًا ، سَأَبْدَأُ الرَّحيلَ إِلَيْهِ الآنَ . »

وَسِرْتُ مُباشَرَةً في طَريقِ الرّيفِ مَسافَةَ كيلومِتْرٍ ، ثُمَّ عَمَدْتُ عائِدًا في طَريقي إلى مَنْزِلِ فيلبس .

الفصلُ الرّابعَ عشر

توم وسيد يَصِلان

عِنْدَما وَصَلْتُ إلى مَنْزِلِ فيلبس كانَ السُّكونُ يَسودُ المكانَ وَكَأنَّ اليَوْمَ يَوْمُ العُطْلَةِ الأسْبوعِيَّةِ ، فَقَدْ ذَهَبَ العُمّالُ إلى الحُقولِ وَلَمْ يَبْقَ أحَدٌ بِالبَيْتِ . وَتَسَلَّقْتُ السّورَ واتَّخَذْتُ طَريقي نَحْوَ المَطْبَخِ ، وَتَرَكْتُ لِلحَظِّ أنْ يُلْهِمَني بِالكَلِماتِ الَّتي يَنْبَغي أنْ أقولَها عِنْدَما يَحينُ الوَقْتُ لِذَلِكَ .

وَانْطَلَقَتْ مِنَ البَيْتِ امْرَأةٌ تَعْدو ، وَفي إثْرِها يَعْدو بَعْضُ الأطْفالِ. كانَتِ المَرْأةُ في نَحْوِ الخامِسَةِ وَالأرْبَعينَ مِنْ عُمْرِها ، وَكانَت تَبْتَسِمُ مِنْ مَنْبَتِ شَعْرِها إلى أخْمَصِ قَدَمَيْها ، وَقالَتْ لي : « أخيراً جِئْتَ .» وَأمْسَكَتْ بي ، وَضَمَّتْني إلَيْها بِشِدَّةٍ ثُمَّ عادَتْ تَقولُ : « إنَّكَ لا تُشْبِهُ أمَّكَ كَثيراً ، كَما كُنْتُ أظُنُّ ، لَكِنّي لا أعْبَأُ بِهَذا . إنَّني مَسْرورَةٌ لِرُؤْيَتِكَ . يا أوْلادُ ، هَذا ابنُ خالَتِكُمْ توم .. حَيّوهُ .»

وَلَكِنَّ الأطْفالَ وَضَعوا أصابِعَهُم في أفْواهِهِمْ ، وَتَوارَوْا خَلْفَ

أمِّهِمْ .

اتَّجَهَتِ المَرْأةُ نَحْوَ البَيْتِ وَهِيَ تَقودُني مِنْ يَدي ، وَالأطْفالُ يَقْتَفونَ أثَرَها . وَعِنْدَما وَصَلْنا أجْلَسَتْني في أحَدِ الكَراسِيِّ ، وَجَلَسَتْ هِيَ عَلى مَقْعَدٍ قُبالَتي ، وَأمْسَكَتْ بِيَدي وَقالَتْ : « وَالآنَ أسْتَطيعُ أنْ ألْقِيَ عَلَيْكَ نَظْرَةً فاحِصَةً . لَقَدْ كُنّا نَنْتَظِرُكَ . ما الَّذي جَعَلَكَ تَتَأخَّرُ ؟ هَلْ جَنَحَتِ السَّفينَةُ ؟»

قُلْتُ : « لَقَدْ تَعَطَّلَتِ المُحَرِّكاتُ ، يا سَيِّدَتي .»

قالَتْ : « لا تَقُلْ يا سَيِّدَتي ، قُلْ يا خالَتي سالي . عَمُّكَ يَذْهَبُ كُلَّ يَوْمٍ لِلْمَدينَةِ تَلَمُّساً لإحْضارِكَ .. وَقَدْ ذَهَبَ اليَوْمَ مُنْذُ ساعَةٍ . لا بُدَّ أنَّكَ قابَلْتَهُ في الطَّريقِ .. رَجُلٌ عَجوزٌ وَلَهُ ...»

قاطَعْتُها قائِلاً : « لا ، لَمْ أقابِلْ أحَداً ، يا خالَتي سالي .»

أخَذَ القَلَقُ يُساوِرُني لِدَرَجَةِ أنّني لَمْ أسْتَطِعْ أنْ أصْغِيَ إلَيْها جَيِّداً ، فَقَدْ كُنْتُ أريدُ أنْ أخْلُوَ بِالأوْلادِ وَأعْرِفَ مِنْهُمْ مَنْ أكونُ أنا ، وَلَكِنَّ الفُرْصَةَ لَمْ تَسْنَحْ لي ؛ فَقَدْ كانَتِ السَّيِّدَةُ فيلبس تَتَحَدَّثُ دونَ انْقِطاعٍ . وَقَدْ أخَذَتِ الرِّعْدَةُ البارِدَةُ تَسْري في أعْضائي حينَ قالَتْ: « وَلَكِنَّكَ لَمْ تُخْبِرْني شَيْئاً عَن أخْتي وَعَنِ الباقينَ . سَأريحُ لِساني قَليلاً ، لِتَتَحَدَّثَ أنْتَ ، أخْبِرْني كَيْفَ حالُهُمْ ؟ ما الَّذي قالوهُ لَكَ

لِتُخْبِرَني بِهِ ؟»

لَقَدْ وَقَفَ الحَظُّ بِجانِبي حَتّى هَذِهِ اللَّحْظَةِ ، إلّا أنَّني أشْعُرُ الآنَ أنَّني سَقَطْتُ مِن حالِقٍ على الأرْضِ ، وَفَتَحْتُ فَمي لأقولَ شَيْئًا ، وَلَكِنَّها أسْرَعَتْ وَخَبَّأتْني خَلْفَ الفِراشِ وَهِيَ تَقولُ :

« ها هُوَ قَدْ جاءَ . لا تَدَعْهُ يَعْرِفُ أنَّكَ هُنا . سَنَمْزَحُ مَعَهُ .»

وَلَمْ أرَ السَّيِّدَ العجوزَ إلّا لِثانِيَةٍ واحِدَةٍ فَقَطْ ، ثُمَّ حالَ الفِراشُ بَيْني وَبَيْنَ رُؤْيَتِهِ جَيِّدًا . وَسَألَتْهُ السَّيِّدَةُ فيلبس : « هَلْ جاءَ ؟ فَأجابها قائِلاً : « لا ، لا أسْتَطيعُ أنْ أتَصَوَّرَ ما الَّذي يُمْكِنُ أنْ يكونَ قَدْ حَدَثَ لَهُ . إنَّني قَلِقٌ جِدًّا .»

صاحَتِ السَّيِّدَةُ فيلبس قائِلَةً : « لا بُدَّ أنَّهُ قَدْ جاءَ ، وَأنْتَ لَمْ تَتَبَيَّنْهُ في الطَّريقِ . أعْرِفُ أنَّ هذا هُوَ ما حَدَثَ . شَيْءٌ في نَفْسي يُخْبِرُني بِذَلِكَ .»

قالَ زَوْجُها : « ماذا تَقولينَ ، يا سالي ؟ إنَّني لا يُمْكِنُني أنْ أخْطِئَهُ ، وَأنْتِ تَعْرِفينَ ذَلِكِ .»

قالَتْ زَوْجَتُهُ : « سايلاس ، اُنْظُرْ هُناكَ في الطَّريقِ . أ لَيْسَ هُناكَ شَخْصٌ قادِمٌ ؟»

قَفَزَ السَّيِّدُ فيلبس إلى النّافِذَةِ ، وفي هَذِهِ اللَّحْظَةِ جَذَبَتْني السَّيِّدَةُ

فيلبس ، وَأخْرَجَتْني مِن وَراءِ الفِراشِ . وَعِنْدَما اسْتَدارَ السَّيِّدُ العجوزُ كانَتْ هِيَ تَقِفُ هُناكَ وَقَدْ أضاءَ وَجْهُها فَرَحًا ، وَانْفَرَجَتْ شَفَتاها ابْتِسامًا ؛ عَلى حينِ كُنْتُ أقِفُ بِجِوارِها ذَليلاً ، أتَصَبَّبُ عَرَقًا . وَحَمْلَقَ السَّيِّدُ العَجوزُ وَصاحَ مُتَسائِلاً : « ماذا ؟ مَنْ هَذا ؟»

قالَتِ السَّيِّدَةُ فيلبس : « إنَّهُ توم سوير .»

كِدْتُ أغوصُ في الأرْضِ في الوَقْتِ الَّذي قَبَضَ فيهِ السَّيِّدُ العَجوزُ على يَدي يَهُزُّها وَيَهُزُّها مُصافِحًا ، على حينِ كانَتِ المَرْأةُ تَرْقُصُ حَوْلَنا ، وَتَضْحَكُ ، وَتَصيحُ . ثُمَّ أطْلَقَ الاثْنانِ سَيْلاً مِنَ الأسْئِلَةِ عَنْ سِيدْ وَماري وَبَقِيَّةِ العائِلَةِ .

وَلَمْ يَكُنْ شُعورُهُما بِالسُّرورِ يَتَساوى مَعَ ما أحْسَسْتُ بِهِ مِن سَعادَةٍ حينَ اكْتَشَفْتُ مَنْ أكونُ . لَقَدْ أحْسَسْتُ أنَّني وُلِدْتُ مِن جَديدٍ . وَقَدْ جَعَلاني أتَحَدَّثُ لِمُدَّةِ ساعَتَيْنِ مُتَواصِلَتَيْنِ ، فَأخْبَرْتُهُما الكَثيرَ عَمّا حَدَثَ لِعائِلَتي – أقْصِدُ عائِلَةَ سوير – وَذَلِكَ أكْثَرُ مِمّا يُمْكِنُ أنْ يَحْدُثَ لِستِّ عائِلاتٍ مِنْ مِثْلِ عائِلَةِ سوير .

وَقَدْ ظَلَّتِ الأمورُ تَسيرُ سَهْلَةً بَعْدَ أنْ أضْفَيا عَلَيَّ شَخْصِيَّةَ توم سوير ، إلى أنْ سَمِعْتُ صَوْتَ باخِرَةٍ آتِيَةٍ في النَّهْرِ ، فَقُلْتُ في نَفْسي : « ماذا لَوْ أنَّ توم سوير قَدْ جاءَ على هَذِهِ الباخِرَةِ ؟ وَماذا لَوْ جاءَ يَخْطو إلى هَذا المَنْزِلِ وَناداني بِاسْمي ؟ لا بُدَّ أنْ أخْرُجَ إلى

الطَّرِيقِ وَأُقابِلَهُ .»

وَهكَذا أَخْبَرْتُ العائِلَةَ أَنَّني يَجِبُ أَنْ أَذْهَبَ إِلى المَدِينَةِ لإِحْضارِ أَمْتِعَتي ، فاسْتَعَدَّ السَّيِّدُ العَجوزُ لِلذَّهابِ مَعي ، وَلكِنَّني أَخْبَرْتُهُ أَنَّني بِاسْتِطاعَتي قِيادَةَ الحِصانِ بِمُفْرَدي ، وَأَنَّني أُفَضِّلُ ألا يُتْعِبَ نَفْسَهُ مَعي .

وَهكَذا شَرَعْتُ في الذَّهابِ إِلى المَدِينَةِ في العَرَبَةِ ، وَعِنْدَما أَصْبَحْتُ في مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ رَأَيْتُ عَرَبَةً قادِمَةً .. وَخَمَّنْتُ أَنَّهُ توم سوير ؛ فانْتَظَرْتُ حَتّى حاذاني ، وَقُلْتُ لَهُ : « تَوَقَّفْ ! » فَفَغَرَ فاهُ ، وَابْتَلَعَ رِيقَهُ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثَ مَرّاتٍ كَأَنَّما جَفَّ حَلْقُهُ ، وَقالَ لي : « أَنا لَمْ أُسَبِّبْ لَكَ أَذًى . وَأَنْتَ تَعْرِفُ ذَلِكَ ، فَلِماذا تَعودُ وَتُضايِقُني ؟ »

قُلْتُ : « أَنا لَمْ أَعُدْ لأَنَّني لَمْ أَذْهَبْ .»

قالَ : « بِكُلِّ أَمانَةٍ ، أَلَسْتَ الآنَ شَبَحًا ؟ أَلَمْ تُقْتَلْ ؟ »

أَجَبْتُهُ قائِلاً : « نَعَمْ ، لَقَدْ خَدَعْتُهُمْ جَميعًا . اُدْنُ مِنّي وَالْمِسْني إِذا لَمْ تُصَدِّقْني .»

وَفَعَلَ كَما أَخْبَرْتُهُ ، وَاقْتَنَعَ بِقَوْلي ، وَتَمَلَّكَهُ السُّرورُ لِرُؤْيَتي لِدَرَجَةٍ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ مَعَها ماذا يَفْعَلُ . وَأَرادَ أَنْ يَعْرِفَ كُلَّ ما

حَدَثَ مَرَّةً واحِدَةً ؛ لإِحْساسِهِ بِأَنَّها كانَتْ مُغامَرَةً عَظيمَةً وَغامِضَةً . وَلكِنَّني أَخْبَرْتُهُ أَنَّني سَأَسْرُدُ عَلَيْهِ الحِكايَةَ فيما بَعْدُ .

وَشَرَحْتُ لَهُ المَوْقِفَ الصَّعْبَ الَّذي وَجَدْتُ نَفْسي فيهِ ، وَسَأَلْتُهُ عَنْ أَفْضَلِ شَيْءٍ يُمْكِنُنا فِعْلُهُ ، فَفَكَّرَ قَليلاً ثُمَّ قالَ : « لَقَدْ وَجَدْتُها ! خُذْ صُنْدوقي ، وَادَّعِ أَنَّهُ صُنْدوقُكَ ، وَتَمَهَّلْ في العَوْدَةِ إِلى البَيْتِ ، وَسَأَكونُ هُناكَ بَعْدَ رُبْعِ ساعَةٍ مِنْ وُصولِكَ . وَيُمْكِنُكَ أَنْ تَتَظاهَرَ في البِدايَةِ بِعَدَمِ مَعْرِفَتي .»

قُلْتُ : « حَسَنًا ، وَلكِنِ انْتَظِرْ .. ثَمَّةَ شَيْءٌ آخَرُ - شَيْءٌ لا يَعْرِفُهُ سِوايَ . ثَمَّةَ زِنْجِيٌّ أُحاوِلُ أَنْ أَسْرِقَهُ وَأُحَرِّرَهُ - جيم العَجوزُ خادِمُ الآنِسَةِ واطْسُن .»

صاحَ توم سويَر : « ماذا ؟ جيم ! »

قُلْتُ : « أَعْرِفُ ما سَتَقولُهُ ، سَتَقولُ إِنَّهُ عَمَلٌ حَقيرٌ ، وَلكِنِّي سَأَسْرِقُهُ ، وَلا أُريدُكَ أَنْ تَذْكُرَ شَيْئًا عَنْهُ .»

لَمَعَتْ عَيْنا توم وَقالَ : « سَأُساعِدُكَ في سَرِقَتِهِ .»

كانَ هذا أَغْرَبَ كَلامٍ سَمِعْتُهُ ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُصَدِّقَ أُذُنَيَّ . توم سوير يَسْرِقُ عَبْدًا آبِقًا !

وَضَعْنا الصُّنْدوقَ في عَرَبَتي ، وَسارَ في طَريقِهِ وَسِرْتُ في طَريقي .

وَبَعْدَ نِصْفِ ساعَةٍ وَصَلَتْ عَرَبَةُ توم عِنْدَ البَوّابَةِ الخارِجيَّةِ ، ورَأَتْها السَّيِّدَةُ سالي مِنَ النّافِذَةِ ، وَانْدَفَعَ كُلُّ مَنْ في البَيْتِ نَحْوَ البابِ الخارِجيِّ ، وَكانَ توم قَدْ دَخَلَ مِنَ البَوّابَةِ ، واتَّجَهَ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ نَحْوَ البَيْتِ . وَعِنْدَما وَصَلَ إلَيْنا رَفَعَ قُبَّعَتَهُ بِرَشاقَةٍ وَسَأَلَ : « هَلْ هَذا بَيْتُ السَّيِّدِ أرشيبالد نيكولز ؟»

رَدَّ السَّيِّدُ فيلبس : « لا ، يا وَلَدي . مَنْزِلُ نيكولز عَلى بُعْدِ خَمْسَةِ كيلومِتْراتٍ مِنْ هُنا . تَفَضَّلْ بِالدُّخولِ وَتَناوَلْ مَعَنا العَشاءَ ، وَبَعْدَها سَأَصْحَبُكَ إلى مَنْزِلِ نيكولز . »

شَكَرَهُمْ توم بِكُلِّ أَدَبٍ ، وَتَظاهَرَ بِالاقْتِناعِ بِما قالَهُ السَّيِّدُ فيلبس ، وَدَلَفَ وَهُوَ يَقولُ إنَّهُ غَريبٌ مِنْ مَدينَةِ هيكسڤيل بِوِلايَةِ أوهايو، وَإنَّ اسْمَهُ هو وليم تومبسون ، ثُمَّ انْحَنى مَرَّةً أُخْرى .

وَأَخَذَ يُثَرْثِرُ وَيُثَرْثِرُ ، وَقالَ كَلاماً كَثيراً عَنْ مَدينَةِ هيكسڤيل وَعَنْ كُلِّ شَخْصٍ فيها . وَبَيْنَما كانَ يُتابِعُ حَديثَهُ ، ذَهَبَ نَحْوَ الخالَةِ سالي وَقَبَّلَها ، ثُمَّ اسْتَمَرَّ في حَديثِهِ . وَلَكِنَّها قَفَزَتْ مِنْ مَكانِها ، وَمَسَحَتْ شَفَتَيْها بِظَهْرِ يَدِها ، وَصاحَتْ : « أَنْتَ أَيُّها الوَغْدُ الصَّغيرُ !»

قالَ توم وَقَدْ بَدا وَكَأَنَّهُ جُرِحَ مِنْ كَلامِها : « إنَّني دَهِشٌ مِنْكِ ، يا سَيِّدَتي !»

قالَتِ السَّيِّدَةُ سالي : « أَنْتَ مَنْ ؟ لِماذا ؟ مَنْ تَظُنُّني أكونُ ؟ إنَّ لَدَيَّ عَقْلاً واعِياً – ماذا تَقْصِدُ بِتَقْبيلِكَ إيّايَ ؟»

قالَ توم وَهُوَ يَبْدو مُتَواضِعاً : « لَمْ أَكُنْ أَقْصِدُ شَيْئاً ، يا سَيِّدَتي . لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّكِ تُحِبّينَ ذَلِكَ .»

وَبَدا واضِحاً أَنَّ السَّيِّدَةَ سالي كانَتْ تُحاوِلُ جاهِدَةً إبْقاءَ يَدَيْها بَعيدَةً عَنْهُ ، وَصاحَتْ : « أَيُّها الأَحْمَقُ ! ما الَّذي جَعَلَكَ تَظُنُّ أَنَّني أُحِبُّ ذَلِكَ ؟»

قالَ توم : « لا أَعْرِفُ . إنَّهُمْ هُمُ الَّذينَ أَخْبَروني أَنَّني يَجِبُ أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ .»

قالَتْ : « هُمْ أَخْبَروكَ ؟ مَنْ هُمْ ؟»

قالَ : « ماذا ؟ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ ، كُلُّهُمْ قالوا ذَلِكَ .»

قالَتْ : « مَنْ هُوَ كُلُّ واحِدٍ هَذا ؟ صَرِّحْ بِأَسْمائِهِمْ وَإلّا فَإنَّ عَدَدَ الحَمْقى في العالَمِ سَيَنْقُصُ واحِداً ! »

قالَ توم : « لَقَدْ قالوا كُلُّهُمْ قَبِّلْها ، وَقالوا إنَّها تُحِبُّ ذَلِكَ . وَلَكِنَّني أَعْتَذِرُ لَكِ ، يا سَيِّدَتي . لَنْ أُكَرِّرَها مَرَّةً أُخْرى حَتّى تَطْلُبي مِنّي ذَلِكَ .»

صاحَتِ السَّيِّدَةُ سالي : « حَتّى أَطْلُبَ مِنْكَ ؟ لَمْ أَسْمَعْ بِمِثْلِ

هَذا في حَياتي !»

أدارَ توم عَيْنَيْهِ فيما حَوْلَهُ ، كأنَّما يُريدُ أنْ تَلْتَقِيَ عَيْناهُ عَيْنَيْنِ تَحمِلانِ وِدًّا ، ثُمَّ استَقَرَّ بِعَيْنَيْهِ عَلَيَّ .

قالَ: « توم ، أ لا تَعْتَقِدُ أنَّ الخالَةَ سالي سَتَفتَحُ ذِراعَيْها مُرَحِّبَةً بِسيدْ سوير؟ »

قاطَعَتْهُ الخالَةُ سالي قائِلَةً : « لِيُبارِكْكَ اللّهُ أَيُّها الوَغْدُ الصَّغيرُ ! تَضْحَكُ عَلَيَّ بِهَذا الشَّكْلِ .» وَاتَّجَهَتْ نَحْوَهُ لِتَحْتَضِنَهُ وَلَكِنَّهُ أَبْعَدَها عَنْهُ قائِلاً :

« لا ، لَيْسَ قَبلَ أنْ تَطْلُبي مِنّي ذَلِكَ أَوَّلاً .» فَطَلَبَتْ مِنْهُ ذَلِكَ ، وَاحْتَضَنَتْهُ ، وَقَبَّلَتْهُ مِراراً وَهِيَ تَقولُ : « يا عَزيزي ، لَمْ تَكْتُبْ لي أُخْتي عَنْ قُدومِ شَخْصٍ آخَرَ .»

أجابَها : « كانَ توم هُوَ وَحْدَهُ الَّذي سَيَأتي ، غَيْرَ أَنَّها تَرَكَتْني آتي مَعَهُ في آخِرِ لَحْظَةٍ . وَقَدْ فَكَّرْنا أنا وَتوم أَنَّها رُبَّما تَكونُ مُفاجَأَةً مُدْهِشَةً لَوْ أَنَّهُ حَضَرَ أَوَّلاً ، ثُمَّ أَعْقُبُهُ أنا بَعْدَ ذَلِكَ ، وَأَتَظاهَرُ بِأَنَّني غَريبٌ . وَلَكِنْ ، يا خالَتي سالي ، هَذا لَيْسَ اسْتِقْبالاً طَيِّباً لِغَريبٍ .»

قالَتْ : « أَنْتَ عَلى صَوابٍ ، يا سيدْ . كانَ يَنْبَغي أنْ تُصفَعَ عَلى خَدَّيْكَ ! لَقَدْ أَزْعَجْتَني .»

وَدارَ حَديثٌ طَويلٌ عَلى الغَداءِ ، وَبَعْدَ العَصْرِ . وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ تَصْدُرْ مِنْهُمْ كَلِمَةٌ واحِدَةٌ عَنْ عَبْدٍ هارِبٍ ، غَيْرَ أَنَّ أَحَدَ الأَوْلادِ الصِّغارِ تَساءَلَ ، وَنَحْنُ نَتَناوَلُ العَشاءَ ، عَمّا إذا كانَ مِنَ المُمْكِنِ أنْ يَذْهَبَ هُوَ وَتوم وَسيد لِمُشاهَدَةِ العَرْضِ ، فَرَدَّ الرَّجُلُ العَجوزُ : « لا ، لَقَدْ أَخْبَرَنا العَبْدُ الهارِبُ – أنا وَبيرتون – بِكُلِّ شَيْءٍ عَنْ هَذا العَرْضِ الأَحْمَقِ . وَقالَ بيرتون إِنَّهُ سَيُخْبِرُ النّاسَ عَنْهُ ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّني أَعْتَقِدُ أَنَّ النّاسَ قَدْ قاموا الآنَ بِطَرْدِ الوَغْدَيْنِ مِنَ المَدينَةِ .»

إذاً هَكَذا الأَمْرُ ! وَلَمْ أَسْتَطِعْ أنْ أَمْنَعَ نَفْسي عَنْ مُساعَدَتِهِما . وكانَ مِنَ المَفْروضِ أنْ نَنامَ أنا وَتوم في غُرْفَةٍ واحِدَةٍ في الطّابَقِ الثّاني، فَصَعِدْنا إِلَيْها بَعْدَ العَشاءِ ، ثُمَّ تَسَلَّلْنا مِنَ النّافِذَةِ ، وَهَبَطْنا عَلى عَمودِ الإِنارَةِ ، وَاتَّخَذْنا طَريقَنا صَوْبَ المَدينَةِ سَريعاً ؛ لأَنَّني إذا لَمْ أُسْرِعْ وَأُحَذِّرِ المَلِكَ وَالدّوقَ فَإِنَّهُما سَيَقَعانِ في مَتاعِبَ جَمَّةٍ . وَفي الطَّريقِ أَخْبَرْتُ توم بِكُلِّ شَيْءٍ عَنْ رَفيقَيَّ في عَرْضِ « تُحْفَةٌ مَلَكِيَّةٌ » ، كَما أَخْبَرْتُهُ عَنْ رِحْلَةِ الرَّمَثِ قَدْرَ ما سَمَحَ الوَقْتُ بِذَلِكَ.

وَعِنْدَما وَصَلْنا إلى وَسَطِ المَدينَةِ كانَ هُناكَ جَمْعٌ حاشِدٌ مِنَ النّاسِ يَنْدَفِعونَ نَحْوَنا وَهُمْ يَحْمِلونَ المَشاعِلَ ، وَيَصْرُخونَ ، وَيَقْرَعونَ المَقالِيَ الصَّفيحَ ، وَيَنْفُخونَ في الأَبْواقِ . وَرَأَيْتُ أَنَّهُمْ جَعَلوا الدّوقَ وَالمَلِكَ يَجْلِسانِ عَلى قَضيبٍ مِنَ الحَديدِ ، وَقَدْ غَطَّوْهُما بِالقارِ وَريشِ

الطُّيورِ . وَاجْتاحَني حُزْنٌ شَديدٌ على هَذَيْنِ الصّاحِبَيْنِ ؛ فَقَدْ كانَ مَنْظَرُهُما يَدْعو لِلرِّثاءِ . ما أَقْسى الإنْسانَ على أَخيهِ الإنْسانِ !

لَقَدْ تَأَخَّرْنا كَثيراً فَلَمْ يَعُدْ بِوُسْعِنا أَنْ نَفْعَلَ شَيْئاً ، وَمِنْ ثَمَّ اتَّخَذْنا طَريقَنا عائِدَيْنِ إلى البَيْتِ . وَلَمْ أَعُدْ أَشْعُرُ بِالمَرَحِ كَما كُنْتُ مِنْ قَبْلُ ، بَلِ انْخَفَضَتْ روحي المَعْنَوِيَّةُ ، وَأَحْسَسْتُ بِاللَّوْمِ رَغْمَ أَنَّني لَمْ أُقَصِّرْ في شَيْءٍ .

الفَصْلُ الخامِسَ عَشَر

« سَنَحْفِرُ الأَرْضَ لِنُخْرِجَ جيم »

تَوَقَّفْنا عَنِ الحَديثِ وَبَدَأْنا في التَّفْكيرِ ، وَقالَ توم أخيراً : « أُنْظُرْ هُناكَ ، يا هَكْ . يا لَنا مِنْ أَحْمَقَيْنِ ! لِماذا لَمْ نُفَكِّرْ في هَذا مِنْ قَبْلُ ؟ أنا أَعْرِفُ مَكانَ جيم . إنَّهُ في ذَلِكَ الكوخِ المُجاوِرِ لِلْمَطْبَخِ . عِنْدَما كُنّا نَتَناوَلُ الغَداءَ ، أَلَمْ تُلاحِظْ رَجُلاً يَدْخُلُ إلى هُناكَ وَمَعَهُ بَعْضُ الطَّعامِ ؟»

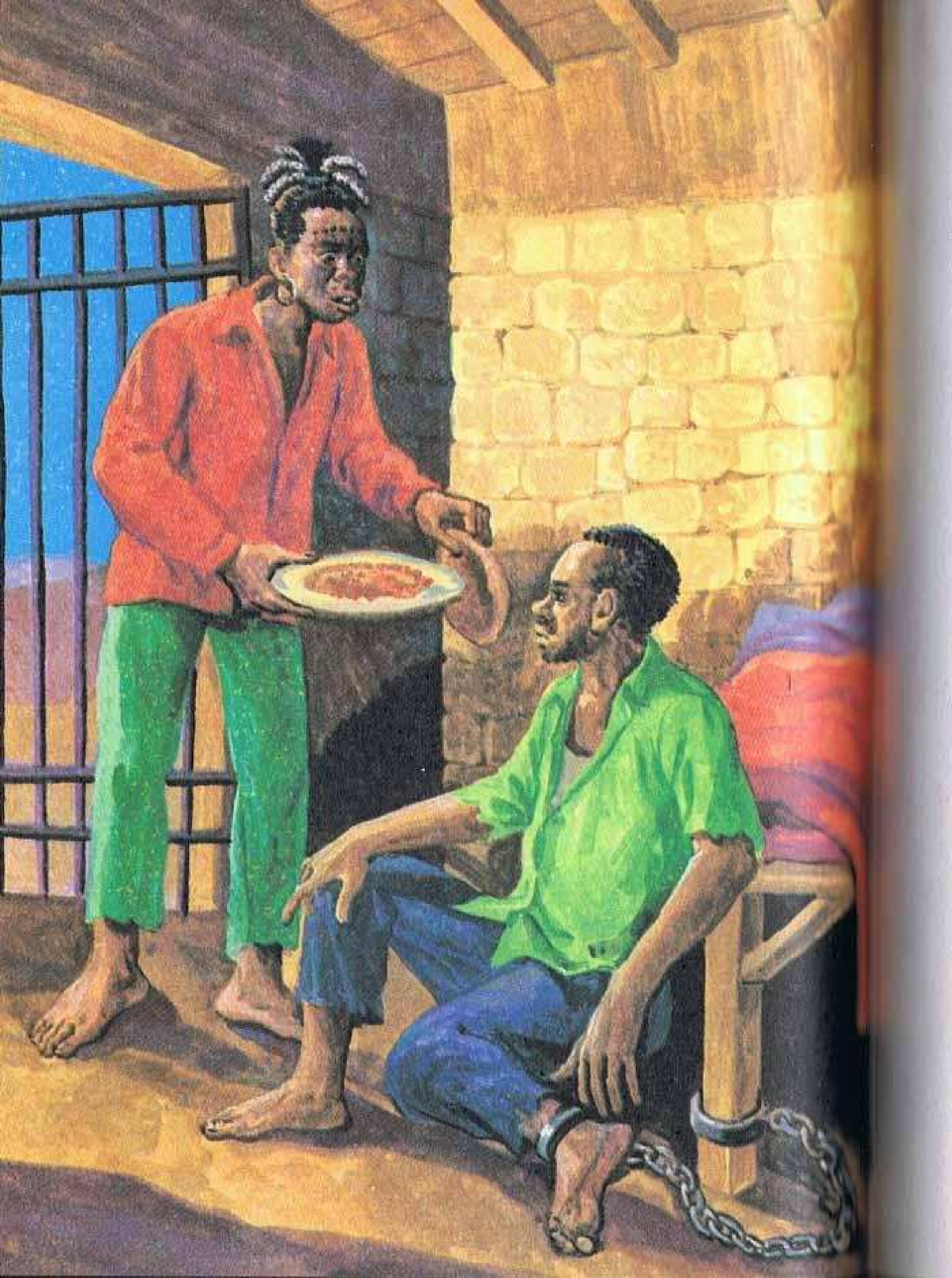
قُلْتُ : « بَلى .»

قالَ : « لِمَنْ تَعْتَقِدُ كانَ هَذا الطَّعامُ ؟»

قُلْتُ : « لِكَلْبٍ .»

قالَ : « وَكَذلِكَ كُنْتُ أَعْتَقِدُ أنا ، وَلَكِنَّ الطَّعامَ الَّذي كانَ مَعَ الرَّجُلِ لا يُمْكِنُ أَنْ يُقَدَّمَ لِكَلْبٍ .»

قُلْتُ : « لِماذا ؟»



قالَ : « لأنَّ جُزْءاً مِنْهُ كانَ فاكِهَةً . »

قُلْتُ : « نَعَمْ ، كانَ كَذَلِكَ . لَقَدْ لاحَظْتُها . ولكِنْ لَمْ يَخطرْ عَلى بالي أنَّ الكِلابَ لا تَأكُلُ الفاكِهَةَ . إنَّ هَذا يُوضِّحُ كَيْفَ أنَّ المَرْءَ يَرى وَلا يَرى في الوَقْتِ نَفْسِهِ . »

قالَ توم : « إنَّ الرَّجُلَ فَتَحَ البابَ حينَ دَخَلَ ، وأغْلَقَهُ بِالمِفْتاحِ عِنْدَما خَرَجَ ، وَأحْضَرَ إلى عَمّي مِفْتاحاً في الوَقْتِ نَفْسِهِ الَّذي كُنّا نَنْهَضُ فيهِ مِنْ عَلى المائِدَةِ . إنَّهُ المِفْتاحُ نَفْسُهُ الَّذي أغْلَقَ بِهِ البابَ وَأراهِنُ عَلى ذَلِكَ . الفاكِهَةُ تَدُلُّ عَلى أنَّ هُناكَ إنْساناً ، وَالقُفْلُ يَقولُ إنَّهُ سَجينٌ ، وَجيم هُوَ السَّجينُ ، وَالآنَ سَأضَعُ خُطَّةً لِتَحْريرِهِ . »

وَبَعْدَ فَتْرَةٍ أخْبَرَني توم بِخُطَّتِهِ ، فَتَمَعَّنْتُها لِمُدَّةِ دَقيقَةٍ ، ثُمَّ أدْرَكْتُ أنَّ خُطَّتَهُ رُبَّما تَنْجَحُ في تَحْريرِ جيم إلّا أنَّها – بِالإضافَةِ إلى ذَلِكَ – قَدْ تَتَسَبَّبُ في قَتْلِنا . شَيْءٌ واحِدٌ فَقَطْ في هَذِهِ الخُطَّةِ كانَ مُؤَكَّداً ، وَهُوَ أنَّ توم كانَ جادّاً ، وَكانَ عازِماً بِالفِعْلِ عَلى تَخْليصِ جيم . يا إلَهي ! غُلامٌ مِنْ عائِلَةٍ مُحْتَرَمَةٍ .. حَسَنُ التَّرْبِيَةِ ، يَتَوَرَّطُ في هَذا العَمَلِ ، وَيَجْلُبُ العارَ عَلى نَفْسِهِ وَعَلى أسْرَتِهِ قَبْلَ أيِّ شَخْصٍ آخَرَ ؟ لَمْ أسْتَطِعْ أنْ أفْهَمَ ذَلِكَ . كُنْتُ أعْرِفُ أنَّهُ يَنْبَغي عَلَيَّ أنْ أكونَ صَديقَهُ المُخْلِصَ ، وَمِنْ ثَمَّ فَإنَّ عَلَيَّ أنْ أُبْعِدَهُ عَنْ هَذا العَمَلِ ، وَأُنْقِذَهُ مِنَ التَّوَرُّطِ فيهِ . وَرُحْتُ أُخْبِرُهُ بِذَلِكَ ،

وَلكِنَّهُ أسْكَتَني قائِلاً : « هَلْ تَعْتَقِدُ أنَّني لا أعرِفُ ما أفْعَلُ ؟ ألَمْ أقُلْ لَكَ إنَّني سَوْفَ أساعِدُكَ في سَرِقَةِ جيم ؟ »

قُلْتُ : « بَلى . »

قالَ : « حَسَناً ، إذاً . »

وَهَبَطْنا إلى الكوخِ عَنْ طَريقِ المَطْبَخِ لِنُعايِنَهُ . وَكانَتِ الكِلابُ المَوْجودَةُ في الفِناءِ تَعْرِفُنا ، وَمِنْ ثَمَّ فَلَمْ تُطْلِقْ نُباحَها عَلَيْنا . وَألْقَيْنا نَظْرَةً عَلى الكوخِ مِنْ واجِهَتِهِ وَمِنْ جانِبَيْهِ ، فَوَجَدْنا عَلى الجانِبِ الشَّماليِّ نافِذَةً مُرْتَفِعَةً مُسَمَّراً عَلَيْها بِعَرْضِها لَوْحٌ سَميكٌ ، فَقُلْتُ لِتوم : « هَذِهِ الفُتْحَةُ كَبيرَةٌ ، تَكْفي لِكَيْ يَخْرُجَ مِنْها جيم لَوْ نَزَعْنا اللَّوْحَ . »

قالَ توم : « هَذا أمْرٌ سَهْلٌ . وَلَكِنّي آمُلُ في أنْ أجِدَ طَريقَةً أكْثَرَ تَعْقيداً مِنْ هَذِهِ ، يا هَكْ فِن . »

قُلْتُ : « حَسَناً إذاً ، ماذا لَوْ نَشَرْنا الكوخَ لِنُخْرِجَهُ بِنَفْسِ الطَّريقَةِ الَّتي فَعَلْتُها أنا قَبْلَ أنْ أُقْتَلَ . »

قالَ توم : « هَذا يُشْبِهُ ما أفَكِّرُ فيهِ ، وَهِيَ في الحَقيقَةِ طَريقَةٌ غامِضَةٌ وَشاقَّةٌ وَجَيِّدَةٌ ، وَلَكِنّي أُراهِنُ أنَّني سَأجِدُ طَريقَةً أطْوَلَ مِنْ هَذِهِ الطَّريقَةِ مَرَّتَيْنِ ! »

كانَتْ ثَمَّةَ بَيْنَ الكوخِ وَالسِّياجِ سَقيفَةٌ تَتَّصِلُ بِالكوخِ مِنَ السَّطْحِ ، وَكانَتْ مَصْنوعَةً مِنْ ألْواحِ الخَشَبِ ، وَتَتَساوى مَعَ الكوخِ في طولِها ، إلّا أنَّها أقَلُّ مِنْهُ عَرْضاً ، فَعَرْضُها يَبْلُغُ مِتْرَيْنِ فَقَطْ ، وَكانَ بابُها في النّاحِيَةِ الجَنوبِيَّةِ ، وَهُوَ مُغْلَقٌ بِالقُفْلِ .

اِبْتَعَدَ توم قَليلاً ، وَحينَ عادَ كانَتْ مَعَهُ قِطْعَةٌ مِنَ الحَديدِ اسْتَطاعَ أنْ يَكْسِرَ بِها القُفْلَ ، فَسَقَطَتِ السِّلْسِلَةُ ، وَمِنْ ثَمَّ اسْتَطَعْنا أنْ نَفْتَحَ البابَ ، وَأنْ نَدْخُلَ وَنُغْلِقَ البابَ خَلْفَنا . وَعِنْدَما أشْعَلْنا عودَ ثِقابٍ رَأيْنا أنَّ السَّقيفَةَ مُقامَةٌ عَلى الكوخِ ، وَكانَتْ أرْضِيَّتُها عارِيَةً ، وَلا يوجَدُ بِها سِوى بَعْضِ آلاتٍ قَديمَةٍ خاصَّةٍ بِالحَديقَةِ . وَأطْفَأْنا عودَ الثِّقابِ فَخَرَجْنا ، وَأعَدْنا القُفْلَ إلى البابِ كَما كانَ مِنْ قَبْلُ .

كانَ توم مَسْروراً جِدًّا ، وَقالَ : « إنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَلى ما يُرامُ . سَنَحْفِرُ لِنُخْرِجَ جيم ، وَسَيَسْتَغْرِقُ ذَلِكَ أسْبوعاً عَلى وَجْهِ التَّقْريبِ . »

وَتَوَجَّهْنا إلى البَيْتِ ، فَدَخَلْتُ أنا مِنَ البابِ الخَلْفِيِّ – إذْ لَمْ يَكونوا يُغْلِقونَ الأبْوابَ لَيْلاً – أمّا توم سوير فَقَدْ تَسَلَّقَ عَمودَ الإنارَةِ ؛ فَلَيْسَتْ هُناكَ طَريقَةٌ أخْرى تَتَناسَبُ مَعَ أفْكارِهِ . وَقَدِ اسْتَيْقَظْنا فَجْراً ، وَهَبَطْنا لِنَقومَ بِمُلاطَفَةِ الكِلابِ ، وَنَتَوَدَّدَ إلى الزِّنْجِيِّ الَّذي يَأْخُذُ الطَّعامَ إلى جيم ، وَكانَ في هَذا الوَقْتِ يَمْلأُ طَبَقاً بِالخُبْزِ وَاللَّحْمِ وَأشْياءَ أخْرى .

كانَتْ تَرْتَسِمُ عَلى سَحْنَةِ هَذا الزِّنْجِيِّ – وَاسْمُهُ نات – مَسْحَةٌ مِنَ الطِّيبَةِ . وَكانَ يَرْبُطُ شَعْرَهُ بِخَيْطٍ عَلى هَيْئَةِ عَناقيدَ حَتّى يُبْعِدَ عَنْهُ أعْمالَ السِّحْرِ . وَقَد قالَ إنَّ السّاحِراتِ سَبَّبْنَ لَهُ رُعْباً في اللَّيالي الماضِيَةِ ، وَجَعَلْنَهُ يَرى كُلَّ الأشْكالِ الغَريبَةِ ، وَأنْ يَسْمَعَ جَميعَ الكَلِماتِ وَالأصْواتِ الشّاذَّةِ .

وَسَألَهُ توم : « طَعامُ مَنْ هَذا ؟ »

اِبْتَسَمَ نات وَقالَ : « هَلْ تَوَدُّ أنْ تَأتِيَ مَعي وَتَرى بِنَفْسِكَ ؟ »

قالَ توم : « أجَلْ . »

وَذَهَبْنا مَعَهُ ، رَغْمَ أنَّ ذَلِكَ لَمْ يَرُقْ لي كَثيراً . وَهُناكَ وَجَدْنا جيم فَصاحَ حينَ رَآنا : « مَنْ ؟ هَكْ .. يا إلَهي ! أ لَيْسَ هَذا هُوَ السَّيِّدَ توم ؟ كانَ هَذا هُوَ ما أنْتَظِرُهُ ، فَلَمْ أكُنْ أعْرِفُ ماذا أفْعَلُ . »

قالَ نات : « يا رَبِّيَ الرَّحيمَ ، هَلْ يَعْرِفُكُما أيُّها السَّيِّدانِ ؟ »

نَظَرَ توم إلَيْهِ بِثَباتٍ ، وَقَدْ تَصَنَّعَ الدَّهْشَةَ ، وَقالَ : « مَنْ هُوَ الَّذي يَعْرِفُنا ؟ »

قالَ نات : « ماذا ؟ هَذا العَبْدُ الهارِبُ الَّذي يَجْلِسُ هُنا . »

قالَ توم : « لا أعْتَقِدُ أنَّهُ يَعْرِفُنا . »

قالَ نات : « أ لَمْ يُصَرِّحِ الآنَ بِأنَّهُ يَعْرِفُكُما ؟ »

نَظَرَ إلَيْهِ توم وَقَدْ عَلَتْهُ الحيرَةُ وَقالَ : « هَذا غَريبٌ جِدّاً . مَنْ هَذا الَّذي صَرَّحَ بِذَلِكَ ؟ وَبِماذا صَرَّحَ ؟ »

وَاسْتَدارَ نَحْوي وَقالَ بِهُدوءٍ شَديدٍ : « هَلْ سَمِعْتَ أحَداً يَتَكَلَّمُ الآنَ ؟ »

قُلْتُ : « لا ، لَمْ أسْمَعْ أحَداً يَتَفَوَّهُ بِشَيْءٍ . »

وَاسْتَدارَ توم إلى جيم وَنَظَرَ إلَيْهِ كَأنَّهُ لَمْ يَرَهُ قَطُّ مِنْ قَبْلُ وَقالَ: « هَلْ تَكَلَّمْتَ ؟ »

قالَ جيم : « لا ، يا سَيِّدي ، لَمْ أقُلْ شَيْئاً . »

قالَ توم : « هَلْ رَأيْتَنا مِنْ قَبْلُ ؟ »

قالَ جيم : « لا ، يا سَيِّدي ، لَمْ أرَكُما ، وَلا أعْرِفُ مَنْ تَكونانِ . » فاسْتَدارَ توم نَحْوَ نات ، وَكانَ آنَذاكَ يَبْدو مُرْتَبِكاً ، وَسَألَهُ : « ما الَّذي حَدَثَ لَكَ ، يا نات ؟ »

رَدَّ نات : « لا بُدَّ أنَّهُنَّ السّاحِراتُ المَلْعوناتُ ، يا سَيِّدي . أتَوَسَّلُ إلَيْكَ ألّا تُخْبِرَ أحَداً بِذَلِكَ ، وَإلّا وَبَّخَني السَّيِّدُ سايلاس ؛ لأنَّهُ لا يَعْتَقِدُ في وُجودِ السّاحِراتِ . »

أعْطاهُ توم قِطْعَةً مِنَ النُّقودِ ، وَقالَ لَهُ إنَّهُ لَنْ يُخْبِرَ أحَداً . وَبَيْنَما كانَ نات يَخْطو نَحْوَ البابِ وَيُنْعِمُ النَّظَرَ في قِطْعَةِ النُّقودِ ، وَيَعَضُّها بِأسْنانِهِ لِيَتَأكَّدَ مِنْ أنَّها غَيْرُ مُزَيَّفَةٍ ، هَمَسَ توم في أُذُنِ جيم بِقَوْلِهِ : « تَظاهَرْ بِأنَّكَ لا تَعْرِفُنا ، وَإذا سَمِعْتَ أصْواتَ حَفْرٍ أثْناءَ اللَّيْلِ فاعْلَمْ أنَّنا نَحْنُ اللَّذانِ نَحْفِرُ . سَنُخْرِجُكَ مِنْ هُنا ، وَنُطْلِقُ سَراحَكَ . »

الفَصْلُ السّادِسَ عَشَر

ابْتِداءُ المَصاعِبِ

كانَتْ لا تَزالُ أمامَنا ساعَةٌ حَتّى يَحينَ مَوْعِدُ الإفْطارِ ، وَلِذَلِكَ ذَهَبْنا إلى الغابَةِ ؛ لِلْبَحْثِ عَنْ مَصْدَرٍ لِلضَّوْءِ نَحفِرُ على هُداهُ ، لأنَّنا لَوْ أحْضَرْنا فانوساً فَإنَّ نورَهُ القَوِيَّ سَيُسَبِّبُ لَنا المَتاعِبَ . وَفي الغابَةِ جَمَعْنا حُزْمَةً مِنْ ذَلِكَ النَّباتِ الفُطْرِيِّ المُسَمّى سِراجَ الغولَةِ ، وَهُوَ نَباتٌ يَنْبَعِثُ مِنْهُ وَميضٌ في الظَّلامِ . وَخَبَّأنا هَذِهِ الحُزْمَةَ ، ثُمَّ جَلَسْنا نَسْتَريحُ .

قالَ توم : « اللَّعْنَةُ ! إنَّ الأمْرَ بِرُمَّتِهِ سَهْلٌ وَتافِهٌ ، وَهَذا لا يَدْفَعُكَ لِوَضْعِ خُطَطٍ صَعْبَةٍ . كانَ يَنْبَغي أنْ يوجَدَ حارِسٌ عَلى بابِ الكوخِ المَسْجونِ فيهِ جيم حَتّى نَضَعَ لَهُ مُخَدِّراً لِيَنامَ ؛ بَلْ إنَّهُ لا يوجَدُ حَتّى كَلْبٌ لِنَجْعَلَهُ يَصْمُتُ عَنِ النُّباحِ . أمّا جيم فَإنَّهُ مُقَيَّدٌ مِنْ رِجْلٍ واحِدَةٍ بِسِلْسِلَةٍ مَرْبوطَةٍ في قائِمَةِ فِراشِهِ . وَكُلُّ ما عَلَيْكَ أنْ تَفْعَلَهُ هُوَ أنْ تَرْفَعَ الفِراشَ فَتَنْزَلِقَ السِّلْسِلَةُ ، كَما أنَّ العَمَّ سايلاس يَثِقُ بِأيِّ شَخْصٍ ، وَيُرْسِلُ المِفْتاحَ إلى نات وَلا يُرْسِلُ خَلْفَهُ مَنْ يُراقِبُهُ .

لِماذا ؟ هَذا أمرٌ مُخيبٌ لِلآمالِ ، يا هك ! إنَّ عَلَيْكَ أنْ تَبْتَدِعَ جَميعَ المَصاعِبِ . حَسنًا ، سَنَبْذُلُ أقْصى ما نَسْتَطيعُ بِما تَوَفَّرَ لنا وَبِما أحْضَرْنا مِن مَوادَّ وَآلاتٍ . وَالآنَ ، وَبَيْنما أنا أفكِّرُ في هَذا الأمْرِ ، هَيّا بِنا نُفَتِّشْ عَنْ شَيْءٍ نَصْنَعُ مِنْهُ مِنْشاراً . »

قُلْتُ : وَفيمَ تُريدُ المِنْشارَ ؟ »

قالَ مُتَعَجِّبًا : « فيمَ أريدُ المِنْشارَ ؟! أ لَنْ نَنْشُرَ قائِمَةَ سَريرِ جيم حَتّى تَسْقُطَ السِّلْسِلَةُ ؟»

قُلْتُ : « لَقَدْ قُلْتَ مُنْذُ قَليلٍ إنَّ ما عَلى المَرْءِ سِوى أنْ يَرْفَعَ الفِراشَ فَتَسْقُطَ السِّلْسِلَةُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِها .»

قالَ : « ماذا ، يا هَكْ فِن ؟ أ لَمْ تَقْرَأْ أيَّةَ كُتُبٍ عَلى الإطْلاقِ ؟ مَنْ سَمِعَ عَنْ إطْلاقِ سَجينٍ بِمِثْلِ هَذِهِ الطَّريقَةِ الطُّفوليَّةِ ؟ لا . إنَّ الطَّريقَةَ الَّتي يَتَّبِعُها جَميعُ الخُبَراءِ هِيَ نَشْرُ قائِمَةِ السَّريرِ إلى قِطْعَتَيْنِ ، وَابْتِلاعُ نُشارَةِ الخَشَبِ حَتّى لا يُعْثَرَ عَلَيْها ، وَ وَضْعُ بَعْضِ الشَّحْمِ وَالقاذوراتِ حَوْلَ الجُزْءِ المَنْشورِ حَتّى لا يَسْتَطيعَ أحَدُ الحُرّاسِ أنْ يَرى أيَّةَ عَلامَةٍ لِلنَّشْرِ ، وَيَحْسَبَ أنَّ قائِمَةَ السَّريرِ سَليمَةٌ صَحيحَةٌ .. وما عَلَيْكَ ، في اللَّيْلَةِ الَّتي تَكونُ فيها جاهِزاً لِلْهَرَبِ ، سِوى أنْ تَضْرِبَ القائِمَةَ بِرِجْلِكَ فَتَنْهارَ ، فَتَسْقُطَ

السِّلْسِلَةُ وَتَتَحَرَّرَ . وَما عَلَيْكَ بَعْدَ ذَلِكَ إلّا أنْ تُثَبِّتَ سُلَّمَ الحِبالِ في أعْلى الجِدارِ ، وَتَتَسَلَّلَ عَلَيْهِ هابِطًا لأسْفَلَ ، فَتَكْسِرَ رِجْلَكَ في الخَنْدَقِ لأنَّ سُلَّمَ الحِبالِ كَما تَعْرِفُ قَصيرٌ ، يَبْلُغُ طولُهُ سِتَّةَ أمْتارٍ فَقَطْ – وَهُناكَ سَتَجِدُ جِيادَكَ وَخَدَمَكَ المُخْلِصينَ في انْتِظارِكَ ، فَيَنْتَشِلونَكَ وَيُلْقونَ بِكَ عَلى سَرْجِ الجَوادِ ، فَيَنْطَلِقُ بِكَ بَعيداً إلى حَيْثُ مَوْطِنُكَ في لانْغدوك أوْ ناڤار ، أوْ إلى حَيْثُما كانَ هَذا المَوْطِنُ . إنَّهُ عَمَلٌ عَظيمٌ ، يا هَكْ . أتَمَنّى لَوْ كانَ ثَمَّ خَنْدَقٌ حَوْلَ هَذا الكوخِ . لَوْ تَيَسَّرَ لَنا وَقْتٌ فَسَنَحْفِرُ خَنْدَقًا في لَيْلَةِ الهَرَبِ .»

قُلْتُ : « وَفيمَ تُريدُ الخَنْدَقَ إذا كُنّا سَنَسْرِقُهُ مِنْ تَحْتِ الكوخِ ؟» وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْمَعْني إطْلاقًا ، فَقَدْ كانَ يَتَطَلَّعُ بِعَيْنَيْهِ نَحْوَ الأفُقِ البَعيدِ. وَبَعْدَ قَليلٍ تَنَهَّدَ وَهَزَّ رَأسَهُ ، وَقالَ : « لا ، لَنْ يَصْلُحَ ، لَيْسَ ضَروريًّا عَلى الإطْلاقِ .»

قُلْتُ : « ما هُوَ ؟»

قالَ : « أنْ تَنْشُرَ رِجْلَ جيم .»

صِحْتُ فيهِ : « يا إلَهي ! بِالطَّبْعِ لَيْسَ ضَروريًّا . وَلِماذا تُريدُ نَشْرَ رِجْلِهِ ؟»

قالَ : « بَعْضُ الخُبَراءِ فَعَلَها ؛ فَقَدْ فَشِلَ في إسْقاطِ السِّلْسِلَةِ

فَقَطَعَ يَدَهُ وَانْطَلَق هارِباً . وَقَطْعُ الرِّجْلِ أَفْضَلُ مِنْ قَطْعِ اليَدِ ، وَلكِنَّ جيم لَنْ يَفْهَمَ أَسْبابَ ذَلِكَ ، وَلَنْ يَفْهَمَ أَنَّ هَذِهِ هِيَ العادَةُ المُتَّبَعَةُ في أُورُبّا ، وَلِذَلِكَ لَنْ نَفْعَلَها . غَيْرَ أَنَّ هُناكَ شَيْئاً واحِداً – لا بُدَّ أَنْ يَكونَ مَعَهُ سُلَّمٌ مِنَ الحِبالِ . نَسْتَطيعُ أَنْ نُمَزِّقَ قُمْصانَنا وَنَصْنَعَ لَهُ واحِداً بِكُلِّ سُهولَةٍ ، ثُمَّ نُرْسِلَهُ لَهُ في إِحْدى الفَطائِرِ .. هَذِهِ هِيَ الطَّريقَةُ الَّتي يَتِمُّ بِها إِرْسالُ السُّلَّمِ في الغالِبِ ، وَلَقَدْ أَكَلْتُ فَطائِرَ أَسْوَأَ مِنْ هَذِهِ بِكَثيرٍ .»

قُلْتُ : « عَمَّ تَتَحَدَّثُ ! يا توم سوير ؟ إِنَّ جيم لَنْ يَسْتَفيدَ إِطْلاقاً مِنْ سُلَّمِ الحِبالِ .»

قالَ ساخِراً : « عَمَّ أَتَحَدَّثُ ؟ مِنَ الأَوْلى أَنْ تَقولَ إِنَّكَ لا تَعْرِفُ شَيْئاً . يَجِبُ أَنْ يَكونَ مَعَهُ سُلَّمٌ مِنَ الحِبالِ ؛ فَالكُلُّ يَفْعَلُ هَذا .»

سَأَلْتُهُ : « بِاللهِ ماذا يُمْكِنُهُ أَنْ يَفْعَلَ بِهِ ؟»

قالَ ساخِراً : « يَفْعَلُ بِهِ ! يَسْتَطيعُ أَنْ يُخَبِّئَهُ في فِراشِهِ . أ لا يَسْتَطيعُ ذَلِكَ ؟ كُلُّهُمْ يَفْعَلونَ ذَلِكَ . لِنَفْرِضْ أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ بِهِ شَيْئاً ، أ لَنْ يَعْثُروا عَلَيْهِ في فِراشِهِ بَعْدَ أَنْ يَهْرُبَ ، وَمِنْ ثَمَّ يَكونُ دَليلاً عَلى هُروبِهِ ؟ وَأَنْتَ ، أ لا تَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ يَحْتاجونَ لِأَدِلَّةٍ تُرْشِدُهُمْ إِلَيْهِ ؟ بِالطَّبْعِ سَيَحْتاجونَ .»

قُلْتُ : « حَسَناً ، يا توم ، وَلكِنَّنا إِذا مَزَّقْنا قُمْصانَنا فَإِنَّنا سَنَدْخُلُ في مَتاعِبَ مَعَ الخالَةِ سالي . دَعْني أَنْتَشِلْ مُلاءَةَ سَريرٍ مِنْ على حَبْلِ الغَسيلِ .»

وافَقَ على اقْتِراحي ، كَما أَنَّ هَذا الاقْتِراحَ أَوْحى إِلَيْهِ بِفِكْرَةٍ أُخْرى ، فَقالَ : « انْتَشِلْ قَميصاً أَيْضاً ، يا هَكْ .»

قُلْتُ : « وَفيمَ تُريدُ القَميصَ ، يا توم ؟»

قالَ : « حَتّى يُسَجِّلَ عَلَيْهِ جيم ذِكْرَياتِهِ .»

قُلْتُ : « جيم لا يَعْرِفُ الكِتابَةَ .»

قالَ : « يَسْتَطيعُ أَنْ يَصْنَعَ عَلاماتٍ عَلى القَميصِ ، أ لا يَسْتَطيعُ ذَلِكَ لَوْ صَنَعْنا لَهُ ريشَةً لِلْكِتابَةِ مِنْ إِحْدى المَلاعِقِ القَديمَةِ ، أَوْ مِنْ قِطْعَةِ حَديدٍ قَديمَةٍ ؟»

قُلْتُ : « وَلِمَ كُلُّ هَذا ، يا توم ؟ نَسْتَطيعُ أَنْ نَنْزِعَ لَهُ ريشَةً مِنْ أَحَدِ الطُّيورِ فَتُصْبِحَ ريشَةَ كِتابَةٍ أَفْضَلَ مِنْ تِلْكَ الَّتي تَقْتَرِحُها ، وَفي وَقْتٍ أَسْرَعَ أَيْضاً .»

قالَ : « السُّجَناءُ لَيْسَ لَدَيْهِمْ طُيورٌ تَطيرُ حَوْلَهُمْ حَتّى يَنْزِعوا ريشَها ، أَيُّها الغَبِيُّ ! إِنَّهُمْ يَصْنَعونَ ريشَ الكِتابَةِ دائِماً مِنْ شَمْعِدانٍ نُحاسِيٍّ قَديمٍ ، أَوْ مِنْ شَيْءٍ شَبيهٍ بِهِ . وَهُمْ يَسْتَغْرِقونَ شُهوراً وَشُهوراً

في تَشْكيلِها – وَهُمْ مُضْطَرّونَ لِذلِكَ – فَيُشكِّلونَها بِحَكِّها على الجِدارِ . وَحتّى لَوْ وَجَدوا ريشَةَ طائِرٍ فَإِنَّهُمْ لا يَسْتَعْمِلونَها ؛ لأَنَّ هَذا غَيْرُ مَألوفٍ .»

قُلْتُ : « حَسَناً ، وَلكِنْ مِمَّ سَنَصْنَعُ لَهُ الحِبْرَ ؟»

قالَ : « الكَثيرُ مِنَ السُّجَناءِ يَصْنَعونَه مِنْ صَدَإِ الحَديدِ مُذاباً في دُموعِهِمْ . وَلكِنَّ هَذا هُوَ النَّوْعُ الشّائِعُ الَّذي تَصْنَعُهُ النِّساءُ . أَمّا الخُبَراءُ فَيَسْتَعْمِلونَ دِماءَهُمْ ، وَباسْتِطاعَةِ جيم أَنْ يَصْنَعَ مِثْلَهُمْ ، فَعِنْدَما يُريدُ أَنْ يُرْسِلَ رِسالَةً مِنْ تِلْكَ الرَّسائِلِ المَعْروفَةِ الَّتي تَتَّسِمُ بِالغُموضِ ، لِكَيْ يَجْعَلَ العالَمَ يَعْرِفُ مَكانَ سِجْنِهِ ، يَسْتَطيعُ أَنْ يَكْتُبَها بِشَوْكَةٍ على قَعْرِ طَبَقٍ مِنَ الصَّفيحِ ، وَيُلْقيَهُ مِنَ النّافِذَةِ . لَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ القِناعُ الحَديدِيُّ . وَهِيَ طَريقَةٌ رائِعَةٌ .»

قُلْتُ لَهُ : « جيم لَيْسَ لَدَيْهِ أَطْباقٌ مِنَ الصَّفيحِ .»

قالَ : « هَذِهِ لَيْسَتْ مُشْكِلَةً . نَسْتَطيعُ أَنْ نُحْضِرَ لَهُ بَعْضَ الأَطْباقِ .»

قُلْتُ : « لا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ أَنْ يَقْرَأَ أَطْباقَهُ .»

قالَ : « هَذا لا عَلاقَةَ لَهُ بِالأَمْرِ ، يا هَكْ فِن . كُلُّ ما عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَهُ هُوَ أَنْ يَكْتُبَ على الطَّبَقِ ، وَيُلْقيَهُ خارِجاً . وَلا عَلَيْكَ إِذا

كُنْتَ لا تَقْدِرُ على قِراءَتِهِ ، فَأَنْتَ لَنْ تَسْتَطيعَ أَنْ تَقْرَأَ نِصْفَ ما يُدَوِّنُهُ السُّجَناءُ على الأَطْباقِ ، أَوْ على أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ .»

قُلْتُ : « إِذاً ما الفائِدَةُ وَما المَغْزى مِنْ تَضْييعِ الأَطْباقِ ؟»

قالَ : « اللَّعْنَةُ ! إِنَّها لَيْسَتْ أَطْباقَ السَّجينِ .»

قُلْتُ : « وَلكِنَّها أَطْباقُ شَخْصٍ آخَرَ ، أَ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟»

قالَ : « لِنَفْرِضْ أَنَّها كَذَلِكَ ، فَماذا يُهِمُّ السَّجينَ أَنْ تَكونَ مِلْكَ ...»

وَتَوَقَّفَ عَنِ الكَلامِ فَجْأَةً لأَنَّنا سَمِعْنا نَفيرَ طَعامِ الإِفْطارِ يَنْطَلِقُ ، فَأَسْرَعْنا إِلى المَنْزِلِ .

وَفي ذَلِكَ الصَّباحِ اِنْتَشَلْتُ مُلاءَةَ سَريرٍ وَقَميصاً أَبْيَضَ مِنْ على حَبْلِ الغَسيلِ ، وَ وَضَعْتُهُما في حَقيبَةٍ قَديمَةٍ . وَذَهَبْنا نَبْحَثُ عَنْ نَباتِ سِراجِ الغولَةِ ، وَكَما وَجَدْناهُ وَضَعْناهُ في الحَقيبَةِ القَديمَةِ أَيْضاً . وانْتَظَرْنا حَتّى أَصْبَحَ الفِناءُ شاغِراً ، ثُمَّ حَمَلَ توم الحَقيبَةَ إِلى السَّقيفَةِ ، على حينِ كُنْتُ أَنا أُراقِبُ المَكانَ .

قالَ توم حينَ غادَرَ السَّقيفَةَ : « كُلُّ شَيْءٍ الآنَ على ما يُرامُ ، عَدا الأَدَواتِ الَّتي سَنَحْفِرُ بِها لِنُخْرِجَهُ .»

سَألْتُه : « أ لَيْسَتِ الأدواتُ القَديمةُ المَوْجودَةُ في السَّقيفَةِ كافيَةً لِهَذا الغَرَضِ؟ »

قالَ : « هَكْ فِن ، هَلْ سَمِعْتَ في حَياتِكَ عَنْ سَجينٍ لَدَيْهِ مَعاوِلُ وَمَجارِفُ ؟ إذاً كانَ مِنَ الأجْدَرِ أنْ يُعْطوهُ مِفْتاحَ زِنْزانَتِهِ ! »

قُلْتُ : « حَسَناً إذاً ، إذا لَمْ نَكُنْ في حاجَةٍ لِلْمَعاوِلِ والمَجارِفِ فَبِماذا نَحْفِرُ ؟ »

قالَ : « بِسِكّينَتَيْنِ . »

قُلْتُ : « اللَّعْنَةُ ! هَذا هُوَ الحُمْقُ بِعَيْنِهِ ، يا توم ! »

قالَ : « لا يُهِمُّ إذا كانَ هَذا حُمْقاً أوْ لا ، وَلَكِنَّهُمْ يَحْفِرونَ بِالسَّكاكينِ ، وَلا يَحْفِرونَ في الأرْضِ ، بَلْ يَحْفِرونَ في الصَّخْرِ الأصَمِّ . وَيَسْتَغْرِقُ مِنْهُمْ هَذا العَمَلُ أسابيعَ وَأسابيعَ . لِماذا نَذْهَبُ بَعيداً ؟ اُنْظُرْ إلى أحَدِ هَؤلاءِ السُّجَناءِ ؛ لَقَدْ كانَ مَسْجوناً في قَلْعَةِ « ديف » في ميناء مارسيليا ، وَخَرَجَ مِنْها عَنْ طَريقِ الحَفْرِ بِهَذِهِ الطَّريقَةِ . كَمْ تَظُنُّ اسْتَغْرَقَ مِنْهُ هَذا الحَفْرُ ؟ »

قُلْتُ : « لا أعْرِفُ . رُبَّما شَهْراً وَنِصْفاً ؟ »

قالَ : « سَبْعاً وَثَلاثينَ سَنَةً – وَقَدْ خَرَجَ في الصّينِ . هَذا هُوَ العَمَلُ . أتَمَنّى لَوْ كانَتْ هَذِهِ القَلْعَةُ – أقْصِدُ هَذا الكوخَ – مَبْنِيَّةً

عَلى صَخْرٍ أصَمَّ . »

قُلْتُ : « جيم لا يَعْرِفُ أحَداً في الصّينِ . »

قالَ : « وَما عَلاقَةُ هَذا بِالأمْرِ ؟ وَلا الشَّخْصُ الآخَرُ كانَ يَعْرِفُ أحَداً هُناكَ . »

قُلْتُ : « حَسَناً ، يا توم ، لا يُهِمُّني المَكانُ الَّذي سَيَخْرُجُ فيهِ جيم مادامَ سَيَخْرُجُ مِنْ هُنا . غَيْرَ أنَّ هُناكَ شَيْئاً واحِداً : جيم عجوزٌ جِدّاً وَلا يَسْتَطيعُ أنْ يَحْفِرَ بِالسِّكّينِ ؛ إنَّه لَنْ يَعيشَ طَويلاً لِيُواصِلَ الحَفْرَ . »

قالَ : « بَلْ سَيَعيشُ وَسَيُواصِلُ الحَفْرَ . وَلا أعْتَقِدُ أنَّكَ تَظُنُّ أنَّ الحَفْرَ سَيَسْتَغْرِقُ مِنْهُ سَبْعاً وَثَلاثينَ سَنَةً . »

قُلْتُ : « إذاً كَمْ سَيَسْتَغْرِقُ ؟ »

قالَ : « لَنْ يَمُرَّ وَقْتٌ طَويلٌ حَتّى يَسْمَعَ العَمُّ سايلاس في مَدينَةِ نيو أورليانز أنَّ جيم لَيْسَ مِنْ تِلْكَ المَدينَةِ . عِنْدَئِذٍ سَيُعْلِنُ عَنْ هُروبِ جيم ، أوْ يَفْعَلُ شَيْئاً مِنْ هَذا القَبيلِ . وَلِذَلِكَ لا نَسْتَطيعُ المُخاطَرَةَ بِالحَفْرِ فَتْرَةً طَويلَةً لِكَيْ نُخْرِجَهُ ، كَما كانَ يَنْبَغي عَلَيْنا أنْ نَفْعَلَ . وَالَّذي أنْصَحُ بِهِ هُوَ أنْ نَحْفِرَ بِأسْرَعِ ما يُمْكِنُنا ، وَبَعْدَ ذَلِكَ نَدَّعي لأنْفُسِنا أنَّنا اسْتَغْرَقْنا في الحَفْرِ سَبْعاً وَثَلاثينَ سَنَةً . وَبِهَذا نَسْتَطيعُ أنْ

نُخرِجَهُ مِنَ الكوخِ في أوَّلِ فُرْصَةٍ تلوحُ فيها المَتاعِبُ .»

قُلْتُ : « هَذا معْقولٌ ، فَأنا لا يُهِمُّني أنْ ندَّعِيَ أنَّ الحفْرَ استغْرَقَ منّا مِئَةً وَخَمْسين عاماً . سَأذْهَبُ الآنَ لأحْضِرَ سِكّينَتَيْنِ .»

قالَ : « بَلْ أحْضِرْ ثلاثاً ؛ لأنَّنا سَنَحْتاجُ واحِدَةً لِنَصْنَعَ مِنْها مِنْشاراً .»

قُلْتُ : « توم ، إذا لَمْ يَكُنْ هَذا مُخالِفاً لِلنِّظامِ وَلِلدِّينِ ، فَإنَّني أسْتَطيعُ أنْ أقولَ هُناكَ مِنْشارٌ قَديمٌ صَدِئٌ بِجوارِ السِّياجِ .»

تَنَهَّدَ توم بِعُمْقٍ وَقالَ : « لا فائِدَةَ مِنْ مُحاوَلَةِ تَعْليمِكَ أيَّ شَيْءٍ ، يا هَكْ . اجْرِ الآنَ وَأحْضِرِ السَّكاكينَ – ثَلاثَ سَكاكينَ .»

وَفَعَلْتُ ما يُريدُ .

الفَصْلُ السّابِعَ عَشَر

الحَفْر

في تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، وَبِمُجَرَّدِ أنْ قَدَّرْنا أنَّ كُلَّ مَنْ في البَيْتِ قَدِ اسْتَسْلَمَ لِلنَّوْمِ ، هَبَطْنا على عَمودِ الإنارَةِ ، وَحَبَسْنا أنْفُسَنا في السَّقيفَةِ ، وَأخْرَجْنا كَوْمَةَ نَباتِ سِراجِ الغولَةِ وَشَرَعْنا في العَمَلِ ، فَنَظَّفْنا كُلَّ ما كانَ في طَريقِنا لِمَسافَةِ مِتْرَيْنِ حَوْلَ مُنْتَصَفِ الجِذْعِ الأسْفَلِ وَبَدَأنا الحَفْرَ بِالسِّكّينَتَيْنِ ، وَأخَذْنا نَحْفِرُ وَنَحْفِرُ حَتّى انْتَصَفَ اللَّيْلُ تَقْريباً . وَبَدَأ الكَلالُ يَقْهَرُنا ، وَتَوَرَّمَتْ أيْدينا ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَبْدُ أنَّنا تَقَدَّمْنا خُطْوَةً .

قُلْتُ : « هَذا عَمَلٌ لَنْ يَسْتَغْرِقَ سَبْعَةً وَثَلاثينَ عاماً فَقَطْ ، بَل ثَمانِيَةً وَثَلاثينَ ، يا توم سوير ! »

قالَ : « لا جَدْوى مِنْ ذَلِكَ ، يا هَكْ ؛ فَلَوْ قَضَيْنا لَيْلَةً أخْرى نَعْمَلُ بِهَذِهِ الطَّريقَةِ فَإنَّ عَلَيْنا أنْ نَتَوَقَّفَ أسْبوعاً حَتّى تُشْفى أيْدينا .»

قُلْتُ : « إذًا ماذا سَنفْعَلُ ، يا توم ؟»

قالَ : « سَأخْبِرُكَ ، رَغْمَ أنَّ هَذا لَيْسَ صَوابًا ، وَلَيْسَ أخْلاقِيًّا ، وَلا أريدُهُ أنْ يُعْرَفَ ، وَلَكِنْ لا توجَدُ أمامَنا سِوى طَريقَةٍ واحِدَةٍ ، وَهِيَ أنْ نَحْفِرَ بِالمَعاوِلِ حَتّى نُخْرِجَ جيم ، وَنَدَّعِي لأنْفُسِنا بِأنَّنا نَحْفِرُ بِالسَّكاكينِ .»

قُلْتُ : « الآنَ تَتَحَدَّثُ الصَّوابَ ، أنا لا أهْتَمُّ أدْنى اهْتِمامٍ بِأخْلاقِيَّةِ هَذِهِ الطَّريقَةِ . إذا كانَ المِعْوَلُ هُوَ الأداةَ المُناسِبَةَ لِهَذا الأمْرِ فَسَوْفَ أحْفِرُ بِهِ لأخْرِجَ جيم .»

قالَ : « حَسَنًا ، ثَمَّ عُذْرٌ لاسْتِخْدامِ المَعاوِلِ والادِّعاءِ في حالَةٍ مِثْلِ حالَتِنا هَذِهِ ، وَلَوْلا ذَلِكَ ما كُنْتُ لألْجَأَ إلَيْها وَأسْكُتَ وَأنا أرى القَواعِدَ وَالنُّظُمَ تُنْتَهَكُ . أعْطِني سِكّينًا .»

كانَتْ سِكّينُهُ بِجِوارِهِ ، وَلَكِنّي ناوَلْتُهُ سِكّيني ، فَرَماها وَصاحَ : « أعْطِني سِكّينًا .»

لَمْ أعْرِفْ ما الَّذي يَنْبَغي عَلَيَّ فِعْلُهُ ، ثُمَّ فَكَّرْتُ قَليلاً ، وَأخَذْتُ أبْحَثُ بَيْنَ الأدَواتِ القَديمَةِ حَتّى وَجَدْتُ مِعْوَلاً ، فَناوَلْتُهُ إيّاهُ ، فَأخَذَهُ وَشَرَعَ في العَمَلِ دونَ أنْ يَنْبِسَ بِكَلِمَةٍ .

وَهَكَذا أحْضَرْتُ مِجْرَفَةً ، وَتَناوَبْنا الحَفْرَ بِها وَبِالمِعْوَلِ ، وَجَعَلَ

التُّرابُ يَتَطايَرُ مِنْ حَوْلِنا ، وَلَزِمْنا العَمَلَ لِمُدَّةِ نِصْفِ ساعَةٍ ، وَهُوَ الوَقْتُ الَّذي اسْتَطَعْنا فيهِ أنْ نُطيقَ العَمَلَ . وَلَكِنَّنا بَعْدَ نِصْفِ السّاعَةِ تِلْكَ وَجَدْنا أنَّنا حَفَرْنا حُفْرَةً واسِعَةً ، تَتَّفِقُ وَما بَذَلْنا مِنْ جَهْدٍ . وَعِنْدَما صَعِدْتُ إلى الطّابَقِ العُلْوِيِّ تَطَلَّعْتُ مِنَ النّافِذَةِ ، فَرَأيْتُ توم يُحاوِلُ جَهْدَهُ أنْ يَتَسَلَّقَ عَمودَ الإنارَةِ، وَلَكِنَّهُ لا يَسْتَطيعُ ، فَقَدْ كانَتْ يَداهُ مُتَوَرِّمَتَيْنِ . وَأخيرًا قالَ : « لا فائِدَةَ ، لا يُمْكِنُني أنْ أتَسَلَّقَهُ . ماذا يُمْكِنُني أنْ أفْعَلَ في رَأْيِكَ ، يا هَكْ ؟ أ لا تَسْتَطيعُ أنْ تُفَكِّرَ في شَيْءٍ ؟»

قُلْتُ : « أسْتَطيعُ ، وَلَكِنَّهُ غَيْرُ قانونِيٍّ . اِصْعَدِ الدَّرَجَ ، وَادَّعِ لِنَفْسِكَ أنَّكَ تَتَسَلَّقُ عَمودَ الإنارَةِ .»

فَفَعَلَ ما أشَرْتُ بِهِ عَلَيْهِ .

وَفي اليَوْمِ التّالي سَرَقَ توم مِلْعَقَةً وَشَمْعِدانًا نُحاسِيًّا لِيَصْنَعَ مِنْهُما ريشًا لِلْكِتابَةِ ، كَي يَسْتَخْدِمَها جيم . كَما سَرَقَ سِتَّ شَمَعاتٍ ، وَسَرَقْتُ أنا ثَلاثَةَ أطْباقٍ مِنَ الصَّفيحِ ، فَقالَ توم إنَّها غَيْرُ كافِيَةٍ ، فَأقْنَعْتُهُ بِأنَّ أحَدًا لَنْ يَرى الأطْباقَ الَّتي سَيُلْقيها جيم ؛ لأنَّها سَتَسْقُطُ في الحَشائِشِ المَوْجودَةِ تَحْتَ النّافِذَةِ ، وَمِنْ ثَمَّ نَسْتَطيعُ أنْ نَسْتَعيدَها وَنُعْطيَها لِجيم ، فَيَسْتَعْمِلَها مَرَّةً أخْرى ، فاقْتَنَعَ بِما قُلْتُ .

وَفي تِلْكَ اللَّيْلَةِ هَبَطْنا عَلى عَمودِ الإنارَةِ بَعْدَ العاشِرَةِ بِقَليلٍ ،

وَشَرَعْنا في العَمَلِ بِالمَعاوِلِ وَالمَجارِفِ . وَبَعْدَ ساعَتَيْنِ وَنِصْفٍ تَقْريباً
كانَ العَمَلُ قَدِ انْتَهى ، فَزَحَفْنا مِنْ خِلالِ الحُفْرَةِ حَتّى وَصَلْنا أَسْفَلَ
فِراشِ جيم ، وَهُناكَ خَرَجْنا داخِلَ الكوخِ . وَأَشْعَلْنا شَمْعَةً ، وَ وَقَفْنا
أَمامَ جيم هُنَيْهَةً ، فَوَجَدْناهُ صَحيحاً مُعافًى يَغِطُّ في نَوْمٍ عَميقٍ ،
فَأَيْقَظْناهُ بِرِفْقٍ . وَقَدْ سُرَّ عِنْدَ رُؤْيَتِنا وَدَعانا بِعَزيزَيْهِ ، وَبِكُلِّ أَسْماءِ
التَّدْليلِ الَّتي خَطَرَتْ بِبالِهِ . وَطَلَبَ مِنّا أَنْ نَبْحَثَ عَنْ أَداةٍ نَكْسِرُ بِها
السِّلْسِلَةَ مِنْ رِجْلِهِ فَوْراً ، وَنَدَعَهُ يَخْرُجُ دونَ إِضاعَةِ وَقْتٍ ، وَلكِنَّ توم
أَوْضَحَ لَهُ أَنَّ هذا ضِدُّ النِّظامِ . وَجَلَسَ توم وَأَخْبَرَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَنْ
خُطَطِنا ، وَكَيْفَ أَنَّنا نَسْتَطيعُ أَنْ نُغَيِّرَها في دَقيقَةٍ واحِدَةٍ إِذا لَزِمَ
الأَمْرُ ، وَأَنَّهُ لا مَحَلَّ لِلْخَوْفِ أَبَداً ؛ لأَنَّنا سَنَعْمَلُ عَلى إِطْلاقِ سَراحِهِ
بِكُلِّ تَأْكيدٍ ؛ فاقْتَنَعَ جيم . ثُمَّ جَلَسْنا مَعَهُ ، وَتَحَدَّثْنا عَنْ أَيّامِنا
الخَوالي . وَسَأَلَهُ توم أَسْئِلَةً كَثيرَةً ، وَأَخْبَرَهُ جيم أَنَّ العَمَّ سايلاس
يَأْتيهِ كُلَّ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ لِيُصَلِّيَ مَعَهُ ؛ وَأَنَّ الخالَةَ سالي تَأْتي لِتُشْرِفَ
عَلى راحَتِهِ ، وَتَطْمَئِنَّ عَلى أَنَّ لَدَيْهِ قَدْراً كافِياً مِنَ الطَّعامِ ؛ وَأَنَّ
كِلَيْهِما يُسْبِغانِ عَلَيْهِ العَطْفَ ، وَيَرْفُقانِ بِهِ قَدْرَ اسْتِطاعَتِهِما .

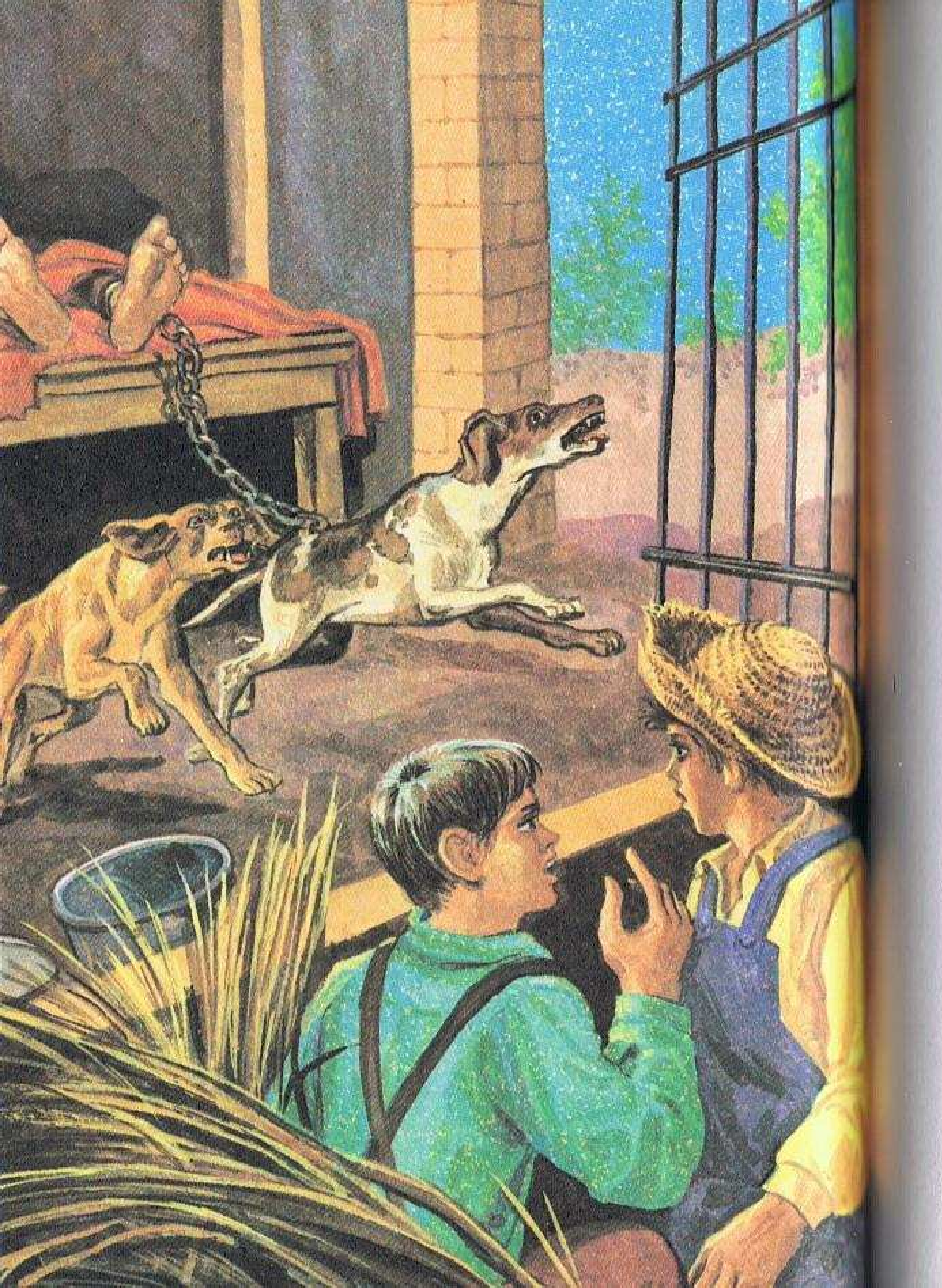
قالَ توم : « الآنَ أَعْرِفُ كَيْفَ أُدَبِّرُ الأَمْرَ . سَنُرْسِلُ لَكَ بَعْضَ
الأَشْياءِ عَنْ طَريقِهِما .»

قُلْتُ : « لا تَفْعَلْ شَيْئاً مِنْ هذا القَبيلِ . إِنَّ هذِهِ أَسْخَفُ فِكْرَةٍ

سَمِعْتُ بِها .»

وَلكِنَّهُ لَمْ يُلْقِ بالاً إِلَيَّ ، وَكانَتْ هذِهِ طَريقَتَهُ عِنْدَما يُصَمِّمُ عَلى
رَأْيٍ مُعَيَّنٍ . وَهكَذا أَخْبَرَ جيم بِأَنَّهُ سَيُرْسِلُ لَهُ عَنْ طَريقِ نات فَطيرَةً
بِها سُلَّمٌ مِنَ الحِبالِ ، وَأَشْياءَ أُخْرى ، وَعَلى جيم أَلّا يَجْعَلَ نات
يَراهُ وَهُوَ يَفْتَحُ الفَطيرَةَ . وَقالَ لَهُ إِنَّنا نَسْتَطيعُ أَنْ نَرْبِطَ أَشْياءَ في نِطاقِ
مِئْزَرِ الخالَةِ سالي ، أَوْ نَضَعَها في جُيوبِ المِئْزَرِ إِذا سَنَحَتِ الفُرْصَةُ
لِذلِكَ ، وَسَنُخْبِرُهُ عَنْ هذِهِ الأَشْياءِ وَفيما يَسْتَعْمِلُها . وَأَخْبَرَهُ توم
أَيْضاً عَنِ الطَّريقَةِ الَّتي يُسَجِّلُ بِها خَواطِرَهُ بِدَمِهِ عَلى القَميصِ ..
إِلى آخِرِ ما قالَهُ توم مِنْ هذِهِ الأَشْياءِ . وَرَغْمَ أَنَّ جيم لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ
يَفْهَمَ أَيَّ مَغْزًى لِمُعْظَمِ ما أَخْبَرَهُ بِهِ توم إِلّا أَنَّهُ أَجابَ بِأَنَّهُ سَيَفْعَلُ
ما يَقولُ لَهُ .

وَبَعْدَ ذلِكَ زَحَفْنا خارِجَيْنِ مِنَ الحُفْرَةِ ، ثُمَّ تَسَلَّلْنا إِلى البَيْتِ ،
وَمِنْهُ إِلى فِراشِنا . وَقَدِ ارْتَفَعَتْ مَعْنَوِيّاتُ توم ، وَقالَ إِنَّ هذِهِ لأَجْمَلُ
مُغامَرَةٍ في حَياتِهِ ، وَإِنَّها كانَتْ في حاجَةٍ إِلى عَقْلٍ مُدَبِّرٍ يُخَطِّطُ
لَها ، فَإِذا اسْتَطاعَ أَنْ يُدَبِّرَها جَيِّداً فَإِنَّنا سَنَتَذَكَّرُها طيلَةَ حَياتِنا ، ثُمَّ
نَتْرُكُ لأَوْلادِنا أَنْ يَفْعَلوا مِثْلَما فَعَلْنا ؛ فَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّ جيم سَتَروقُهُ هذِهِ
الخُطَّةُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ عِنْدَما يَعْتادُها . وَقالَ إِنَّنا بِهذِهِ الطَّريقَةِ نَسْتَطيعُ أَنْ
نَمُدَّ في فَتْرَةِ سِجْنِهِ لِمُدَّةِ ثَمانينَ عاماً ، وَهكَذا سَتَجْعَلُنا هذِهِ الخُطَّةُ



مَشهورين .

وَفي الصَّباحِ ذَهبْنا إلى كَوْمَةِ الخَشَبِ ، وكَسَرْنا الشَّمْعدانَ قِطَعًا يُمكِنِ إمْساكُها باليَدِ ، وَ وَضَعَ توم هَذِهِ القِطَعَ مَعَ المِلْعَقَةِ في جَيْبِه ، ثُمَّ ذَهَبْنا إلى المَطْبَخِ ، وَدفَعَ توم بِقِطْعَةٍ مِنَ الشَّمْعدانِ وَسطَ رَغيفٍ في طَبَقِ جيم عِنْدَما كانَ نات غافِلاً عَنْهُ ، ثُمَّ ذَهَبْنا مَعَ نات لِنَرى نَتيجَةَ هَذا العَمَلِ . وَلَقَدْ كانَتِ النَّتيجَةُ رائِعَةً ، فَعِنْدَما قَضَمَ جيم قَضْمَةً مِنَ الرَّغيفِ كادَتْ تَكْسِرُ مُعْظَمَ أَسْنانِه ، وَقالَ توم في نَفْسِهِ لا شَيْءَ أَفْضَلَ مِنْ هَذا ؛ فَجيم لَنْ يَقْضِمَ شَيْئًا بَعْدَ اليَوْمِ قَبْلَ أَنْ يَغْرِزَ فيهِ الشَّوْكَةَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثَ مَرّاتٍ .

وَبَيْنَما كُنّا واقِفينَ انْدَفَعَ كَلْبانِ إلى داخِلِ الكوخِ مِنْ تَحْتِ فِراشِ جيم ، ثُمَّ أَخَذَتِ الكِلابُ تَتَدافَعُ كَلْبًا تِلْوَ الآخَرِ حَتّى اكْتَمَلَ عَدَدُها أَحَدَ عَشَرَ كَلْبًا ، وَلَمْ يَعُدْ ثَمَّةَ مَكانٌ في الكوخِ نَلْتَقِطُ فيهِ أَنْفاسَنا ، والسَّبَبُ في ذَلِكَ أَنَّنا نَسينا أَنْ نُغْلِقَ بابَ السَّقيفَةِ .

وَصَرَخَ نات : « السّاحِراتُ ! السّاحِراتُ !» وَرَكَعَ عَلى الأَرْضِ بَيْنَ الكِلابِ ، وَبَدَأَ يَئِنُّ كَأَنَّهُ سَيَموتُ . وَفَتَحَ توم البابَ وَرَمى بَعيدًا بِقِطْعَةٍ مِنَ اللَّحْمِ أَخَذَها مِنْ أَمامِ جيم ، فانْدَفَعَتِ الكِلابُ إلَيْها . ثُمَّ خَرَجَ توم نَفْسُه ، وَعادَ مَرَّةً أُخْرى ، وَأَغْلَقَ البابَ خَلْفَهُ . وَعَرَفْتُ أَنَّهُ ذَهَبَ وَأَغْلَقَ بابَ السَّقيفَةِ أَيْضًا . ثُمَّ شَرَعَ توم في

اللَّعِبِ بِعَقْلِ نات ، فَأَخَذَ يُواسيهِ وَيُلاطِفُهُ ، ثُمَّ سَأَلَهُ إِنْ كانَ قَدْ تَخَيَّلَ رُؤْيَةَ شَيْءٍ مَرَّةً أُخرى ، فَوَقَفَ نات وَنَظَرَ حَوْلَهُ بِقَلَقٍ وَقالَ : « سَتَقولُ عَنّي إِنَّني أَحْمَقُ ، يا سَيِّدُ سيدْ ، وَلكِنَّني إِنْ لَمْ أَكُنْ رَأَيْتُ مِلْيونَ كَلْبٍ أَوْ شَيْطانٍ الآنَ فَإِنَّني أَدْعو اللَّهَ أَنْ يُميتَني هُنا في مَكاني . لَقَدْ رَأَيْتُها .. أَنا مُتَأَكِّدٌ مِنْ هَذا ، يا سَيِّدي سيدْ .. لَقَدْ شَعَرْتُ بِها .. تَحَسَّسْتُها .. لَقَدْ كانَتْ كُلُّها فَوْقي . أَتَمَنّى لَوْ أَنَّني وَضَعْتُ يَدَيَّ عَلى إِحْدى هاتيكَ السّاحِراتِ ، مَرَّةً واحِدَةً فَقَطْ . هَذا هُوَ كُلُّ ما أَطْلُبُهُ ، وَلكِنّي أَتَمَنّى مُخْلِصاً أَنْ يَتْرُكوني وَشَأْني .»

سَأَلَهُ توم : « ما الَّذي جَعَلَهُنَّ يَأْتينَ إِلى هُنا أَثْناءَ تَناوُلِ جيم لِطَعامِهِ ؟ لا بُدَّ أَنَّهُنَّ جائِعاتٌ . اِصْنَعْ لَهُنَّ فَطيرَةً سِحْرِيَّةً ، فَهَذا ما يَنْبَغي أَنْ تَفْعَلَهُ .»

قالَ نات : « وَلكِنْ ، يا سَيِّدي سيدْ ، كَيْفَ أَصْنَعُ لَهُنَّ هَذِهِ الفَطيرَةَ السِّحْرِيَّةَ ؟ أَنا لا أَعْرِفُ طَريقَةَ صُنْعِها ، وَلَمْ أَسْمَعْ عَنْ فَطيرَةٍ سِحْرِيَّةٍ مِنْ قَبْلُ .»

قالَ توم : « حَسَناً إِذاً ، سَأَصْنَعُها لَكَ بِنَفْسي .»

قالَ نات : « هَلْ سَتَصْنَعُها ، يا عَزيزي ؟ هَلْ سَتَصْنَعُها ؟ إِنَّني سَأُقَبِّلُ الأَرْضَ الَّتي تَسيرُ عَلَيْها قَدَماكَ .»

قالَ توم : « حَسَناً ، حَسَناً ، سَأَصْنَعُها مِنْ أَجْلِكَ لأَنَّكَ رَجُلٌ طَيِّبٌ ، وَلكِنِ احْذَرْ ! عِنْدَما نَأْتي أَدِرْ لَنا ظَهْرَكَ ، وَتَظاهَرْ بِأَنَّكَ لا تَرى أَيَّ شَيْءٍ نَضَعُهُ في الطَّبَقِ . وَلا تَنْظُرْ حينَ يُفْرِغُ جيم الطَّبَقَ ؛ فَقَدْ يَحْدُثُ لَكَ شَيْءٌ . أَنا لا أَعْرِفُ ما الَّذي يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ لَكَ . ثُمَّ إِيّاكَ أَنْ تُمْسِكَ بِالأَشْياءِ السِّحْرِيَّةِ .»

قالَ نات : « أُمْسِكُها ، يا سَيِّدي ؟ عَمَّ تَتَحَدَّثُ ؟ لَنْ أَضَعَ أُصْبُعاً فَوْقَها وَلَوْ في مُقابِلِ مِلْيونِ دولار . لَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ أَبَداً .»

الفَصْلُ الثّامِنَ عَشَر

تِسْعُ ملاعِقَ أمْ عشْرٌ ؟

وَفطيرَةُ سُلَّمِ الحِبال

تَمَّ تَرْتيبُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَمِنْ ثَمَّ ذَهَبْنا إلى كَوْمَةِ القُمامَةِ المَوْجودَةِ في الفِناءِ الخَلْفِيِّ ، حَيْثُ عَثَرْنا عَلى قِدْرٍ قَديمَةٍ مَصْنوعَةٍ مِنَ الصَّفيحِ ، تَصْلُحُ لأنْ نَخْبِزَ فيها الفَطيرَةَ ، فَأَخَذْناها إلى القَبْوِ ، وَمَلأْناها بِالدَّقيقِ . وَ وَجَدْنا مِسْمارَيْنِ كَبيرَيْنِ ، قالَ عَنْهُما توم إِنَّهُما مُناسِبانِ لِلسَّجينِ كَي يَحْفِرَ بِهِما اسْمَهُ وَأَحْزانَهُ عَلى جُدْرانِ السِّجْنِ . وَقَدْ وَضَعْنا أَحَدَهُما في جَيْبِ مِئْزَرِ الخالَةِ سالي ، الَّذي كانَ مُعَلَّقاً عَلى أَحَدِ الكَراسيِّ ، وَرَبَطْنا الآخَرَ في شَريطِ قُبَّعَةِ العَمِّ سايلاس ، الَّتي كانَتْ مَوْضوعَةً عَلى المَكْتَبِ ؛ لأَنَّنا سَمِعْنا الأَطْفالَ يَقولونَ إِنَّ والِدَيْهِما ذاهِبانِ إلى كوخِ جيم هَذا الصَّباحَ ، ثُمَّ ذَهَبْنا لِنَتَناوَلَ طَعامَ الإِفْطارِ . وَهُناكَ أَسْقَطَ توم المِلْعَقَةَ في جَيْبِ مِعْطَفِ العَمِّ سايلاس . وَلَمْ تَكُنِ الخالَةُ سالي قَدْ وَصَلَتْ بَعْدُ ، وَلِذَلِكَ كانَ عَلَيْنا أَنْ نَنْتَظِرَ قَليلاً . وَعِنْدَما جاءَتْ كانَتْ ثائِرَةً غَضْبى سَيِّئَةَ المِزاجِ ،

وَقالَتْ : « لَقَدْ فَتَّشْتُ هُنا وَهُناكَ فَلَمْ أَعْثُرْ عَلى قَميصِكَ الثّاني . »

قالَ العَمُّ سايلاس : « هَذا أَمْرٌ غَريبٌ لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَفْهَمَهُ ! أَنا واثِقٌ تَماماً بِأَنَّني خَلَعْتُهُ . »

قالَتْ : « أَعْرِفُ أَنَّكَ خَلَعْتَهُ ؛ لأَنَّهُ كانَ مَوْجوداً عَلى حَبْلِ الغَسيلِ أَمْسِ . لَقَدْ رَأَيْتُهُ بِنَفْسي .. وَلَقَدِ اخْتَفَتْ مِلْعَقَةٌ أَيْضاً .. كانَ هُناكَ عَشْرُ مَلاعِقَ ، أَمّا الآنَ فَلا يوجَدُ سِوى تِسْعٍ . لِنَفْتَرِضْ أَنَّ البَقَرَةَ أَكَلَتِ القَميصَ ، إِلّا أَنَّها بِكُلِّ تَأْكيدٍ لا يُمْكِنُها أَخْذُ المِلْعَقَةِ .. كَما أَنَّ هَذا لَيْسَ كُلَّ شَيْءٍ . »

قالَ العَمُّ سايلاس : « ماذا ؟ هَلِ اخْتَفى شَيْءٌ آخَرُ ؟ »

قالَتِ الخالَةُ سالي : « سِتُّ شَمَعاتٍ .. رُبَّما تَسْتَطيعُ الفِئْرانُ أَنْ تَلْتَهِمَ الشَّمْعَ ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّها فَعَلَتْ ذَلِكَ . وَإِنّي لا أَعْجَبُ إِذا ما جاءَ اليَوْمُ الَّذي تَسْتَوْلي فيهِ الفِئْرانُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مادُمْتَ تَقولُ إِنَّكَ سَتَسُدُّ شُقوقَها وَلَكِنَّكَ لا تَفْعَلُ شَيْئاً . غَيْرَ أَنَّني لا أُنْحي بِاللّائِمَةِ عَلى الفِئْرانِ فيما يَتَعَلَّقُ بِالمِلْعَقَةِ . »

قالَ العَمُّ سايلاس : « سالي ، لَنْ يَمُرَّ الغَدُ دونَ أَنْ أَسُدَّ تِلْكَ الشُّقوقَ . »

قالَتِ الخالَةُ سالي : « أَنا لَسْتُ في عَجَلَةٍ مِنْ أَمْري ، لَيْتَكَ

تَسُدُّها العامَ القادِمَ ! »

وفي هَذِهِ اللَّحْظَةِ دَخلَتِ الخادِمَةُ ليزا وَقالَتْ : « سَيِّدَتي ، لَقَدِ اخْتَفَتْ إِحْدى مُلاءاتِ السَّريرِ .»

صاحَتِ الخالَةُ سالي : « يا إِلَهي ! اِخْتَفَتْ مُلاءَةُ سَريرٍ !»

قالَ العَمُّ سايلاس وَهُوَ يَبْدو آسِفاً: « سَأَسُدُّ تِلْكَ الشُّقوقَ اليَوْمَ .»

صاحَتْ فيهِ الخالَةُ سالي قائِلَةً : « صَهْ ! أَ تَظُنُّ أَنَّ الفِئْرانَ أَخَذَتِ المُلاءَةَ ؟ أَيْنَ اخْتَفَتْ ، يا ليزا ؟»

أَجابَتْ ليزا: « لا أَعْرِفُ . لَقَدْ كانَتْ عَلى حَبْلِ الغَسيلِ أَمْسِ ، وَلَكِنَّها لَيْسَتْ هُناكَ الآنَ .»

قالَتِ الخالَةُ سالي : « أَعْتَقِدُ أَنَّ القِيامَةَ اقْتَرَبَتْ ، وَأَنَّ الدُّنْيا أَوْشَكَتْ عَلى الانْتِهاءِ . أَنا لَمْ أَرَ مِثْلَ هَذا في حَياتي . قَميصٌ ، وَمُلاءَةٌ ، وَمِلْعَقَةٌ ، وَستُّ شَمَعـ... »

وَقاطَعَتْها خادِمَةٌ صَغيرَةٌ ، كانَتْ قَدْ دَخَلَتْ لِتَوِّها ، بِقَوْلِها : « سَيِّدَتي ، لَقَدِ اخْتَفى شَمْعِدانٌ نُحاسِيٌّ .»

صَرَخَتِ الخالَةُ سالي : « أُغْرُبي عَنْ وَجْهي وَإِلّا جَلَدْتُكِ .»

اشْتَدَّ غَضَبُ الخالَةِ سالي حَتّى بَلَغَتْ دَرَجَةَ الهِياجِ ، وَفي تِلْكَ

اللَّحْظَةِ أَخْرَجَ العَمُّ سايلاس المِلْعَقَةَ مِنْ جَيْبِهِ وَهُوَ لا يُصَدِّقُ ، وَقَدِ ارْتَسَمَتِ البَلاهَةُ عَلى وَجْهِهِ ، فَقالَتِ الخالَةُ سالي : « تَماماً كَما تَوَقَّعْتُ ، إِذاً فَهِيَ في جَيْبِكَ طيلَةَ الوَقْتِ ، وَرُبَّما تَكونُ الأَشْياءُ الأُخْرى مَعَكَ أَيْضاً . كَيْفَ وَصَلَتْ إِلَيْكَ ؟»

قالَ العَمُّ سايلاس مُعْتَذِراً : « في الحَقيقَةِ لا أَعْرِفُ ، يا سالي !»

قالَتِ الخالَةُ سالي : « بِاللَّهِ اخْرُجوا جَميعاً مِنْ هُنا ، وَلا تَعودوا قَبْلَ أَنْ أَسْتَعيدَ هُدوءَ أَعْصابي .»

قُمْنا لِنَخْرُجَ ، وَأَثْناءَ مُرورِنا بِحُجْرَةِ الجُلوسِ خَلَعَ الرَّجُلُ العَجوزُ قُبَّعَتَهُ ، فَسَقَطَ المِسْمارُ مِنْها عَلى الأَرْضِ ، فَلَمْ يَفْعَلْ شَيْئاً سِوى أَنِ الْتَقَطَهُ وَ وَضَعَهُ عَلى المِنْضَدَةِ .

قالَ توم : « لا فائِدَةَ مِنْ إِرْسالِ أَشْياءَ عَنْ طَريقِهِ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَهُوَ شَخْصٌ لا يُمْكِنُ الاعْتِمادُ عَلَيْهِ .»

تَضايَقَ توم كَثيراً بِخُصوصِ المِلْعَقَةِ ، وَلَكِنَّهُ قالَ إِنَّنا يَجِبُ أَنْ نَحْصُلَ عَلَيْها . وَأَخَذَ يُفَكِّرُ قَليلاً ، وَعِنْدَما تَوَصَّلَ إِلى خُطَّةٍ أَخْبَرَني بِما سَنَفْعَلُهُ ، ثُمَّ ذَهَبْنا إِلى المَطْبَخِ وَانْتَظَرَ هُوَ بِجِوارِ سَلَّةِ المَلاعِقِ حَتّى رَأَيْنا الخالَةَ سالي قادِمَةً ، وَهُنا بَدَأَ توم يَعُدُّ المَلاعِقَ وَيَضَعُها جانِباً. وَأَخَذْتُ أَنا واحِدَةً مِنْها وَدَسَسْتُها في جَيْبي خُلْسَةً ، وَقالَ توم :

« خالَتي سالي ، لا يوجَدُ سِوى تِسعِ مَلاعِقَ فَقط .»

قالَتِ الخالَةُ سالي : « اذْهَبْ والْعَبْ بَعيداً ، ولا تُضايِقْني . أنا أعْرِفُ عَدَدَها جَيِّداً . لَقَدْ عَدَدْتُها بِنفسي .»

قالَ توم : « لَقَدْ عَدَدْتُها مَرَّتَيْنِ ، يا خالَتي ، وَلا توجَدُ سِوى تِسْعِ مَلاعِقَ .»

بَدا أنَّ الخالَةَ سالي قَدْ فَرَغَ صَبْرُها ، وَلكِنَّها جاءَتْ بِالطَّبْعِ لِتَعُدَّ المَلاعِقَ ، ثُمَّ قالَتْ : « يا إلهِيَ الرَّحيمَ ! هُنا تِسْعٌ فَقَطْ . ما هَذا ؟ ما الَّذي يَحْدُثُ في العالَمِ ؟ اللَّعْنَةُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ ! سَأعُدُّها مَرَّةً أخْرى .»

وعِنْدَئِذٍ أعَدْتُ المِلْعَقَةَ الَّتي كانَتْ في جَيْبي خُلْسَةً ، وَحينَ فَرَغَتِ الخالَةُ سالي مِنَ العَدِّ قالَتْ : « اللَّعْنَةُ عَلى الشَّيْطانِ ! هُنا عَشْرٌ الآنَ .» وَبَدَتْ مُهْتاجَةً وَمُتَضايِقَةً .

قالَ توم : « لا أعْتَقِدُ ، يا خالَتي ، أنَّها عَشْرُ مَلاعِقَ .»

قالَتْ : « أيُّها الأحْمَقُ ! ألَمْ تَرَني وَأنا أعُدُّها ؟»

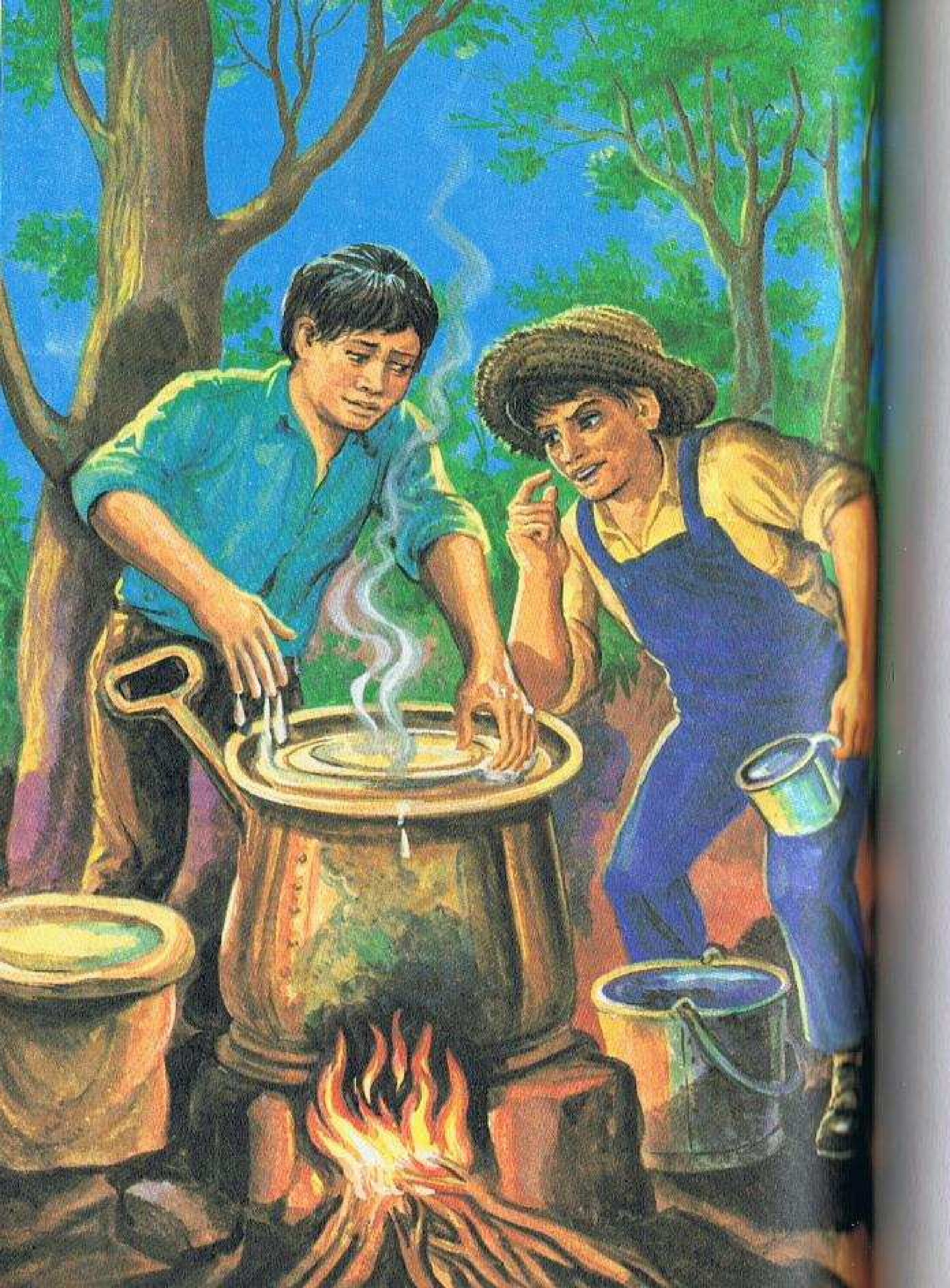
قالَ توم : « أعْرِفُ ، وَلكِنْ ...»

قاطَعَتْهُ قائِلَةً : « حَسَناً ، سَأعُدُّها مَرَّةً أخْرى .»

وَهُنا اخْتَلَسْتُ مِلْعَقَةً ، فَكانَ العَدَدُ تِسْعَةً مِثْلَ المَرَّةِ السّابِقَةِ ، فاهْتاجَتِ الخالَةُ سالي ، وَأخَذَ جِسْمُها يَرْتَعِدُ ، وَصارَتْ كالمَجْنونَةِ ، وَلكِنَّها عَدَّتْها مَرَّةً وَمَرّاتٍ ، وَاخْتَلَطَ عَلَيْها الأمْرُ حَتّى إنَّها في بَعْضِ الأحْيانِ كانَتْ تَعُدُّ السَّلَّةَ عَلى أنَّها مِلْعَقَةٌ . وَهكَذا كانَ العَدَدُ عَشَرَةً ثَلاثَ مَرّاتٍ ، وَتِسْعَةً في ثَلاثٍ أخَرَ ، فَألْقَتْ بِالسَّلَّةِ عَبْرَ الغُرْفَةِ ، وَرَفَسَتِ القِطَّةَ فَأطارَتْها في الهَواءِ ، وَأمَرَتْنا بِالخُروجِ ، وَأنْ نَدَعَها وَحْدَها حَتّى تَهْدَأَ أعْصابُها ، وَقالَتْ إنَّنا لَوْ عُدْنا لِمُضايَقَتِها مَرَّةً أخْرى ، مِنَ الآنَ وَحَتّى مَوْعِدِ العَشاءِ ، فَإنَّها سَتَسْلَخُ جُلودَنا . وَهكَذا أخَذْنا المِلْعَقَة ، وَأسْقَطْناها في جَيْبِ مِئْزَرِها وَهِيَ تُلْقي لَنا بِأوامِرِها الَّتي تَطْرُدُنا بِها . ثُمَّ اطْمَأَنَّ توم عَلى وَضْعِ المِسْمارِ في رِباطِ مِئْزَرِها قَبْلَ حُلولِ الظُّهْرِ .

وَأعَدْنا المُلاءَةَ مَرَّةً أخْرى إلى حَبْلِ الغَسيلِ ، وَسَرَقْنا غَيْرَها مِنْ دولابِها . وَظَلِلْنا نُعيدُها مَكانَها وَنَسْرِقُها مَرَّةً أخْرى أيّاماً عِدَّةً ، حَتّى باتَتْ لا تَعْرِفُ عَدَدَ المُلاءاتِ الَّتي لَدَيْها ، وَقالَتْ إنَّها ما عادَتْ تَهْتَمُّ بِشأنِها ، وَلا بِعَدَدِها ، وَلَنْ تُقْلِقَ نَفْسَها بِخُصوصِها بَعْدَ الآنَ ، وَلَنْ تُحْصِيَها مَرَّةً أخْرى .

وهكَذا اسْتَتَبَّ الأمْرُ لَنا بِالنِّسْبَةِ لِلْقَميصِ وَالمُلاءَةِ وَالمِلْعَقَةِ وَالشُّموعِ بِمُساعَدَةِ البَقَرَةِ وَالفِئْرانِ وَاضْطِرابِ العَدَدِ . أمّا فيما



يَتعلَّقُ بِالشَّمْعدانِ ، فَلَمْ يكُنْ مُهمًّا ، وَسيَنْسى أمْرَهُ مَعَ مُرورِ الأيّامِ .

وَلكِنَّ عَمَلَ هَذهِ الفَطيرَةِ كانَ ضَخْماً وَشاقًّا . إلّا أنّنا رَغْمَ هَذا صَنَعْناها في نِهايَةِ المَطافِ . وَقَدِ اسْتَغْرَقَ صُنْعُها مِنّا أيّاماً ، وَكانَ عَلَيْنا أنْ نَسْتَخْدِمَ ثَلاثَةَ أوانٍ مَمْلوءَةً بِالدَّقيقِ قَبْلَ أنْ نَنْتَهِيَ مِنْها ، وَقَدْ سَبَّبَتْ لَنا حُروقاً في أجْسامِنا ، وحُروقاً في أماكِنَ أخْرى ، وَكِدْنا نُصابُ بِالعَمى مِنْ تَأثيرِ الدُّخانِ ؛ لأنّنا ، كَما لا بُدَّ وَأنْ تُدْرِكَ ، كُنّا نُريدُ القِشْرَةَ الخارِجيَّةَ فَقَطْ . وَكانَ مِنَ الصَّعْبِ عَلَيْنا أنْ نَجْعَلَ هَذهِ القِشْرَةَ مُتَماسِكَةً ، فَكانَتْ تَغوصُ مِنّا دائِماً . ثُمَّ اهتَدَيْنا – بِطَبيعَةِ الحالِ – إلى الطَّريقَةِ الصَّحيحَةِ في آخِرِ الأمْرِ ، وَهِيَ أنَّ عَلَيْنا أنْ نَخْبِزَ الفَطيرَةَ وُسُلَّمُ الحِبالِ بِداخِلِها . وَمِنْ ثَمَّ قُمْنا بِزيارَةِ جيم في اللَّيْلَةِ التّالِيَةِ ، وَمَزَّقْنا المُلاءَةَ إلى شَرائِطَ صَغيرَةٍ ضَفَّرْناها مَعاً ، وَلَمْ يَطْلُعْ عَلَيْنا النَّهارُ إلّا وَكانَ لَدَيْنا حَبْلٌ جَميلٌ يُمْكِنُكَ أنْ تَشْنُقَ بِهِ رَجُلاً . وَقَدِ ادَّعَيْنا لأنْفُسِنا أنّنا صَنَعْناهُ في تِسْعَةِ شُهورٍ !

وَفي الصَّباحِ أخَذْناهُ إلى الغابَةِ ، ولكِنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ في الفَطيرَةِ ، فَقَدْ كانَ طَويلاً ؛ لأنّنا صَنَعْناهُ مِنْ مُلاءَةِ سَريرٍ ، وَيَحْتاجُ إلى أرْبَعينَ فَطيرَةً لِتَحْتَويَهُ ، ثُمَّ يَتَبَقّى مِنْهُ جُزْءٌ تَسْتَطيعُ أنْ تَضَعَهُ في الحَساءِ أوْ في أيِّ طَعامٍ آخَرَ قَدْ يَخْطِرُ بِبالِكَ .

وَقَدْ أخذْنا مِنْهُ ما يَكْفي الفَطيرَةَ فَقَطْ ، ثُمَّ طَرَحْنا الباقِيَ . وَكانَ لَدى العَمِّ سايلاس مِدْفَأَةٌ ضَخْمَةٌ لِفراشِهِ ، مَصنوعَةٌ مِنَ النُّحاسِ الأَصْفَرِ ، وَقَدْ كانَ يَعْتَزُّ بِها كَثيراً . وَكانَتْ هَذِهِ المِدْفَأَةُ مَوْجودَةً في الطّابَقِ العُلْوِيِّ وَسْطَ كَثيرٍ مِنَ الأَشْياءِ الأُخْرى القَديمَةِ القَيِّمَةِ ، فأَخَذْناها ، وَمَلأْناها بِعَجينَةِ الفَطيرَةِ ، وَ وَضَعْناها عَلى النّارِ ، وحَشَوْناها بِالحَبْلِ وَأَغْلَقْنا الغِطاءَ وَ وَضَعْنا رَماداً ساخِناً أَعْلاها ، وَ وَقَفْنا عَلى مَبْعَدَةِ مِتْرَيْنِ ، وَقَدْ أَمْسَكْنا بِمِقْبَضِها الطَّويلِ ، وَكانَ بارِداً وَمُريحاً . وَبَعْدَ خَمْسَ عَشْرَةَ دَقيقَةً أَنْتَجَتْ لَنا المِدْفَأَةُ فَطيرَةً جَميلَةَ المَنْظَرِ ، شَهِيَّةَ الطَّعْمِ .

وَعِنْدَما وَضَعْنا الفَطيرَةَ السِّحْرِيَّةَ في صَحْنِ جيم ، لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْنا نات . وَقَدْ وَضَعْنا أَيْضاً ثَلاثَةَ أَطْباقٍ مِنَ الصَّفيحِ في قاعِ الصَّحْنِ تَحْتَ الطَّعامِ . وَهَكَذا وَصَلَ كُلُّ شَيْءٍ إِلى جيم حَسْبَما خَطَّطْنا لَهُ . وَقامَ جيم حينَ اخْتَلى بِنَفْسِهِ بِقَطْعِ الفَطيرَةِ وَإِخْراجِ سُلَّمِ الحِبالِ ، ثُمَّ خَبَّأَهُ داخِلَ حَشِيَّةِ القَشِّ . وَصَنَعَ بَعْضَ الخُدوشِ عَلى أَحَدِ الأَطْباقِ ثُمَّ أَلْقاهُ مِنَ النّافِذَةِ .

الفَصْلُ التّاسِعَ عَشَر

عَمَلٌ عَسيرٌ لِلْغايَةِ ، وَحَيَواناتٌ مُدَلَّلَة مِنْ أَجْلِ السَّجين

كَان صُنْعُ ريشِ الكِتابَةِ ، وَكَذَلِكَ صُنْعُ المِنْشارِ عَسيراً . وَكانَ جيم يَعْتَقِدُ أَنَّ حَفْرَ المُذَكَّراتِ عَلى الجُدْرانِ لَهُوَ مِنْ أَشَدِّ الأَعْمالِ عُسْراً . فَأَخْبَرَهُ توم أَنَّ كِتابَةَ هَذِهِ المُذَكَّراتِ أَمْرٌ لا بُدَّ مِنْهُ، فَكُلُّ سَجينٍ يُخَلِّفُ وَراءَهُ مُذَكَّراتٍ . وَقَدْ كَتَبَ توم الكَثيرَ مِنَ المُذَكَّراتِ عَلى فَرْخِ وَرَقٍ ، وَأَخَذَ يَقْرَؤُها بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ :

١- هُنا قَبَعَ سَجينٌ قَدِ انْفَطَرَ قَلْبُهُ حُزْناً لأَنَّ العالَمَ نَسِيَهُ وَتَنَكَّرَ لَهُ أَصْدِقاؤُهُ .

٢- هُنا قَلْبٌ مُحَطَّمٌ أَصابَهُ المَرَضُ ، بَعْدَ أَنْ قَضى في السِّجْنِ سَبْعَةً وَثَلاثينَ عاماً .

٣- هُنا قَضى سَجينٌ نَحْبَهُ غَريباً شَريداً ، لا أَصْدِقاءَ لَهُ ، يَجْري في عُروقِهِ الدَّمُ المَلَكِيُّ ، بَعْدَ سَبْعَةٍ وَثَلاثينَ عاماً مِنَ المُعاناةِ وَالأَلَمِ .

كانَ توم يَقْرَأُ هَذِهِ المُذَكِّراتِ بِصَوْتٍ مُرْتَعِشٍ يَكادُ يَكونُ هَمْساً، وَعِنْدَما انْتَهى مِنَ القِراءَةِ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْتارَ مِنْ بَيْنِها ما يَصْلُحُ لِكَيْ يَحْفِرَهُ جيم على الجِدارِ ؛ فَقَدْ كانَتْ كُلُّها جَيِّدَةً ، فَقَرَّرَ في النِّهايَةِ أَنْ يَدَعَ جيم يَكْتُبُها كُلَّها ، فَقالَ جيم إِنَّ حَفْرَ هَذِهِ الأَشْياءِ بِمِسْمارٍ عَلى الجُذوعِ المَصْنوعَةِ مِنْها جُدْرانُ الكوخِ سَيَسْتَغْرِقُ مِنْهُ عاماً كامِلاً ، ثُمَّ إِنَّهُ لا يَعْرِفُ الكِتابَةَ . فَقالَ توم إِنَّهُ سَيَرْسُمُها لَهُ بِالقَلَمِ الرَّصاصِ عَلى الجِذْعِ ، وَكُلُّ ما عَلَيْهِ هُوَ أَنْ يَتَتَبَّعَ السُّطورَ المَرْسومَةَ فَقَطْ . وَقالَ توم : « سَأُعيدُ التَّفْكيرَ في هَذا الأَمْرِ ، فَالجُذوعُ لا تَصْلُحُ ، فَلَيْسَ في السُّجونِ جُدْرانٌ مَصْنوعَةٌ مِنْ جُذوعِ الأَشْجارِ . يَجِبُ أَنْ تَحْفِرَ المُذَكِّراتِ عَلى صَخْرَةٍ . سَنُحْضِرُ صَخْرَةً . »

قالَ جيم : « إِنَّ الصَّخْرَةَ أَسْوَأُ حالاً مِنَ الجِذْعِ ، وَإِنَّ حَفْرَ هَذِهِ المُذَكِّراتِ عَلَيْها يَعْني أَنَّهُ سَيَقْضي عُمْرَهُ كُلَّهُ في السِّجْنِ . »

وَلَكِنَّ توم قالَ لَهُ إِنَّهُ سَيَجْعَلُني أُساعِدُهُ في الكِتابَةِ . وَنَظَرَ إِلَيْنا توم وَنَحْنُ نَصْنَعُ ريشَ الكِتابَةِ . كانَتِ الطَّريقَةُ الَّتي نَسْتَخْدِمُها في ذَلِكَ بَطيئَةً وَمُتْعِبَةً ، وَلَمْ تَتْرُكْ لِيَدَيَّ فُرْصَةً كَيْ تُشْفى مِنَ القُروحِ الَّتي أَصابَتْها . وَكانَ مِنَ الواضِحِ أَنَّنا لا نَتَقَدَّمُ خُطْوَةً في هَذا العَمَلِ ، وَلِذَلِكَ قالَ توم : « أَنا أَعْرِفُ كَيْفَ أَصْنَعُها . نَسْتَطيعُ أَنْ

نَصْطادَ عُصْفورَيْنِ بِحَجَرٍ واحِدٍ . هُناكَ مِسَنٌّ حَجَرِيٌّ عِنْدَ المَنْجَرِ . سَنَسْرِقُهُ وَنَحْفِرُ عَلَيْهِ المُذَكِّراتِ ، وَفي نَفْسِ الوَقْتِ نَسُنُّ عَلَيْهِ ريشَ الكِتابَةِ وَالمِنْشارَ . »

قُمْنا بِإِحْضارِ المِسَنِّ الحَجَرِيِّ ، وَشَرَعْنا في دَحْرَجَتِهِ إِلى البَيْتِ . وَلَكِنَّهُ كانَ عَمَلاً شاقّاً عَلَيْنا ، بَلْ إِنَّهُ في بَعْضِ الأَحْيانِ ، وَرَغْمَ ما كُنّا نَبْذُلُ مِنْ جَهْدٍ ، لَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَمْنَعَهُ مِنَ السُّقوطِ . وَكانَ في كُلِّ مَرَّةٍ يَسْقُطُ فيها يوشِكُ أَنْ يَسْحَقَنا تَحْتَهُ . وَغايَةُ ما اسْتَطَعْنا مَعَهُ هُوَ أَنَّنا حَرَّكْناهُ نَحْوَ مُنْتَصَفِ الطَّريقِ ، وَهُنا بَلَغَ مِنّا التَّعَبُ مُنْتَهاهُ ، وَغَرِقْنا في عَرَقِنا ، وَرَأَيْنا أَنْ لا فائِدَةَ مِنْ عَمَلِنا ، وَأَنَّنا يَجِبُ أَنْ نُحْضِرَ جيم كَيْ يُساعِدَنا . فَذَهَبْنا إِلَيْهِ فَقامَ عَلى الفَوْرِ بِرَفْعِ فِراشِهِ وَأَسْقَطَ السِّلْسِلَةَ الَّتي كانَ مُقَيَّداً بِها مِنْ قائِمَةِ الفِراشِ وَلَفَّها حَوْلَ عُنُقِهِ في طَيّاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، وَزَحَفَ مَعَنا إِلى الخارِجِ ، ثُمَّ انْطَلَقْنا إِلى حَيْثُ المِسَنُّ الحَجَرِيُّ ، فَأَمْسَكْتُ أَنا وَجيم بِهِ وَدَحْرَجْناهُ بِكُلِّ سُهولَةٍ ، عَلى حينَ اكْتَفى جيم بِالتَّوْجيهِ وَالإِدارَةِ ، فَقَدْ كانَ ذَلِكَ هُوَ العَمَلَ الَّذي يُتْقِنُهُ ، بَلْ إِنَّني لَمْ أَرَ مِنَ الأَوْلادِ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ في هَذا العَمَلِ .

وَعِنْدَما وَصَلْنا إِلى الحُفْرَةِ المُؤَدِّيَةِ إِلى الكوخِ وَجَدْنا أَنَّها لَمْ تَكُنْ كَبيرَةً بِحَيْثُ تَسَعُ المِسَنُّ الحَجَرِيَّ لِيَنْفُذَ مِنْ خِلالِها ، فَقامَ جيم

بِتَوْسيعِها بِالمِعْوَلِ فَمَرَّ المِسَنُّ مِنْ خِلالِها بِكُلِّ سُهولَةٍ . ثُمَّ قامَ توم بِرَسْمِ الكَلِماتِ عَلى المِسَنِّ مُسْتَخْدِمًا في ذَلِكَ مِسْمارًا ، وَطَلَبَ مِنْ جيم أَنْ يَبْدَأَ العَمَلَ في حَفْرِها بِاسْتِعْمالِ المِسْمارِ وَقِطْعَةٍ مِنَ الحَديدِ في الطَّرْقِ ، وَأَنْ يَظَلَّ يَعْمَلُ وَيَعْمَلُ حَتّى تَذوبَ الشَّمْعَةُ فَيَأْوِيَ إِلى فِراشِهِ وَيُخْفِيَ المِسَنَّ تَحْتَ حَشِيَّةِ القَشِّ ، وَيَنامَ عَلَيْهِ . ثُمَّ ساعَدَنا جيم في تَثْبيتِ السِّلْسِلَةِ بِقائِمَةِ الفِراشِ . وَتَأَهَّبْنا نَحْنُ لِنَأْوِيَ إِلى فِراشِنا ، إِلّا أَنَّ فِكْرَةً خَطَرَتْ لِتوم فَقالَ : « هَلْ لَدَيْكَ عَناكِبُ هُنا ، يا جيم ؟»

قالَ جيم : « لا ، وَأَحْمَدُ اللّهَ عَلى ذَلِكَ ، يا سَيِّدُ توم .»

قالَ توم : « سَنُحْضِرُ لَكَ بَعْضَ العَناكِبِ .»

قالَ جيم : « ولكِنَّني ، يا عَزيزي ، لا أُريدُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ العَناكِبِ ، فَأَنا أَخافُ مِنْها ، وَأُفَضِّلُ أَنْ تَكونَ حَوْلي حَيّاتٌ وَلا أَرى هَذِهِ العَناكِبَ .»

اِسْتَغْرَقَ توم في التَّفْكيرِ لَحْظَةً ، وَأَخيرًا صاحَ : « إِنَّها فِكْرَةٌ جَيِّدَةٌ ، يا جيم . أَيْنَ كُنْتَ تُخْفيها ؟ »

قالَ جيم : « أُخْفي ماذا ، يا سَيِّدُ توم ؟»

قالَ توم : « فِكْرَةَ الحَيّاتِ .»

قالَ جيم : « يا إِلَهِيَ الرَّحيمَ ! ماذا تَقولُ ، يا سَيِّدُ توم ؟ لَوْ دَخَلَتْ حَيَّةٌ هُنا ، فَسَأَنْطَلِقُ خارِجًا بِرَأْسي مِنْ خِلالِ هَذا الجِذْعِ .»

قالَ توم : « لا يُمْكِنُ أَنْ تَخافَ مِنْها بِهَذا الشَّكْلِ ، يا جيم . كَما أَنَّكَ تَسْتَطيعُ أَنْ تُرَوِّضَها بِقَليلٍ مِنَ الوَقْتِ .»

صاحَ جيم : « أُرَوِّضُها ! »

قالَ توم : « نَعَمْ وَبِكُلِّ سُهولَةٍ ، فَكُلُّ الحَيَواناتِ تُحِبُّ الرِّفْقَ وَالتَّدْليلَ ، وَلا تُفَكِّرُ في إيذاءِ مَنْ يُلاطِفُها . تَسْتَطيعُ أَنْ تَجِدَ ذَلِكَ مُدَوَّنًا في الكُتُبِ . لَنْ يَمُرَّ وَقْتٌ طَويلٌ حَتّى تَجْعَلَ الثُّعْبانَ يُحِبُّكَ ، وَيَنامُ مَعَكَ في فِراشِكَ ، وَيَتْرُكُكَ تَلُفُّهُ حَوْلَ عُنُقِكَ وَتَضَعُ رَأْسَهُ في فَمِكَ .»

قالَ جيم : « أَرْجوكَ ، يا سَيِّدُ توم ، أَلا تَتَفَوَّهَ بِمِثْلِ هَذا الكَلامِ ، فَأَنا لا طاقَةَ لي عَلى احْتِمالِهِ. هَلْ سَيَتْرُكُني الثُّعْبانُ أُدْخِلُ رَأْسَهُ في فَمي ؟! أَعِرْفانًا مِنْهُ بِالجَميلِ ؟ وَهَلْ سَيَنْتَظِرُ طَويلاً جِدًّا ، يا سَيِّدُ توم ، قَبْلَ أَنْ أَسْأَلَهُ مِثْلَ هَذا الصَّنيعِ ؟! كَما أَنَّني لا أُريدُهُ أَنْ يَنامَ في فِراشي .»

قالَ توم : « حَسَنًا ، اِنْسَ هَذا الأَمْرَ إِذا كُنْتَ لا تُوافِقُ عَلَيْهِ بِهَذِهِ الصّورَةِ . نَسْتَطيعُ أَنْ نُحْضِرَ لَكَ بَعْضَ الثَّعابينِ غَيْرِ الضّارَّةِ مِنْ تِلْكَ

الَّتي تَعيشُ في الحُقولِ . وَيُمْكِنُكَ أنْ تَرْبُطَ بَعْضَ الأزْرارِ في ذَيْلِها وَتَدَّعِيَ لِنَفْسِكَ أنَّها مِنَ الحَيّاتِ المُصَلْصِلَةِ . أعْتَقِدُ أنَّ هَذا مُناسِبٌ .»

قالَ جيم : « حَسَناً ، يا سَيِّدُ توم ، سَأَتَحَمَّلُ هَذِهِ الثَّعابِينَ ، وَلَكِنِّي أعْتَقِدُ أنَّني سَأَكونُ أحْسَنَ حالاً بِدونِها . لَمْ يَدُرْ بِخَلَدي أنْ يُلاقِيَ السَّجينُ كُلَّ هَذِهِ المُضايَقاتِ .»

قالَ توم : « إنَّهُ يُلاقي أشَدَّ مِنْ هَذا ، عِنْدَما يَتِمُّ الأمْرُ بِشَكْلٍ صَحيحٍ . هَلْ لَدَيْكَ هُنا أيَّةُ فِئْرانٍ ؟»

قالَ جيم : « لا ، يا سَيِّدي ، لَمْ أرَ فِئْراناً هُنا .»

قالَ توم : « حَسَناً سَنُحْضِرُ لَكَ بَعْضاً مِنْها .»

قالَ جيم : « لِماذا ، يا سَيِّدُ توم ؟ أنا لا أريدُ فِئْراناً . إنَّها أسْوَأُ الكائِناتِ الَّتي تُسَبِّبُ إزْعاجاً لِلإنْسانِ .»

قالَ توم : « وَلَكِنْ ، يا جيم ، لا بُدَّ أنْ يَكونَ لَدَيْكَ فِئْرانٌ ، فَالسُّجَناءُ لا بُدَّ مِنْ وُجودِ فِئْرانٍ مَعَهُمْ ؛ لِيَقوموا بِتَدْريبِها وَتَدْليلِها ، وَتَعْليمِها القِيامَ بِبَعْضِ الحِيَلِ ؛ فَتُصْبِحَ لَهُمُ الفِئْرانُ أصْدِقاءَ ، مِثْلُها مِثْلُ الذُّبابِ .»

قالَ جيم : « سَأَفْعَلُ ما تَقولُهُ إذا كانَ لا بُدَّ لي مِنْ أنْ أفْعَلَهُ .»

انْتَظَرَ توم قَليلاً ، وَراحَ يُفَكِّرُ فيما إذا كانَ قَدْ نَسِيَ شَيْئاً آخَرَ ، ثُمَّ قالَ : « آهٍ ، لَقَدْ نَسيتُ . هَلْ تَسْتَطيعُ أنْ تَزْرَعَ هُنا زَهْرَةً ؟»

قالَ جيم : « إنَّ أحَدَ تِلْكَ الأعْشابِ الكَبيرَةِ المَوْجودَةِ بِالخارِجِ قَدْ يَصْلُحُ لِأنْ يَنْمُوَ هُنا ، يا سَيِّدُ توم . وَلَكِنَّهُ في رَأْيِي لا يُساوي نِصْفَ ما سَيُبْذَلُ مِنْ جَهْدٍ في زِراعَتِهِ .»

قالَ توم : « أنْتَ لا تُؤْمِنُ بِذَلِكَ . عُموماً سَنُحْضِرُ لَكَ نَبْتَةً صَغيرَةً وَعَلَيْكَ أنْ تَغْرِسَها في هَذا الرُّكْنِ ، وَتَرْعاها . لا تَدْعوها عُشْباً ، بَلْ أطْلِقْ عَلَيْها اسْمَ « بَهْجَة السَّجين » فَهَذا هُوَ اسْمُها الصَّحيحُ في السِّجْنِ ، وَيَنْبَغي عَلَيْكَ أنْ تَرْوِيَها بِدُموعِكَ .»

قالَ جيم : « لِماذا ؟ إنَّ لَدَيَّ هُنا كَثيراً مِنْ مِياهِ الآبارِ ، يا سَيِّدُ توم .»

قالَ توم : « أنْتَ لَسْتَ في حاجَةٍ إلى مِياهِ الآبارِ ، إذْ لا بُدَّ لَكَ مِنْ أنْ تَرْوِيَها بِدُموعِكَ ، فَهَذِهِ هِيَ الطَّريقَةُ الَّتي يَسيرُ عَلَيْها السُّجَناءُ .»

قالَ جيم : « إذاً سَتَموتُ عَلى يَدَيَّ . بِالتَّأْكيدِ سَتَموتُ لِأنَّني لا أبْكي إلّا نادِراً .»

بُهِتَ توم وَكَأنَّهُ قَدْ هُزِمَ . وَلَكِنَّهُ أعادَ التَّفْكيرَ في الأمْرِ ، ثُمَّ قالَ

إنَّ على جيم أنْ يَستَدِرَّ دُموعَهُ بِالبَصلِ ، وَ وَعَدَ بِأنْ يَذْهَبَ إلى المَطْبَخِ في الصَّباحِ ، وَأنْ يُسْقِطَ سِرًّا بَصلَةً في بَرّادِ القَهْوَةِ الّذي سَيُرْسِلونَهُ إلى جيم . فَقالَ جيم إنَّنا لَوْ وَضَعْنا تَبْغًا في قَهْوَتِهِ فَلَنْ يَكونَ أسْوَأَ مِنْ وَضْعِ البَصَلِ ، وَإنَّهُ سَيَجِدُ في شُرْبِها مَشَقَّةً ، مِثْلَما سَيَجِدُ فيما سَيَقومُ بِهِ مِنْ جَهْدٍ وَما سَيُلاقيهِ مِنْ عَنَتٍ في زِراعَةِ هَذِهِ الأعْشابِ ، وَفي تَدْليلِ وَمُداعَبَةِ الفِئْرانِ وَالثَّعابينِ وَالعَناكِبِ ، وَفَوْقَ كُلِّ هَذا فيما هُوَ مَطْلوبٌ مِنْهُ القِيامُ بِهِ بِخُصوصِ ريشِ الكِتابَةِ وَتَدْوينِ المُذَكِّراتِ . إنَّ هَذا يَزيدُ مِنْ مَتاعِبِهِ وَمَسْئوليَّتِهِ بِوَصْفِهِ سَجيناً . وَذَلِكَ أكْثَرُ بِكَثيرٍ مِمّا خَبِرَهُ في حَياتِهِ . وَعِنْدَئِذٍ نَفِدَ صَبْرُ توم وَقالَ إنَّ أمامَ جيم فُرَصاً عَظيمَةً ، أعْظَمَ مِنْ أيِّ سَجينٍ آخَرَ في العالَمِ ، فُرَصاً تَجْعَلُهُ مَشْهوراً ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ لا يَعْرِفُ كَيْفَ يَسْتَغِلُّها . وَهَذِهِ الفُرَصُ توشِكُ أنْ تَضيعَ مِنْهُ . وَهُنا اعْتَذَرَ جيم قائِلاً بِأنَّهُ لَنْ يَعودَ مَرَّةً أُخْرى لِمِثْلِ هَذا التَّصَرُّفِ . وَعِنْدَئِذٍ اتَّخَذْتُ أنا وَتوم طَريقَنا نَحْوَ الفِراشِ .

الفَصْلُ العِشْرون

فِئْرانٌ وَثَعابينُ وَرَسائِلُ غُفْلٌ مِنَ التَّوْقيعِ

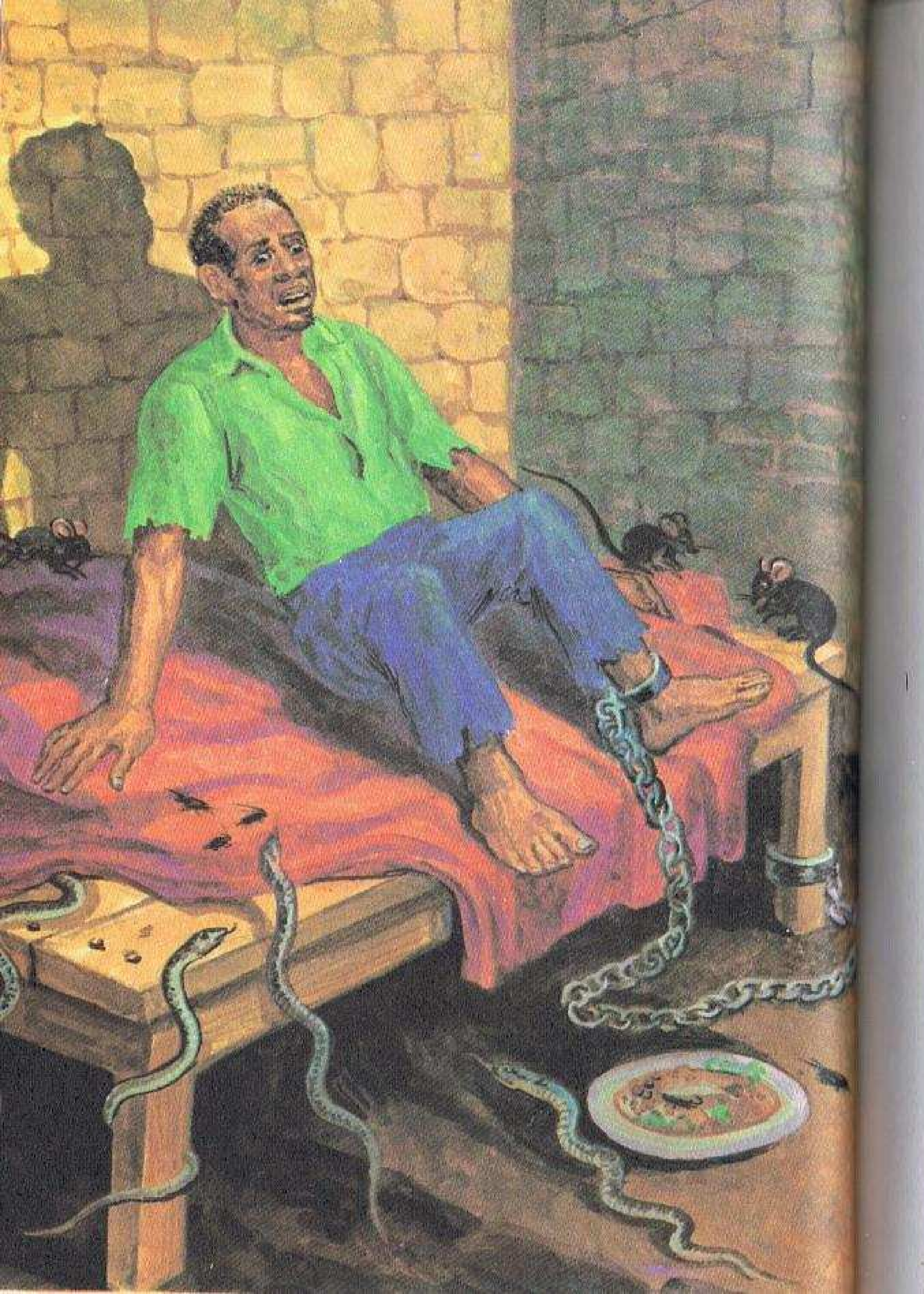
في الصَّباحِ قُمْنا بِشِراءِ مِصْيَدَةٍ لِلْفِئْرانِ مِنَ القَرْيَةِ ، وَفَتَحْنا أحَدَ شُقوقِ الفِئْرانِ وَ وَضَعْناها فيهِ ، وَلَمْ تَمْضِ نِصْفُ ساعَةٍ حَتّى كانَ لَدَيْنا خَمْسَةَ عَشَرَ فَأراً مِنْ أضْخَمِ الفِئْرانِ . ثُمَّ قُمْنا بِوَضْعِ المِصْيَدَةِ تَحْتَ سَريرِ الخالَةِ سالي . وَهُناكَ عَثَرَ عَلَيْها الصَّغيرُ توماس فرانكلين بنيامين جيفرسون ألكسندر فيلِبس ، وَفَتَحَ بابَها لِيَرى إذا ما كانَتِ الفِئْرانُ تَسْتَطيعُ الخُروجَ مِنْ مِصْيَدَتِها أوْ لا ، وَلَمْ تُخَيِّبِ الفِئْرانُ ظَنَّهُ فَخَرَجَتْ . وَحينَ عُدْنا وَجَدْنا الخالَةَ سالي واقِفَةً عَلى السَّريرِ تَصْرُخُ رُعْباً ، عَلى حينِ كانَتِ الفِئْرانُ تَبْذُلُ أقْصى ما في وُسْعِها لِتَسْلِيَتِها ، مِمّا دَعا الخالَةَ سالي إلى أنْ تَضْرِبَنا بِالعَصا . وَقَدْ قَضَيْنا ساعَتَيْنِ لِنَصْطادَ خَمْسَةَ عَشَرَ فَأراً أُخْرى .

وَحَصَلْنا عَلى مَجْموعَةٍ رائِعَةٍ مِنْ مُخْتَلِفِ أنْواعِ العَناكِبِ والحَشَراتِ وَكُلِّ أنْواعِ المَخْلوقاتِ الأُخْرى . وَاصْطَدْنا حَوالى

العِشْرينَ مِنْ ثَعابينِ الحُقولِ وَثَعابينِ البَيْتِ ، وَتَرَكْناها في حَقيبَةٍ وَضَعْناها في غُرْفَتِنا . وَحانَ في ذٰلِكَ الوَقْتِ ميعادُ العَشاءِ ، وَلَمّا كُنّا قَدِ اشْتَغَلْنا في هٰذا اليَوْمِ بِأَمانَةٍ وَإِخْلاصٍ فَقَدْ كُنّا في شِدَّةِ الجوعِ ، فَذَهَبْنا لِنَأْكُلَ ، غَيْرَ أَنَّنا عِنْدَما رَجَعْنا بَعْدَ تَناوُلِ طَعامِ العَشاءِ لَمْ نَجِدْ في الحَقيبَةِ ثُعْباناً واحِداً ؛ فَلَمْ يَكُنْ رِباطُنا لِلْحَقيبَةِ مُحْكَماً ، وَمِنْ ثَمَّ اسْتَطاعَتِ الثَّعابينُ أَنْ تَجِدَ لَها طَريقاً لِلْخارِجِ بِطَريقَةٍ أَوْ بِأُخْرى . وَلَمْ نَهْتَمَّ بِالأَمْرِ ، فَما دامَتِ الثَّعابينُ مُخْتَفِيَةً في مَكانٍ ما بِالمَنْزِلِ ، فَمِنْ ثَمَّ كانَ في حُسْبانِنا أَنَّنا نَسْتَطيعُ أَنْ نَحْصُلَ عَلى بَعْضِها مَرَّةً أُخْرى ، إِلّا أَنَّ الأُمورَ لَمْ تَجْرِ حَسْبَما قَدَّرْنا ؛ لَقَدِ انْتَشَرَتِ الثَّعابينُ في كُلِّ مَكانٍ بِالبَيْتِ زَمَناً طَويلاً . وَكُنْتَ تَرى البَعْضَ مِنْها يَتَساقَطُ مِنْ عارِضاتِ السَّقْفِ وَمِنْ أَماكِنَ أُخْرى ، بَيْنَ الفَيْنَةِ وَالفَيْنَةِ . ثُمَّ إِنَّها بِوَجْهٍ عامٍّ كانَتْ إِمّا تَسْتَقِرُّ في الطَّبَقِ الَّذي أَمامَكَ تَتَناوَلُ مِنْهُ الطَّعامَ وَإِمّا تَزْحَفُ عَلى ظَهْرِكَ مِنَ الخَلْفِ ، في وَقْتٍ تَكونُ فيهِ غَيْرَ راغِبٍ فيها أَوْ في رُؤْيَتِها . كانَتْ جَميلَةَ المَنْظَرِ ، مُرَقَّشَةَ الجِلْدِ ، لا تُسَبِّبُ أَذًى ، وَلٰكِنَّ هٰذا لَمْ يَكُنْ لِيُمَثِّلَ فارِقاً جَوْهَرِيّاً بَيْنَها وَبَيْنَ الثَّعابينِ الضّارَّةِ في نَظَرِ الخالَةِ سالي ، فَالثَّعابينُ بِوَجْهٍ عامٍّ تُميتُها رُعْباً ، وَلا تَسْتَطيعُ أَنْ تَحْتَمِلَها بِأَيِّ ثَمَنٍ . وَكانَتْ في كُلِّ مَرَّةٍ يَسْقُطُ عَلَيْها ثُعْبانٌ تُلْقي ما في يَدِها مِنْ عَمَلٍ أَيّاً كانَ ، وَتَصْرُخُ وَتُصيبُها الرِّعْدَةُ ، وَلَمْ أَرَ في

حَياتي امْرَأَةً مِثْلَها . كُنْتَ تَسْمَعُ صَرْخَتَها عَلى بُعْدِ كيلومِتْراتٍ ، وَلَمْ يَكُنْ في اسْتِطاعَتِكَ إِقْناعُها بِأَنْ تَلْتَقِطَ واحِداً مِنْ هٰذِهِ الثَّعابينِ عَلى عَصاً . وَعِنْدَما كانَتْ تَتَقَلَّبُ في فِراشِها وَتَجِدُ واحِداً مِنْها راقِداً في الفِراشِ كانَتْ تَقْفِزُ عَلى قَدَمَيْها وَتُطْلِقُ صَرْخَةً مُدَوِّيَةً تَجْعَلُكَ عِنْدَ سَماعِها تَظُنُّ أَنَّ البَيْتَ قَدْ شَبَّتْ فيهِ النّيرانُ . وَرَغْمَ أَنَّهُ قَدِ انْقَضى أُسْبوعٌ عَلى اخْتِفاءِ آخِرِ ثُعْبانٍ إِلّا أَنَّ الخالَةَ سالي لَمْ تَكُنْ قَدْ تَغَلَّبَتْ عَلى فَزَعِها بَعْدُ ، فَلَوْ أَنَّكَ جِئْتَ إِلَيْها وَهِيَ غارِقَةٌ في أَفْكارِها أَثْناءَ جُلوسِها وَلَمَسْتَها عَلى قَفاها بِريشَةِ طائِرٍ فَإِنَّها سَتَقْفِزُ أَمْتاراً لأَعْلى . كانَ أَمْرُها غَريباً ، وَلٰكِنَّ توم قالَ لي إِنَّ النِّساءَ جَميعَهُنَّ يُشْبِهْنَ هٰذِهِ المَرْأَةَ ، فَقَدْ خُلِقْنَ عَلى هٰذا المِنْوالِ لِسَبَبٍ أَوْ لآخَرَ .

كانَتِ الخالَةُ سالي تَجْلِدُنا بِالسَّوْطِ في كُلِّ مَرَّةٍ يَعْتَرِضُ طَريقَها أَحَدُ الثَّعابينِ ، وَقَدْ أَعْلَنَتْ لَنا أَنَّ هٰذا الجَلْدَ لَيْسَ شَيْئاً بِالنِّسْبَةِ لِما سَتَفْعَلُهُ فينا إِذا مَلأْنا المَنْزِلَ مَرَّةً أُخْرى بِالثَّعابينِ . وَلَمْ أَكُنْ أَهْتَمُّ بِهٰذا الجَلْدِ ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُؤْذيني ، وَلٰكِنْ ما كانَ يُهِمُّني هُوَ المَشَقَّةُ الَّتي سَنُلاقيها في جَمْعِ عَدَدٍ آخَرَ مِنَ الثَّعابينِ . عَلى أَنَّنا حَصَلْنا عَلَيْها في آخِرِ الأَمْرِ ، كَما حَصَلْنا عَلى الأَشْياءِ الأُخْرى . وَكَمْ كانَ مَنْظَرُ الكوخِ يُثيرُ البَهْجَةَ عِنْدَما بَدَأَتْ هٰذِهِ المَخْلوقاتُ



تَنْسابُ نَحْوَ جيم ! وَمعَ ذَلِكَ لَمْ يُحِبَّ جيم العَناكِبَ وَلَمْ تُحِبَّ العَناكِبُ جيم . وَقَدْ قالَ إنَّهُ لَمْ يَعُدْ هُناكَ مكانٌ لِفراشِهِ بيْنَ هَذِهِ الفِئْرانِ وَالثَّعابينِ والمِسَنِّ الحَجَرِيِّ . وَقالَ أيْضاً إنَّهُ لَوْ قُدِّرَ لَهُ أنْ يَخْرُجَ مِنْ هُنا هَذِهِ المَرَّةَ فَلَنْ يُوافِقَ على أنْ يكونَ سجيناً مَرَّةً أخرى، حَتّى وَلَوْ أعْطَوْهُ مُرَتَّباً على ذَلِكَ .

وَما إنِ انقَضَتْ ثَلاثَةُ أسابيعَ حَتّى كانَ كُلُّ شَيْءٍ في أجْمَلِ صُورِهِ. وَكُنّا قَدْ أرْسَلْنا لِجيم القَميصَ في إحْدى الفَطائِرِ في الأيّامِ الأولى ، وَمِنْ هُنا كانَ كُلَّما عَضَّهُ أحَدُ الفِئْرانِ يَنْهَضُ مِنْ مَرْقَدِهِ ، وَيُدَوِّنُ ما يُعاني مِنْ ألَمٍ قَبْلَ أنْ يَجِفَّ الحِبْرُ الّذي صَنَعَهُ الفَأْرُ بِعَضَّتِهِ . ثُمَّ إنّنا كُنّا قَد صَنَعْنا ريشَ الكِتابَةِ ، وَحَفَرَ جيم ذِكْرَياتِهِ على المِسَنِّ الحَجَرِيِّ ، وَنَشَرْنا قائِمَةَ الفِراشِ وَأكَلْنا النُّشارَةَ كُلَّها ، فَسَبَّبَتْ لَنا مَغَصاً فَظيعاً ، ظَنَنّا مَعَهُ أنَّنا سَنَموتُ ، إلّا أنَّ ذَلِكَ لَمْ يَحْدُثْ .

وَكَما قُلْتُ لَقَدْ تَمَّ كُلُّ شَيْءٍ أخيراً بَعْدَ أنْ نالَ مِنّا الإرْهاقُ كُلَّ مَنالٍ ، لا سِيَّما جيم . وَكانَ الرَّجُلُ العَجوزُ قَدْ كَتَبَ عِدَّةَ مَرّاتٍ إلى المَزْرَعَةِ الكائِنَةِ بِالقُرْبِ مِنْ نيو أورليانز يَطْلُبُ مِنْ أصْحابِها أنْ يَأتوا لِيَتَسلَّموا عَبْدَهُمُ الهارِبَ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَلَقَّ رَدّاً . وَذَلِكَ لِسَبَبٍ بَسيطٍ هُوَ أنَّ تِلْكَ المَزْرَعَةَ لَمْ يَكُنْ لَها وُجودٌ .

وَلِذَلِكَ فَقَدْ قَرَّرَ أَنْ يُعْلِنَ عَنْ جيم في صُحُفِ سان لوي ، ونيو أورليانز . وَقَدْ صُدِمْتُ عِنْدَما ذَكَرَ صُحُفَ سان لوي ، فَرَأَيْتُ أَنَّهُ لَيْسَ لَدَيْنا وَقْتٌ لِنُضَيِّعَهُ .

قالَ توم : « الآنَ إلى الرَّسائِلِ الغُفْلِ مِنَ التَّوْقيعِ . »

سَأَلْتُهُ : « وَما هِيَ هَذِهِ الرَّسائِلُ ؟ »

قالَ : « رَسائِلُ بِلا تَوْقيعٍ ، تُحَذِّرُ النّاسَ . وَلِهَذِهِ الرَّسائِلِ طَريقَتانِ في الكِتابَةِ ، إلّا أَنَّهُ لا بُدَّ مِنْ وُجودِ شَخْصٍ هُنا أَوْ هُناكَ يَقومُ بِإبْلاغِ مُحافِظِ القَلْعَةِ بِهُروبِ السَّجينِ . فَعِنْدَما كانَ لويس السّادِسَ عَشَرَ يُخَطِّطُ لِمُغادَرَةِ قَصْرِ التويلري قامَتْ خادِمَةٌ صَغيرَةٌ بِالإبْلاغِ عَنْهُ . إنَّها طَريقَةٌ جَيِّدَةٌ جِدًّا ، كَما أَنَّ الرَّسائِلَ الغُفْلَ مِنَ التَّوْقيعِ تُماثِلُها في جَوْدَتِها ، وَسَنَسْتَعْمِلُ كِلتا الطَّريقَتَيْنِ . وَكَذَلِكَ فَإنَّهُ مِنَ المُعْتادِ في حالاتِ هُروبِ السُّجَناءِ أَنْ تَتَبادَلَ أُمُّ السَّجينِ المَلابِسَ مَعَهُ ، ثُمَّ تَمْكُثَ هِيَ في السِّجْنِ عَلى حينِ يَتَسَلَّلُ هُوَ خارِجًا في مَلابِسِها . وَسَنَفْعَلُ هَذا أَيْضًا . »

قُلْت : « وَلَكِنِ اسْمَعْني ، يا توم ، لِماذا نُحَذِّرُهُمْ مِنْ هُروبِ جيم ؟ دَعْهُمْ يَكْتَشِفوا ذَلِكَ بِأَنْفُسِهِمْ ، فَهَذا شَأْنُهُمْ . »

قالَ توم: « نَعَمْ ، أَعْرِفُ ، وَلَكِنَّكَ لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَعْتَمِدَ عَلَيْهِمْ ،

فَهُمْ بُلَهاءُ ، وَيَثِقونَ بِالآخَرينَ ، لِدَرَجَةِ أَنَّهُمْ لا يُلاحِظونَ هُروبَهُ إطْلاقًا . وَكَذَلِكَ إذا لَمْ نُرْسِلْ لَهُم إخْطارًا فَلَنْ يوجَدَ مَنْ يَعْتَرِضُ طَريقَنا . وَهَكَذا بَعْدَ كُلِّ هَذا العَمَلِ الشّاقِّ الَّذي قُمْنا بِهِ ، وَبَعْدَ المَتاعِبِ الَّتي واجَهْناها سَيَتِمُّ الهُروبُ بِلا مَشاكِلَ إطْلاقًا . سَيَكونُ هُروبًا تافِهًا ، لا يُساوي شَيْئًا . »

قُلْتُ : « وَلَكِنْ بِالنِّسْبَةِ لي ، يا توم ، هَذِهِ هِيَ الطَّريقَةُ الَّتي أُحِبُّها . »

قالَ وَهُوَ يَنْظُرُ مُشْمَئِزًّا : « كَلامٌ فارِغٌ . »

قُلْتُ : « وَلَكِنّي لَنْ أَتَذَمَّرَ ، فَكُلُّ طَريقَةٍ تُناسِبُكَ فَإنَّها تُناسِبُني . ما الَّذي سَتَفْعَلُهُ بِخُصوصِ الخادِمَةِ الصَّغيرَةِ ؟ »

قالَ : « سَتَلْعَبُ أَنْتَ دَوْرَ هَذِهِ الخادِمَةِ ، فَلْتَتَسَلَّلْ في مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ وَتَسْرِقْ رِداءَ الخادِمَةِ الصَّغيرَةِ المَوْجودَةِ في الدّارِ . »

قُلْتُ : « وَلَكِنَّ هَذا سَيُسَبِّبُ لَنا المَتاعِبَ في الصَّباحِ التّالي ، فَرُبَّما لا تَمْلِكُ الخادِمَةُ سِوى هَذا الرِّداءِ . »

قالَ : « أَعْرِفُ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّكَ لَنْ تَسْتَعْمِلَ هَذا الرِّداءَ إلّا لِمُدَّةِ خَمْسَ عَشْرَةَ دَقيقَةً فَقَطْ ، وَذَلِكَ حينَ تَحْمِلُ الرِّسالَةَ الغُفْلَ مِنَ التَّوْقيعِ وَتَدْفَعُها أَسْفَلَ البابِ الخارِجِيِّ . »

قُلْتُ : « حَسَنًا ، سَأقومُ بِهَذا العَمَلِ ، وَلَكِنَّني أَسْتَطيعُ أَنْ أَحْمِلَ الرِّسالَةَ وَأنا مُرْتَدٍ لِمَلابِسي .»

قالَ : « وَلَكِنَّكَ في هَذِهِ الحالَةِ لَنْ تُشْبِهَ الخادِمَةَ ، أَ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟»

قُلْتُ : « بَلى ، وَلَكِنْ لَنْ يَكونَ هُناكَ أَحَدٌ لِيَرى إِذا كُنْتُ أُشْبِهُ الخادِمَةَ أَوْ لا .»

قالَ : « هَذا لا عَلاقَةَ لَهُ بِالأَمْرِ ، فَما عَلَيْنا إِلّا أَنْ نُؤَدِّيَ واجِبَنا ، وَلا يُهِمُّ إِذا كانَ سَيَرانا أَحَدٌ أَوْ لا .»

قُلْتُ : « حَسَنًا ، لَنْ أَتَفَوَّهَ بِشَيْءٍ آخَرَ . سَأَقومُ بِدَوْرِ الخادِمَةِ ، فَمَنْ سَيَقومُ بِدَوْرِ أُمِّ جيم ؟»

قالَ : « أنا سَأَقومُ بِدَوْرِ أُمِّهِ . سَأَسْرِقُ أَحَدَ أَرْدِيَةِ الخالَةِ سالي .»

قُلْتُ : « إِذًا عَلَيْكَ أَنْ تَبْقى في الكوخِ بَعْدَ أَنْ نُغادِرَهُ أَنا وَجيم .»

قالَ : « لا ، سَأَحْشو مَلابِسَ جيم بِالقَشِّ وَأَضَعُها في الفِراشِ لِتَحُلَّ مَحَلَّ أُمِّهِ وَهِيَ تَتَظاهَرُ بِأَنَّها جيم . وَسَيَأْخُذُ جيم الرِّداءَ مِنّي وَيَرْتَديهِ ، وَسَنَهْرُبُ كُلُّنا مَعًا .»

وَهَكَذا كَتَبَ توم الرِّسالَةَ الغُفْلَ مِنَ التَّوْقيعِ ، وَقُمْتُ أَنا بِسَرِقَةِ رِداءِ الخادِمَةِ ، وارْتَدَيْتُهُ وَ دَفَعْتُ بِالرِّسالَةِ أَسْفَلَ البابِ الخارِجِيِّ . وَكانَ نَصُّ الرِّسالَةِ كَما يَلي :

« اِحْذَروا ! المَتاعِبُ أَمامَكُمْ ! اِنْتَبِهوا جَيِّدًا .

صَديقٌ مَجْهولٌ .»

وَفي اللَّيْلَةِ التّالِيَةِ أَلْصَقْنا عَلى البابِ الخارِجِيِّ صورَةَ جُمْجُمَةٍ وَعَظْمَتَيْنِ كانَ توم قَدْ رَسَمَها بِالدَّمِ . وَفي اللَّيْلَةِ الَّتي تَليها أَلْصَقْنا صورَةَ تابوتٍ عَلى البابِ الخَلْفِيِّ .

لَمْ أَرَ في حَياتي عائِلَةً بِمِثْلِ هَذا الرُّعْبِ ، فَلَوْ أَنَّهُمْ عَلِموا أَنَّ البَيْتَ مَسْكونٌ بِالأَشْباحِ لَمْ يَكُنْ خَوْفُهُمْ مِنْها لِيَزيدَ عَلى الرُّعْبِ الَّذي سَبَّبَتْهُ لَهُمْ رُؤْيَةُ هاتَيْنِ الصّورَتَيْنِ .

وَفي فَجْرِ اليَوْمِ التّالي أَعْدَدْنا رِسالَةً أُخْرى ، وَقَدْ سَمِعْناهُمْ أَثْناءَ تَناوُلِ طَعامِ العَشاءِ يَقولونَ إِنَّهُمْ سَيُرْسِلونَ خادِمَيْنِ لِلْحِراسَةِ طَوالَ اللَّيْلِ عِنْدَ كُلِّ بابٍ مِنَ البابَيْنِ . وَهَبَطَ توم عَلى عَمودِ الإِنارَةِ لِيَنْظُرَ في أَرْجاءِ المَكانِ ، فَوَجَدَ أَنَّ الخادِمَ المَوْجودَ عِنْدَ البابِ الخَلْفِيِّ نائِمٌ ، فَأَلْصَقَ الرِّسالَةَ عَلى قَفاهُ . وَكانَتِ الرِّسالَةُ تَقولُ : « سَتَقومُ عِصابَةٌ مِنَ السَّفّاحينَ بِخَطْفِ عَبْدِكُمُ الهارِبِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ . وَلَقَدْ حاوَلوا أَنْ

يَبُثّوا في قُلوبِكُمُ الرُّعْبَ حَتّى يُبْقوكُمْ في البَيْتِ فَلا تُضايِقوهُمْ .
إِنَّني واحِدٌ مِنْ هَذِهِ العِصابَةِ غَيْرَ أَنَّني ابْتَعَدْتُ عَنْ حياةِ السَّلْبِ الَّتي
تَعيشُها ، وَأَرْغَبُ في أَنْ أَعيشَ حَياةً شَريفَةً ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّني سَأَبوحُ
لَكُمْ بِخُطَّتِهِمُ الشِّرّيرَةِ : سَيَقْدِمونَ مُتَسَلِّلينَ مِنَ الشَّمالِ حينَ تَدُقُّ
السّاعَةُ في مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ ، وَيَسيرونَ بِمُحاذاةِ السّورِ ، وَيَفْتَحونَ
البابَ بِمِفْتاحٍ مُقَلَّدٍ ، وَيَتَوَجَّهونَ إِلى كوخِ العَبْدِ الهارِبِ لِيَأْخُذوهُ .
وَقَدْ أَناطوا بي مُهِمَّةَ مُراقَبَةِ الطَّريقِ ، وَمِنْ ثَمَّ فَسَأَتَأَخَّرُ عَنْهُمْ مَسافَةً
قَليلَةً ، وَأَنْفُخُ في النَّفيرِ إِذا رَأَيْتُ خَطَرًا ، إِلّا أَنَّني بَدَلاً مِنْ أَنْ أَفْعَلَ
ذَلِكَ سَأُمَأْمِئُ مِثْلَ الخَروفِ بِمُجَرَّدِ دُخولِهِمُ المَنْزِلَ ، وَلَنْ أَنْفُخَ في
النَّفيرِ إِطْلاقًا . فَإِذا ما سَمِعْتُمْ هَذِهِ المَأْمَأَةَ ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَتَسَلَّلوا إِلى
هُناكَ أَثْناءَ قِيامِهِمْ بِفَكِّ السِّلْسِلَةِ ؛ فَتَحْبِسوهُمْ وَتَقْتُلوهُمْ بِالطَّريقَةِ
الَّتي تَرَوْنَها مُناسِبَةً لَكُمْ . اِفْعَلوا تَمامًا مِثْلَما أَخْبَرْتُكُمْ ؛ لِأَنَّكُمْ إِذا
لَمْ تَفْعَلوا فَإِنّي أَخْشى أَنْ يَرْتابوا فِيَّ وَيَفْشَلَ كُلُّ شَيْءٍ . أَنا لا
أَطْلُبُ مُكافَأَةً لِنَفْسي ، كُلُّ ما أَبْغيهِ هُوَ أَنْ أَقومَ بِعَمَلِ الخَيْرِ . »

« صَديقٌ مَجْهولٌ »

الفَصْلُ الحادي والعِشْرون

« جيم ، أَنْتَ حُرٌّ مَرَّةً أُخْرى ! »

بَعْدَ أَنْ تَناوَلْنا طَعامَ الإِفْطارِ غَمَرَنا إِحْساسٌ بِالرِّضا عَنِ النَّفْسِ ، فَذَهَبْنا لِنَصْطادَ في النَّهْرِ بِزَوْرَقي ، وَأَخَذْنا مَعَنا غَداءَنا . وَقَدْ قَضَيْنا هُناكَ وَقْتًا طَيِّبًا ، وَاطْمَأْنَنّا عَلى حالَةِ الرَّمَثِ . وَعِنْدَما عُدْنا إِلى البَيْتِ مُتَأَخِّرينَ عَنْ طَعامِ العَشاءِ وَجَدْناهُمْ ، كَما تَرَكْناهُمْ ، يَرْزَحونَ تَحْتَ وَطْأَةِ القَلَقِ والرُّعْبِ ، لِدَرَجَةِ أَنَّهُمْ لَمْ يَكونوا يَعْرِفونَ أَ هُمْ واقِفونَ عَلى رُءوسِهِمْ أَمْ عَلى أَرْجُلِهِمْ . وَما إِنْ تَناوَلْنا عَشاءَنا حَتّى أَرْغَموناعَلى الذَّهابِ إِلى فِراشِنا فَوْرًا ، وَلَمْ يَقولوا لَنا كَلِمَةً واحِدَةً عَنِ الرِّسالَةِ ، وَما كُنّا بِحاجَةٍ لِأَنْ يُخْبِرونا ، فَنَحْنُ نَعْرِفُ أَكْثَرَ مِمّا يَعْرِفونَ .

وَبِمُجَرَّدِ صُعودِنا إِلى مُنْتَصَفِ الدَّرَجِ ، وَأَدارَتْ لَنا الخالَةُ سالي ظَهْرَها حَتّى تَسَلَّلْنا هابِطَيْنِ إِلى القَبْوِ ، وَأَعْدَدْنا وَجْبَةً شَهِيَّةً مِنَ الطَّعامِ ، وَأَخَذْناها إِلى غُرْفَتِنا ، ثُمَّ أَوَيْنا إِلى فِراشِنا . وَفي السّاعَةِ

الحاديَةَ عَشْرَةَ وَالنِّصْفِ نَهَضْنا ، وَارْتَدى توم رِداءَ الخالَةِ سالي الَّذي كانَ قَدْ سَرَقَهُ ، وَبَدَأَ في تَناوُلِ الطَّعامِ ، وَسَأَلَني قائِلاً : « أَيْنَ الزُّبْدَةُ ؟»

أَجَبْتُهُ : « لَقَدْ وَضَعْتُها عَلى قِطْعَةٍ مِنَ الخُبْزِ .»

قالَ : « إِنَّها لَيْسَتْ هُنا .»

قُلْتُ : « نَسْتَطيعُ أَنْ نَسْتَغْنِيَ عَنْها .»

قالَ : « اسْتَغْنِ أَنْتَ عَنْها ، أَمّا أَنا فَلا .» ثُمَّ أَضافَ قائِلاً : « تَسَلَّلْ إِلى القَبْوِ وَأَحْضِرْها ، ثُمَّ اهْبِطْ عَلى عَمودِ الإِنارَةِ وَتَعالَ فَوْراً إِلى الكوخِ . أَمّا أَنا فَسَأَذْهَبُ لأَحْشُوَ مَلابِسَ توم بِالقَشِّ ؛ حَتّى تُشْبِهَ أُمَّهُ ، ثُمَّ أَسْتَعِدُّ لأَثْغُوَ مِثْلَ الخَروفِ ، ثُمَّ نَنْصَرِفُ بِمُجَرَّدِ وُصولِكَ إِلى هُناكَ .»

هَبَطْتُ إِلى القَبْوِ فَوَجَدْتُ قِطْعَةَ الزُّبْدَةِ مَوْجودَةً حَيْثُ تَرَكْتُها ، فَأَخَذْتُ الخُبْزَ وَالزُّبْدَةَ وَأَطْفَأْتُ الشَّمْعَةَ الَّتي كانَتْ مَعي . وَما إِنْ وَصَلْتُ إِلى الطّابَقِ الأَرْضِيِّ حَتّى وَجَدْتُ الخالَةَ سالي تَدْخُلُ وَبِيَدِها شَمْعَةٌ ، فَوَضَعْتُ الخُبْزَ وَالزُّبْدَ بِسُرْعَةٍ في قُبَّعَتي وَ وَضَعْتُها فَوْقَ رَأْسي . وَفي تِلْكَ اللَّحْظَةِ رَأَتْني الخالَةُ سالي فَسَأَلَتْني : « ما الَّذي جَعَلَكَ تَهْبِطُ إِلى القَبْوِ في مِثْلِ هذِهِ السّاعَةِ مِنَ اللَّيْلِ ؟»

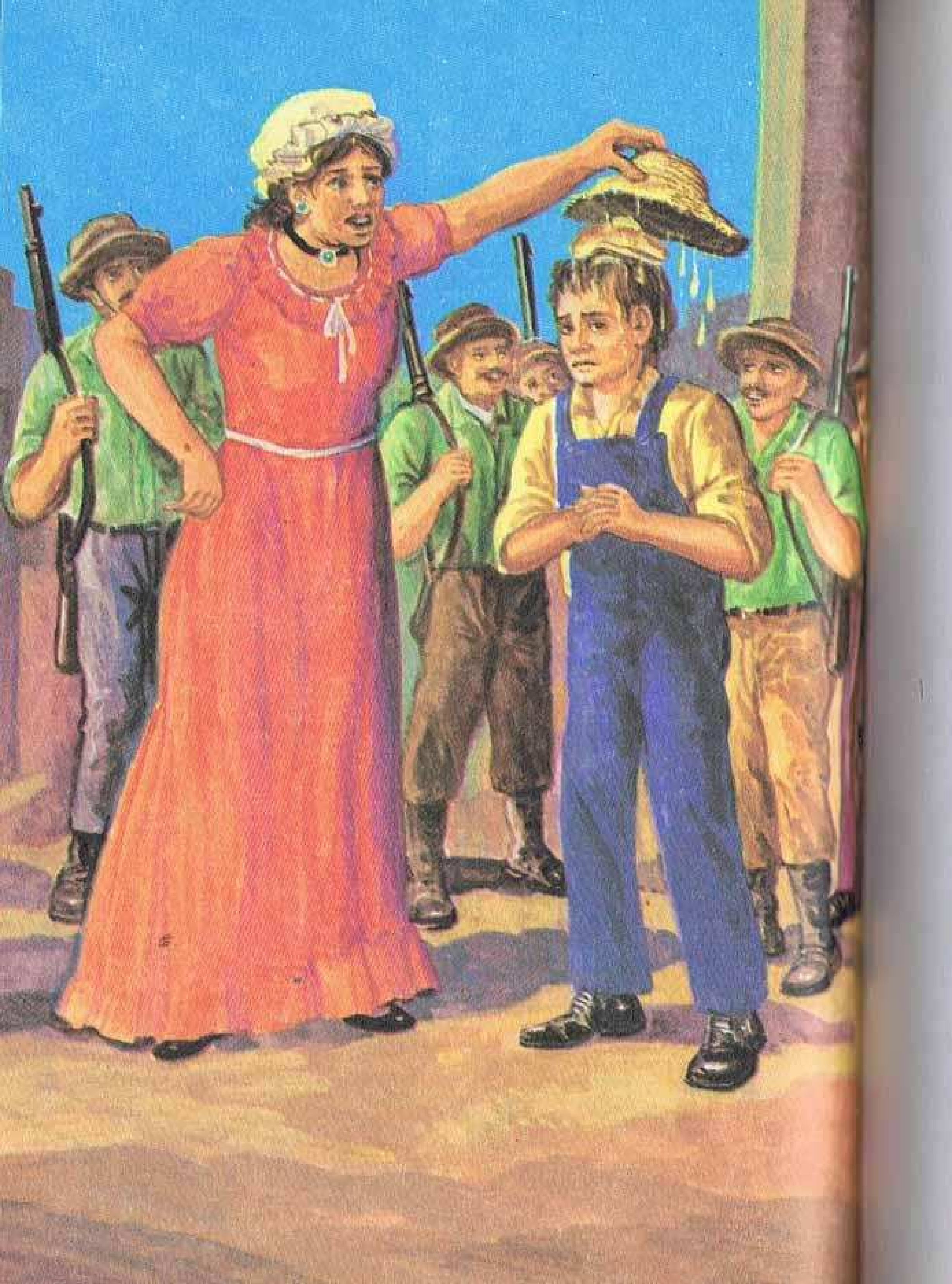
أَجَبْتُ : « لا أَعْرِفُ ، يا سَيِّدَتي .»

قالَتْ : « لا تَعْرِفُ ؟! أُدْخُلْ فَوْراً إِلى غُرْفَةِ الجُلوسِ تِلْكَ ، وابْقَ هُناكَ حَتّى آتِيَكَ . لَقَدْ نَزَلْتَ تَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ ، وَسَأَكْتَشِفُ أَنا هذا الشَّيْءَ قَبْلَ أَنْ أَبْدَأَ التَّحْقيقَ مَعَكَ .»

فَتَحْتُ بابَ غُرْفَةِ الجُلوسِ وَدَخَلْتُ ، فَوَجَدْتُ حَشْداً مِنَ النّاسِ هُناكَ – خَمْسَةَ عَشَرَ مُزارِعاً – وَفي يَدِ كُلٍّ مِنْهُمْ بُنْدُقِيَّةٌ . وَكانَ القَلَقُ وَالتَّوَتُّرُ بادِيَيْنِ عَلى وُجوهِهِمْ رَغْمَ أَنَّهُمْ يُحاوِلونَ إِخْفاءَهُما .

وَتَمَنَّيْتُ لَوْ أَنَّ الخالَةَ سالي جاءَتْ ، وَانْتَهَتْ مِنْ سُؤالي ، حَتّى أَسْتَطيعَ أَنْ أَذْهَبَ وَأُخْبِرَ توم بِما رَأَيْتُ ، فَنوقِفَ هذا الحُمْقَ الَّذي نَفْعَلُهُ ، وَنَهْرُبَ مَعَ جيم قَبْلَ أَنْ يَنْفَدَ صَبْرُ هَؤُلاءِ الصِّحابِ وَيُهاجِمونا .

وَأَخيراً جاءَتِ الخالَةُ سالي ، وَ وَجَّهَتْ إِلَيَّ بَعْضَ الأَسْئِلَةِ ، غَيْرَ أَنّي لَمْ أُحِرْ جَواباً ؛ فَقَدْ كُنْتُ في حالَةٍ يُرْثى لَها ؛ لأَنَّ الرِّجالَ كانوا قَدِ ازْدادَ تَوَتُّرُهُمْ في تِلْكَ الآوِنَةِ ، وَكانَ البَعْضُ مِنْهُمْ يُريدُ أَنْ يَذْهَبَ في الحالِ فَيَكْمُنَ لِلسَّفّاحينَ ، فَلَمْ تَبْقَ سِوى دَقائِقَ قَليلَةٌ عَلى مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ ، عَلى حينِ كانَ الآخَرونَ يَطْلُبونَ مِنْهُمُ الانْتِظارَ حَتّى يَسْمَعوا إِشارَةَ ثُغاءِ الخَروفِ ، وَفي هذِهِ اللَّحْظَةِ كانَتِ



الخالَةُ سالي تَسْأَلُني السُّؤالَ تِلْوَ الآخَرِ ، على حين أخذَ جَسَدي يَرْتَعِدُ وَيَكادُ يَغوصُ في الأرْضِ رُعْباً . وَبَعْدَ قَليلٍ عِنْدَما سَمِعْتُ أحَدَهُمْ يَقولُ : « إنَّني أؤَيِّدُ الذَّهابَ فَوْراً والدُّخولَ إلى الكوخِ أوَّلاً ، حَتّى نَقْبِضَ عَلَيْهِمْ حينَ يَأتونَ . » سَقَطْتُ أرْضاً ، وَسالَتِ الزُّبْدَةُ – الَّتي كانَتْ قَدْ ذابَتِ – عَلى وَجْهي . وَعِنْدَما رَأتِ الخالَةُ سالي الزُّبْدَ شَحَبَ وَجْهُها فَصارَ في بَياضِ مُلاءَةِ السَّريرِ ، وَقالَتْ : « يا إلهي ! ماذا جَرى لِلْوَلَدِ ؟ إنَّهُ مُصابٌ بِحُمّى شَوْكِيَّةٍ ، أنا موقِنَةٌ مِنْ هَذا مِثْلَما أنا موقِنَةٌ مِنْ أنَّني جالِسَةٌ هُنا . مُخُّهُ يَخْرُجُ مِنْ رَأسِهِ . »

وَجَرى كُلُّ مَنْ كانَ في الغُرْفَةِ نَحْوي لِيَرى ، وَقامَتْ هِيَ بِخَلْعِ قُبَّعَتي مِنْ فَوْقِ رَأسي ، وَهُنا بَرَزَ الخُبْزُ وَما تَبَقّى مِنَ الزُّبْدَةِ ، فاحْتَضَنَتْني الخالَةُ سالي وَقالَتْ : « لَقَدْ سَبَّبْتَ لي فَزَعاً ، فَعِنْدَما رَأيْتُ هَذِهِ الزُّبْدَةَ تَسيلُ عَلى وَجْهِكَ ظَنَنْتُ أنَّنا فَقَدْناكَ ، فَلَوْنُ الزُّبْدِ يُشْبِهُ لَوْنَ مُخِّكَ ... يا عَزيزي .. يا عَزيزي ، لِماذا لَمْ تُخْبِرْني بِأنَّ هَذا هُوَ الَّذي جَعَلَكَ تَهْبِطُ إلى القَبْوِ . اِذْهَبْ إلى فِراشِكَ الآنَ ، وَلا تَجْعَلْني أراكَ مَرَّةً أخْرى حَتّى الصَّباحِ . »

صَعِدْتُ إلى الطّابَقِ العُلْوِيِّ في ثانِيَةٍ ، وَفي الثّانِيَةِ التّالِيَةِ كُنْتُ قَدْ هَبَطْتُ عَلى عَمودِ الإنارةِ ، وَأخَذْتُ أعْدو نَحْوَ السَّقيفَةِ حَتّى وَصَلْتُها ، فَتَسَلَّلْتُ إلى الكوخِ . لَمْ أكُنْ أسْتَطيعُ إخْراجَ الكَلِماتِ

مِنْ شِدَّةِ القَلَقِ الَّذي انْتابَني ، غَيْرَ أَنَّني أَخْبَرْتُ توم ، بِأَقْصى ما يُمْكِنُني مِنْ سُرْعَةٍ ، بِأَنَّهُ لَيْسَ أَمامَنا دَقيقَةٌ لِنُضَيِّعَها ، وَعَلَيْنا أَنْ نَهْرُبَ فَوْراً ، فالمَنْزِلُ مَمْلوءٌ بِرِجالٍ يَحْمِلونَ البَنادِقَ .

لَمَعَتْ عَيْنا توم وَقالَ: « أَ هَذا صَحيحٌ ؟ أَ لَيْسَ هَذا شَيْئاً رائِعاً ؟ لَوْ أُتيحَ لي أَنْ أَصْنَعَ ما صَنَعْتُ مَرَّةً أُخْرى فَإِنَّ بِاسْتِطاعَتي أَنْ أُحْضِرَ مِئَتَيْ رَجُلٍ . لَوْ كانَ في إِمْكانِنا تَأْجيلُ الهَرَبِ حَتّى ...»

قُلْتُ لَهُ مُقاطِعاً : « أَسْرِعْ ، أَسْرِعْ ! أَيْنَ جيم ؟»

قالَ : « إِنَّهُ بِجِوارِكَ مُباشَرَةً ، مُرْتَدِياً مَلابِسَ أُمِّهِ . كُلُّ شَيْءٍ جاهِزٌ . الآنَ نَسْتَطيعُ أَنْ نَتَسَلَّلَ ، وَنُطْلِقَ إِشارَةَ ثُغاءِ الخَروفِ .»

وَلَكِنَّنا سَمِعْنا في هَذِهِ اللَّحْظَةِ صَوْتَ أَقْدامِ الرِّجالِ وَهُمْ قادِمونَ صَوْبَ البابِ ، وَسَمِعْناهُم وَهُمْ يَهُزّونَ القُفْلَ . وَقالَ أَحَدُهُمْ : « لَقَدْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّنا تَعَجَّلْنا ، فَها هُمْ لَمْ يَأْتوا بَعْدُ ، وَها هُوَ البابُ مُغْلَقٌ بِالقُفْلِ . لِيَدْخُلْ بَعْضُكُمُ الآنَ إِلى الكوخِ ، وَأُغْلِقْ أَنا البابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الخارِجِ ، فَتَكْمُنوا هُناكَ لَهُمْ في الظَّلامِ حَتّى يَأْتوا ، فَتَقْتُلوهُمْ ، عَلى حينِ يَنْتَشِرُ الآخَرونَ في أَرْجاءِ المَكانِ يَتَسَمَّعونَ مَجيئَهُمْ . »

وَهَكَذا دَخَلَ بَعْضُهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَتَبَيَّنونا في الظَّلامِ ، عَلى

حينَ أَسْرَعْنا نَحْنُ فَنَزَلْنا مِنْ تَحْتِ الفِراشِ ، وَخَرَجْنا مِنَ الحُفْرَةِ في سُكونٍ ، فَصِرْنا في السَّقيفَةِ . وَكُنّا نَسْمَعُ أَصْواتَ الأَقْدامِ في الخارِجِ وَهِيَ تَدْنو مِنّا . وَهَمَسَ توم قائِلاً إِنَّ عَلَيْنا أَنْ نَبْدَأَ في التَّسَلُّلِ خارِجاً عِنْدَما يَدْفَعُنا بِيَدِهِ ، وَسَيَكونُ هُوَ آخِرَنا في الخُروجِ . وَراحَ يَتَسَمَّعُ صَوْتَ الأَقْدامِ وَهِيَ تَضْرِبُ وَجْهَ الأَرْضِ في سَيْرِها هُنا وَهُناكَ . وَأَخيراً دَفَعَنا بِرِفْقٍ ، فانْسَلَلْنا خارِجينَ ، وَتَسَلَّلْنا نَحْوَ السّورِ ، وَقَفَزْناهُ أَنا وَجيم . أَمّا توم فَقَدِ اشْتَبَكَ سِرْوالُهُ في مِسْمارٍ بِالسّورِ ، وَفي هَذِهِ اللَّحْظَةِ سَمِعَ صَوْتَ أَقْدامٍ آتِيَةٍ ، فاضْطُرَّ إِلى أَنْ يَشُدَّ المِسْمارَ لِيَخْلَعَهُ ، فَأَحْدَثَ صَوْتاً ، فَصاحَ أَحَدُهُمْ قائِلاً : « مَنْ هُناكَ ؟ أَجِبْ وَإِلّا أَطْلَقْتُ عَلَيْكَ الرَّصاصَ .»

وَلَكِنَّنا لَمْ نُجِبْ ، بَلْ طِرْنا مُبْتَعِدينَ بِأَقْصى سُرْعَةٍ ، فَأَعْقَبَ ذَلِكَ انْدِفاعٌ مِنَ الرِّجالِ ، وَطَلَقاتُ الرَّصاصِ تَنْطَلِقُ مِنَ البَنادِقِ وَتَصْفِرُ حَوْلَنا ، وَسَمِعْناهُمْ يَتَصايَحونَ : « ها هُمْ ، إِنَّهُم يَتَّجِهونَ نَحْوَ النَّهْرِ . طارِدوهُمْ ، يا أَوْلادُ . أَطْلِقوا الكِلابَ .»

وَتَقَدَّموا خَلْفَنا . وَكُنّا في الطَّريقِ إِلى المَنْجَرِ ، وَعِنْدَما أَصْبَحوا قابَ قَوْسَيْنِ مِنّا اخْتَبَأْنا خَلْفَ الأَشْجارِ ، وَتَرَكْناهُمْ يَمُرّونَ بِنا ، ثُمَّ سِرْنا خَلْفَهُمْ . وَكانوا قَدْ حَبَسوا الكِلابَ جَميعَها ؛ حَتّى لا تُخيفَ اللُّصوصَ ، وَلَكِنَّ أَحَدَهُمْ أَطْلَقَها الآنَ ، وَتَعَرَّفَتِ الكِلابُ عَلَيْنا

وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّها عِنْدَما أَدْرَكَتْنا تَمَسَّحَتْ بِنا ، وانْدَفَعَتْ قُدُماً نَحْوَ الصِّياحِ والهَيَجانِ . ثُمَّ عَدَوْنا خَلْفَهُمْ حَتّى أَوْشَكْنا عَلى الوُصولِ إِلى المَنْجَرِ ، فانْعَطَفْنا إِلى الغابَةِ ، إِلى حَيْثُ زَوْرَقي فَقَفَزْنا فيهِ ، وَجَدَّفْنا مُبْتَعِدينَ ، طَلَباً لِلنَّجاةِ بِحَياتِنا الغالِيَةِ ، نَحْوَ مُنْتَصَفِ النَّهْرِ ، ثُمَّ جَدَّفْنا بَعْدَ ذَلِكَ عَلى راحَتِنا نَحْوَ الجَزيرَةِ الَّتي بِها الرَّمَثُ . وَكُنّا نَسْمَعُهُمْ يَتَصايَحونَ عَلى ضِفَّةِ النَّهْرِ ، فَلَمّا تَوَغَّلْنا بَعيداً اخْتَفَتْ أَصْواتُهُمْ .

قُلْتُ حينَ صَعِدْنا الرَّمَثَ : « وَالآنَ ، يا جيم ، أَنْتَ حُرٌّ مَرَّةً أُخْرى .»

قالَ جيم : « كانَ عَمَلاً مُتْقَناً ، وَكانَ تَخْطيطُهُ بارِعاً وَتَنْفيذُهُ بارِعاً ، وَما مِنْ أَحَدٍ يَسْتَطيعُ أَنْ يَضَعَ خُطَّةً أَكْثَرَ تَعْقيداً وَرَوْعَةً مِنْ هَذِهِ الخُطَّةِ .»

كُنّا جَميعاً سُعَداءَ ، غَيْرَ أَنَّ توم كانَ يَفوقُنا سَعادَةً لأَنَّهُ أُصيبَ بِرَصاصَةٍ في رِجْلِهِ . وَعِنْدَما سَمِعْنا أَنا وَجيم هَذا لَمْ نَعُدْ نَشْعُرُ بِما كُنّا نَشْعُرُ بِهِ مِنْ قَبْلُ مِنْ سَعادَةٍ . كانَ جُرْحُ توم يَنْزِفُ ، وَيُسَبِّبُ لَهُ أَلَماً ؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّنا أَرْقَدْناهُ في المَأْوى ، وَمَزَّقْنا قَميصاً مِنْ قُمْصانِ الدّوقِ لِنُضَمِّدَ بِهِ الجُرْحَ ، غَيْرَ أَنَّ توم أَخَذَ يُرَدِّدُ : « أَعْطوني الضِّمادَةَ فَإِنّي أَسْتَطيعُ أَنْ أَرْبُطَ الجُرْحَ بِنَفْسي . لا تَقِفْ هَكَذا

كَالأَحْمَقِ . قُلْ لِلرِّجالِ أَنْ يَقْبِضوا عَلى المَجاديفِ وَيَفُكّوا حِبالَ السَّفينَةِ . أَيُّها الأَوْلادُ ، لَقَدْ أَنْجَزْنا العَمَلَ بِإِتْقانٍ . أَتَمَنّى لَوْ أَنَّنا نَحْنُ الَّذينَ رَتَّبْنا خُطَّةَ هُروبِ المَلِكِ لويس السّادِسَ عَشَرَ ، لاسْتَطَعْنا نَقْلَهُ عَبْرَ الحُدودِ بِكُلِّ سُهولَةٍ . أُطْلُبْ مِنَ الرِّجالِ أَنْ يَقْبِضوا عَلى المَجاديفِ. أُطْلُبْ مِنَ الرِّجالِ أَنْ يَقْبِضوا عَلى المَجاديفِ .»

وَلَكِنَّني انْتَحَيْتُ بِجيم ناحِيَةً أُخْرى ، وَأَخَذْنا نَتَبادَلُ الرَّأْيَ وَنُفَكِّرُ ، وَلَمّا مَضَتْ دَقيقَةٌ في هَذا التَّفْكيرِ قُلْتُ : « تَكَلَّمْ يا جيم .» فَقالَ جيم : « لَنْ أَتَحَرَّكَ مِنْ هَذا المَكانِ بوصَةً واحِدَةً بِدونِ طَبيبٍ ، حَتّى وَلَوْ مَكَثْتُ هُنا أَرْبَعينَ سَنَةً .»

كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ جيم يَمْلِكُ قَلْباً مِنْ ذَهَبٍ ، وَكُنْتُ أَتَوَقَّعُ مِنْهُ أَنْ يَقولَ ما قالَ ، وَمِنْ ثَمَّ أَصْبَحَ الآنَ كُلُّ شَيْءٍ عَلى ما يُرامُ ، فَأَخْبَرْتُ توم أَنَّني ذاهِبٌ لإِحْضارِ طَبيبٍ ، فَأَرادَ أَنْ يَزْحَفَ خارِجاً وَيُطْلِقَ الرَّمَثَ بِنَفْسِهِ ، وَلَكِنَّنا مَنَعْناهُ مِنْ ذَلِكَ .

وَعِنْدَما رَآني أُجَهِّزُ الزَّوْرَقَ لِلانْطِلاقِ قالَ : « سَأُخْبِرُكَ بِالَّذي عَلَيْكَ أَنْ تَفْعَلَهُ حينَ تَصِلُ القَرْيَةَ . ضَعْ عِصابَةً عَلى عَيْنَي الطَّبيبِ، وَضَعْ حَقيبَةً مِنَ الذَّهَبِ في يَدِهِ ، ثُمَّ أَحْضِرْهُ إِلى هُنا عَبْرَ طُرُقٍ مُلْتَوِيَةٍ بَيْنَ الجُزُرِ ، وَفَتِّشْهُ ، وَخُذِ الطَّباشيرَ الَّذي مَعَهُ ، وَلا تُعِدْهُ إِلَيْهِ إِلّا بَعْدَ أَنْ يَعودَ إِلى القَرْيَةِ ، فَرُبَّما يَضَعُ عَلامَةً بِالطَّباشيرِ عَلى هَذا

الرَّمْثِ حَتّى يَسْتَطيعَ أنْ يَعْثُرَ عَلَيْهِ مَرَّةً أخْرى . تِلْكَ هِيَ الطَّريقَةُ الَّتي يَتَّبِعُها الجَميعُ .»

قُلْتُ لَهُ إنَّني سأفْعَلُ مِثْلَما قالَ ، وَغادَرْتُهُ . وَكانَ على جيم أنْ يَخْتَبِئَ حينَ يَأتي الطَّبيبُ .

الفَصْلُ الثّاني والعِشْرون

« ما الَّذي حَدَثَ لِهَذا الفَتى ؟ »

كانَ الطَّبيبُ رَجُلاً طَيِّباً ، وَقَدْ أخْبَرْتُهُ بِأنَّ أخي كانَ نائِماً ، فَرَكَلَ البُنْدُقِيَّةَ بِرِجْلِهِ ، فانْطَلَقَتْ مِنْها رَصاصَةٌ اسْتَقَرَّتْ في ساقِهِ . فأضاءَ الطَّبيبُ مِصْباحَهُ ، وَأحْضَرَ حَقيبَتَهُ ، واسْتَعَدَّ لِلذَّهابِ مَعي . وَلَكِنَّهُ عِنْدَما رَأى الزَّوْرَقَ لَمْ يَرُقْهُ مَنْظَرُهُ ، وَقالَ إنَّهُ سَيَبْحَثُ عَنْ زَوْرَقٍ أكْبَرَ . وَلَمّا كانَتِ الزَّوارِقُ المَوْجودَةُ في النَّهْرِ مَرْبوطَةً جَميعُها بِالسَّلاسِلِ وَموصَداً عَلَيْها بِالأقْفالِ ؛ فَقَدْ عادَ وَاسْتَقَلَّ زَوْرَقي ، وَطَلَبَ مِنّي أنْ أنْتَظِرَهُ حَتّى يَعودَ ، فَوَصَفْتُ لَهُ مَكانَ الرَّمْثِ ، وَرَحَلَ .

أمّا أنا فَقَدْ تَسَلَّلْتُ إلى كَوْمَةِ خَشَبٍ لأنالَ قِسْطاً مِنَ النَّوْمِ ، وَعِنْدَما اسْتَيْقَظْتُ كانَتِ الشَّمْسُ تُسَلِّطُ أشِعَّتَها فَوْقَ رَأسي ، فانْطَلَقْتُ إلى بَيْتِ الطَّبيبِ ، وَلَكِنَّهُمْ أخْبَروني أنَّه لَمْ يَعُدْ بَعْدُ ، فَأدْرَكْتُ أنَّهُ لا بُدَّ أنْ تَكونَ حالَةُ توم سَيِّئَةً ، وَلا بُدَّ لي مِنْ أنْ

اتّخذَ طريقي نحوَ الجزيرة . وَعلى هذا غادرتُ بيتَ الطّبيبِ إلّا أنّني
حينَ انعطفْتُ عِنْدَ ناصيةِ الشّارِعِ فوجئْتُ أمامي بِالعمِّ سايلاس ،
الّذي قالَ بِدهْشةٍ : « ماذا ؟ توم ! أينَ كُنْتَ طيلةَ هذا الوقْتِ أيُّها
الوَغْدُ ؟»

أجبْتُه : « كُنْتُ أُفتّشُ أنا وَسيدْ عَنِ العَبْدِ الهارِبِ .»

قالَ : « ماذا ؟ أينَ ذهبْتُما ؟ لَقدِ انْتابَ القَلَقُ خالَتَكُما .»

قُلْتُ : « إنّنا على ما يُرامُ . لَقدْ تبِعْنا الرِّجالَ وَالكِلابَ ، وَلكِنّنا
ضَلَلْنا عَنْهُمْ ، وَظنَنّا أنّنا سمِعْنا أصْواتَهُمْ تأتي مِنْ صَوْبِ النَّهرِ
فَأحضَرنا زورَقًا وَعبَرْنا بِهِ النَّهْرَ ، إلّا أنّنا لَمْ نجِدْهُمْ . وَمِنْ ثَمَّ فقَدْ
جدَّفْنا في النَّهرِ مَسافةً ثُمَّ نِمنا هُناكَ . وَقدِ اسْتَيْقظْنا مُنْذُ ساعةٍ وَجِئْتُ
أنا إلى هُنا لأتسقَّطَ الأخبارَ ، أمّا سيدْ فَقدْ ذَهَبَ إلى مكْتَبِ البَريدِ
لِيرى إذا كانَتْ ثَمّةَ رَسائِلُ لَنا . وَسأذْهَبُ الآنَ لإحْضارِ بَعْضِ
الطّعامِ لَنا ثُمَّ نعودُ إلى البَيْتِ .»

اِصْحَبني إلى مكْتَبِ البَريدِ لإحْضارِ سيدْ ، وَلكِنّهُ بِالطَّبْعِ لمْ
يكُنْ هُناكَ ، فاسْتَلَمَ الرَّجُلُ العجوزُ رِسالَةً ، وَانْتَظَرْنا قليلاً مِنَ الوقْتِ ،
وَلكِنَّ سيدْ لَمْ يأتِ ، فَقالَ الرَّجُلُ العجوزُ : « إنَّ سيدْ يَسْتَطيعُ أنْ
يأتِيَ إلى البَيْتِ ماشِيًا ، أمّا نحْنُ فَلا بُدَّ لَنا مِنْ أنْ نعودَ الآنَ .» وَقدْ

حاوَلْتُ إقْناعَهُ بِأنْ يَتْرُكَني في انْتِظارِ سيدْ ، إلّا أنَّهُ أصَرَّ على عَوْدَتي
حَتّى تَراني الخالَةُ سالي وَتَطْمَئِنَّ عَلَيْنا .

وَقدْ سُرَّتِ الخالَةُ سالي مِنْ رُؤْيَتي ، وَكانَ المكانُ مَمْلوءًا
بِالمُزارِعينَ وَزَوْجاتِهِمْ ، يَنْتَظِرونَ إعْدادَ الطَّعامِ لِيَلْتَهِموهُ ، وَما كانَ
أكْثَرَ ثَرْثَرَتَهُمْ !

وَعِنْدَما انْصَرَفَ جَميعُ المَوْجودينَ أخْبَرْتُ الخالَةَ سالي بِأنّنا
اسْتَيْقَظْنا على أصْواتِ الجَلَبَةِ وَالصِّياحِ ، فَأرَدْنا أنْ نَرى ما يَحْدُثُ
فَهَبَطْنا على عَمودِ الإنارَةِ ، ثُمَّ سَرَدْتُ عَلَيْها القِصَّةَ الّتي كُنْتُ قَدْ
سَرَدْتُها عَلى العَمِّ سايلاس ، فَقالَتْ إنّها سامَحَتْنا لأنَّ هَذا هُوَ ما
يُنْتَظَرُ مِنْ غُلامَيْنِ مِثْلِنا ، ثُمَّ غَرِقَتْ في أفْكارِها . وَبَعْدَ قَليلٍ قَفَزَتْ
مِنْ مَكانِها وَقالَتْ : « يا إلَهي ! لَقَدْ دَخَلَ اللَّيْلُ تَقْريبًا ، وَلَمْ يَعُدْ
سيد . ما الّذي حَدَثَ لِهَذا الفَتى ؟»

قُلْتُ لَها : « سَأذْهَبُ إلى المَدينَةِ لأحْضِرَهُ .»

قالَتْ : « لا ، لَنْ تَذْهَبَ أنْتَ ، إذا لَمْ يَأتِ حَتّى مَوْعِدِ العَشاءِ
فَسَيَذْهَبُ عَمُّكَ سايلاس .»

وَلَمْ يَعُدْ سيدْ عَلى مَوْعِدِ العَشاءِ ، وَمِنْ ثَمَّ فَبَعْدَ أنْ تَناوَلْنا طَعامَنا
ذَهَبَ العَمُّ سايلاس لِيَبْحَثَ عَنْ سيدْ ، وَعادَ في حَوالى السّاعَةِ

العاشِرَةِ وَالقَلَقُ بادٍ عَلَيْهِ ، فَهُوَ لَمْ يَلْتَقِ وَتوم . وَاسْتَوْلى على الخالَةِ سالي قَلَقٌ شَديدٌ ، وَلكِنَّ العَمَّ سايلاس قالَ إِنَّهُ لا داعِيَ لِلْقَلَقِ ، وَإِنَّ سِيدْ سَيَظْهَرُ في الصَّباحِ . وَلَمْ يَكُنْ أَمامَ الخالَةِ سالي إِلّا أَنْ تَقْنَعَ بِما قالَ . وَلكِنَّها قالَتْ إِنَّها عَلى أَيَّةِ حالٍ سَتَسْهَرُ قَليلاً في انْتِظارِهِ، وَسَتُبْقي لَهُ مِصْباحاً مُضيئاً حَتّى يَراهُ .

وَعِنْدَما آوَيْتُ إِلى فِراشي جاءَتِ الخالَةُ سالي مَعي ، وَلاطَفَتْني وَقَبَّلَتْني بِحَرارَةٍ وَعَطْفٍ لِدَرَجَةِ أَنَّني خَجِلْتُ مِنْ نَفْسي ، وَلَمْ أَجْرُؤْ عَلى أَنْ أَرْفَعَ عَيْنَيَّ في وَجْهِها . وَلَمّا تَأَهَّبْتُ لِلانْصِرافِ نَظَرَتْ في عَيْنَيَّ بِثَباتٍ وَرِفْقٍ وَقالَتْ : « لَنْ يُغْلَقَ البابُ ، يا توم ، وَهُناكَ النّافِذَةُ وَعَمودُ الإِنارَةِ تَسْتَطيعُ أَنْ تَهْبِطَ عَلَيْهِ ، وَلكِنَّكَ سَتَكونُ وَلَداً طَيِّباً وَلَنْ تَذْهَبَ مِنْ أَجْلي .»

عَلِمَ اللّهُ أَنَّني كُنْتُ أُريدُ أَنْ أَذْهَبَ لأَرى ما الَّذي حَدَثَ لِتوم ، وَكُنْتُ أَنْوي الذَّهابَ فِعْلاً ، وَلكِنَّني قَرَّرْتُ بَعْدَ ما سَمِعْتُهُ مِنْها أَلا أَذْهَبَ ، حَتّى وَلَوْ أُعْطيتُ مالَ العالَمِ كُلَّهُ .

غَيْرَ أَنَّني كُنْتُ أُفَكِّرُ فيها ، وَكُنْتُ أُفَكِّرُ في توم ، وَلِذلِكَ فَقَدْ كانَ نَومي مُتَقَطِّعاً قَلِقاً . وَقَدْ هَبَطْتُ مَرَّتَيْنِ عَلى عَمودِ الإِنارَةِ ، وَتَسَلَّلْتُ إِلى واجِهَةِ البَيْتِ فَرَأَيْتُها جالِسَةً بِجِوارِ النّافِذَةِ ، وَبِجانِبِها شَمْعَةٌ ، وَقَدْ رَكَّزَتْ عَيْنَيْها عَلى الطَّريقِ ، تَتَرَقَّبُ عَوْدَةَ توم،

وَالدُّموعُ تَسيلُ مِنْهُما . وَفي المَرَّةِ الثّالِثَةِ الَّتي اسْتَيْقَظْتُ فيها عِنْدَ الفَجْرِ هَبَطْتُ إِلى أَسْفَلَ ، فَوَجَدْتُها لا تَزالُ جالِسَةً هُناكَ ، وَقَدِ انْطَفَأَتْ شَمْعَتُها ، وَاسْتَقَرَّ شَعْرُها الأَشْيَبُ عَلى يَدَيْها ، وَقَدْ راحَتْ في النَّوْمِ .

الفَصْلُ الثَّالِثُ والعِشْرون

عَوْدَةُ توم وَجيم

ذَهَبَ الرَّجُلُ العَجوزُ إلى المَدينَةِ مَرَّةً أخرى قَبْلَ الإفْطارِ ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَحْصُلَ على أخْبارٍ عَنْ توم ، فَجَلَسَ هُوَ والخالَةُ سالي يُفكِّرانِ ويَتَنَهَّدانِ . وَبَعْدَ فَتْرَةٍ قالَ الرَّجُلُ العَجوزُ : « هَلْ أعْطَيْتُكِ الرِّسالَةَ الَّتي اسْتَلَمْتُها أمْسِ مِنْ مَكْتَبِ البَريدِ ؟ »

قالَتْ : « لا . لَمْ تُعْطِني أيَّةَ رَسائِلَ . »

ذَهَبَ الرَّجُلُ وَأحْضَرَها . وَعِنْدَما رَأتْها الخالَةُ سالي صاحَتْ : « ماذا ؟ إنَّها مِنْ سان بترسبورج – مِنْ أخْتي . »

إلّا أنَّها ألْقَتْ بِها قَبْلَ أنْ تَفْتَحَها ، وَراحَتْ تَعْدو لأنَّها رَأتْ شَيْئًا كُنْتُ قَدْ رَأيْتُهُ أنا أيْضًا ، وَكانَ هَذا الشَّيْءُ هُوَ توم سوير مَحْمولاً عَلى حَشِيَّةٍ ، وَخَلْفَهُ الطَّبيبُ ثُمَّ جيم مُرْتَدِيًا رِداءَ الخالَةِ سالي ، وَقَدْ رُبِطَتْ يَداهُ مِنَ الخَلْفِ ، وَخَلْفَهُ جَمْعٌ مِنَ النّاسِ . فَقُمْتُ بِإخْفاءِ

الرِّسالَةِ ، وَانْدَفَعْتُ لِلْخارِجِ في إثْرِ الخالَةِ سالي .

وَألْقَتِ الخالَةُ سالي بِنَفْسِها على توم وَأخَذَتْ تُوَلْوِلُ وتَقولُ : « لَقَدْ ماتَ ! لَقَدْ ماتَ ! أعْرِفُ أنَّهُ ماتَ . »

وهُنا أدارَ توم رَأسَهُ قَليلاً ، وَتَمْتَمَ بِشَيْءٍ ظَهَرَ مِنْهُ أنَّهُ غائِبٌ عَنِ الوَعْيِ ، فَرَفَعَتِ الخالَةُ سالي يَدَيْها إلى السَّماءِ وَقالَتْ : « إنَّهُ حَيٌّ ، الحَمْدُ للَّهِ ، هَذا يَكْفي . » وقَبَّلَتْهُ ، ثُمَّ طارَتْ إلى المَنْزِلِ لِتُعِدَّ لَهُ فِراشَهُ ، وَهِيَ تُلْقي بِالأوامِرِ عَلى الخَدَمِ يَمْنَةً وَيَسْرَةً .

أمّا أنا فَقَدْ سِرْتُ في إثْرِ الرِّجالِ لأرى ما الَّذي سَيَفْعَلونَهُ بِجيم ، على حينَ ذَهَبَ الطَّبيبُ وَالعَمُّ سايلاس وَراءَ توم إلى داخِلِ البَيْتِ . كانَ الرِّجالُ يَسُبّونَ جيم ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا ، وَلَمْ يُظْهِرْ قَطُّ أنَّهُ يَعْرِفُني . وَأخَذَهُ الرِّجالُ إلى الكوخِ الَّذي كانَ فيهِ ، وَألْبَسوهُ مَلابِسَهُ القَديمَةَ .

وَجاءَ الطَّبيبُ لِيُلْقِيَ نَظْرَةً على ما يَحْدُثُ ، وَقالَ : « لا تُعامِلوهُ بِخُشونَةٍ ، فَهُوَ شَخْصٌ طَيِّبٌ ؛ فَعِنْدَما وَصَلْتُ إلى المَكانِ الَّذي وَجَدْتُ فيهِ الغُلامَ وَجَدْتُ أنَّني لَنْ أسْتَطيعَ اسْتِخْراجَ الرَّصاصَةِ إلّا بِمُساعَدَةِ أحَدٍ . وَكانَتْ حالَةُ الصَّبِيِّ سَيِّئَةً جِدًّا بِحَيْثُ إنَّني لا أسْتَطيعُ تَرْكَهُ وَالذَّهابَ لإحْضارِ العَوْنِ مِنَ القَرْيَةِ . وَلَمْ يَكُنْ يَسْمَحُ

لي بالاقْتِرابِ مِنْهُ . وَقَدْ وَقَفْتُ عاجِزاً لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَفْعَلَ شَيْئاً ، فَصِحْتُ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ لا بُدَّ أَنْ أَجِدَ أَحَداً يُساعِدُني . وَفي تِلْكَ اللَّحْظَةِ الَّتي قُلْتُ فيها هَذا ، زَحَفَ هَذا الشَّخْصُ مِنْ مَكْمَنِهِ وَقالَ لي إِنَّهُ سَيُساعِدُني . وَقَدْ قَدَّمَ لي يَدَ العَوْنِ فِعْلاً ، وَكانَ ما قَدَّمَهُ ذا قيمَةٍ كُبْرى . بِالطَّبْعِ كُنْتُ قَدْ أَدْرَكْتُ أَنَّهُ عَبْدٌ هارِبٌ ، وَمِنْ ثَمَّ فَقَدِ اضْطُرِرْتُ لِلْبَقاءِ هُناكَ ما تَبَقّى مِنْ هَذا النَّهارِ وَاللَّيْلَ بِطولِهِ خَشْيَةَ أَنْ يَهْرُبَ ، فَيَقَعَ عَلَيَّ اللَّوْمُ . وَخِلالَ هَذا الوَقْتِ لَمْ أَرَ مُمَرِّضاً أَفْضَلَ مِنْهُ وَأَكْثَرَ إِخْلاصاً ، رَغْمَ أَنَّهُ كانَ يُخاطِرُ بِحُرِّيَّتِهِ وَهُوَ يَقومُ بِتَمْريضِ الغُلامِ ، كَما أَنَّهُ كانَ مُرْهَقاً ؛ فَقَدْ كانَ في الفَتْرَةِ الأَخيرَةِ مِنَ اللَّيْلِ يَعْمَلُ وَقَدْ بَدا عَلَيْهِ الإِرْهاقُ .

« وَمَرَّ بِنا في فَجْرِ هَذا اليَوْمِ بَعْضُ الرِّجالِ في قارِبٍ . وَكانَ هُوَ في ذَلِكَ الوَقْتِ نائِماً ، فَأَشَرْتُ لَهُمْ ، فَتَسَلَّلوا إِلى الرَّمْثِ وَقَيَّدوهُ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَ ما يَحْدُثُ . وَلَمْ نُواجِهْ أَيَّةَ مَتاعِبَ عَلى الإِطْلاقِ في القَبْضِ عَلَيْهِ . وَرَبَطْنا الرَّمْثَ بِالقارِبِ وَسَحَبْناهُ بِرِفْقٍ وَهُدوءٍ ، عَلى حينِ كانَ الصَّبِيُّ يَنامُ نَوْماً مُتَقَطِّعاً قَلِقاً . وَلَمْ يَصْنَعْ جيم أَيَّةَ جَلَبَةٍ ، وَلَمْ يَتَفَوَّهْ بِكَلِمَةٍ مِنَ البِدايَةِ . لَقَدْ قُلْتُ لَكُمْ أَيُّها السّادَةُ إِنَّ شَخْصاً مِثْلَ هَذا لَهُوَ جَوْهَرَةٌ ثَمينَةٌ .»

حَمِدْتُ لِلطَّبيبِ العَجوزِ صَنيعَهُ ، وَالدَّوْرَ الَّذي قامَ بِهِ مِنْ أَجْلِ

جيم ، كَما أَنَّ السُّرورَ تَمَلَّكَني لأَنَّ رَأْيَهُ فيهِ وافَقَ رَأْيي ، فَقَدْ كانَ رَأْيي فيهِ مُنْذُ أَنْ رَأَيْتُهُ لأَوَّلِ مَرَّةٍ أَنَّهُ رَجُلٌ طَيِّبٌ ذو قَلْبٍ مِنْ ذَهَبٍ . وَقَدِ اتَّفَقَ الجَميعُ عَلى أَنَّ جيم تَصَرَّفَ تَصَرُّفاً نَبيلاً ، وَيَسْتَحِقُّ أَنْ يُكافَأَ عَلى ما فَعَلَهُ .

وَفي الصَّباحِ التّالي سَمِعْتُ أَنَّ صِحَّةَ توم قَدْ تَحَسَّنَتْ ، كَما أَنَّهُمْ قالوا إِنَّ الخالَةَ سالي الَّتي لازَمَتْ فِراشَهُ لَيْلاً وَنَهاراً ، قَدْ غادَرَتْ غُرْفَتَهُ لِتَنالَ قِسْطاً مِنَ النَّوْمِ ، فَتَسَلَّلْتُ إِلى غُرْفَتِهِ ، وَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّنا رُبَّما نَسْتَطيعُ أَنْ نَخْتَرِعَ قِصَّةً مُتَّسِقَةً لِنُقْنِعَ بِها العائِلَةَ . غَيْرَ أَنَّني وَجَدْتُهُ نائِماً في هُدوءٍ وَقَدْ عَلا الشُّحوبُ وَجْهَهُ ، إِلّا أَنَّ دَرَجَةَ حَرارَتِهِ لَمْ تَكُنْ مُرْتَفِعَةً مِثْلَما كانَتْ عِنْدَما ساقوهُ إِلى البَيْتِ ، وَلِذَلِكَ جَلَسْتُ أَنْتَظِرُهُ حَتّى يَسْتَيْقِظَ .

وَبَعْدَ نِصْفِ ساعَةٍ أَتَتِ الخالَةُ سالي تَتَسَلَّلُ ، وَهَمَسَتْ قائِلَةً إِنَّ حالَتَهُ قَدْ تَحَسَّنَتْ ، وَإِنَّهُ سَيَسْتَيْقِظُ مِنْ نَوْمِهِ وَقَدْ عادَ لِوَعْيِهِ . وَهَكَذا جَلَسْنا نَرْقُبُهُ . وَأَخيراً تَحَرَّكَ وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ وَقالَ :

« ماذا ؟ هَلْ أَنا في البَيْتِ ؟ كَيْفَ حَدَثَ هَذا ؟ أَيْنَ الرَّمْثُ ؟»

قُلْتُ لَهُ : « إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَلى ما يُرامُ .»

تَساءَلَ : « وَجيم ؟»

قُلْتُ : « إنَّهُ عَلى ما يُرامُ أَيْضاً .» لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَقولَ الجُمْلَةَ السّابِقَةَ بِكُلِّ ثِقَةٍ ، فاهْتَزَّ صَوْتي ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَلْحَظْ ذَلِكَ .

قالَ توم : « رائِعٌ ! الآنَ نَحْنُ جَميعاً عَلى ما يُرامُ وَفي أَمانٍ . هَلْ أَخْبَرْتَ خالَتي ؟»

كُنْتُ موشِكاً أَنْ أَرُدَّ بالإيجابِ ، وَلكِنَّها قاطَعَتْني قائِلَةً : « عَنْ أَيِّ شَيْءٍ ، يا سيد ؟»

قالَ : « ماذا ؟ عَنِ الطَّريقَةِ الَّتي تَمَّ بِها إِنْجازُ الأَمْرِ كُلِّهِ .»

قالَتْ : « ما هُوَ هذا الأَمْرُ كُلُّهُ ؟»

قالَ : « ماذا ؟ الأَمْرُ كُلُّهُ ، لا يوجَدُ سِوى أَمْرٍ واحِدٍ وَهُوَ الطَّريقَةُ الَّتي أَطْلَقْنا بِها سَراحَ جيم أَنا وَتوم .»

قالَتْ: « يا إِلَهي ! عَمَّ يَتَحَدَّثُ الغُلامُ ؟ يا عَزيزي ، يا عَزيزي ! لَقَدْ فَقَدَ عَقْلَهُ مَرَّةً أُخْرى .»

قالَ : « أُؤَكِّدُ لَكِ أَنَّنا أَطْلَقْنا سَراحَهُ أَنا وَتوم . لَقَدْ خَطَّطْنا لِذَلِكَ، وَأَنْجَزْنا ما خَطَّطْنا ، أَنْجَزْناهُ بِشَكْلٍ رائِعٍ .»

وَانْطَلَقَ في السَّرْدِ ، وَتَوَقَّفَتْ هِيَ تَماماً عَنْ مُقاطَعَتِهِ ، وَجَلَسَتْ تُحَمْلِقُ إِلَيْهِ فَقَطْ وَتُحَمْلِقُ ، وَهُوَ يُواصِلُ حَديثَهُ . وَرَأَيْتُ أَنَّهُ لا

جَدْوى مِنَ التَّدَخُّلِ وَلَوْ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ .

« لَقَدْ كَلَّفَنا هَذا الإِنْجازُ ، يا خالَتي ، قَدْراً كَبيراً مِنَ العَمَلِ — أَسابيعَ مِنَ العَمَلِ ، ساعاتٍ وَساعاتٍ كُنّا نَسْهَرُها وَأَنْتُمْ نائِمونَ . وَقَدِ اضْطُرِرْنا إِلى أَنْ نَسْرِقَ الشُّموعَ وَالمُلاءَةَ وَالقَميصَ وَرِداءَكِ وَالمَلاعِقَ وَالأَطْباقَ وَالسَّكاكينَ وَمِدْفَأَةَ السَّريرِ وَالمِسَنَّ الحَجَرِيَّ وَالدَّقيقَ وَأَشْياءَ أُخْرى لا حَصْرَ لَها . وَلا يُمْكِنُكِ أَنْ تَتَصَوَّري ما فَعَلْناهُ لِكَيْ نَصْنَعَ المَناشيرَ وَريشَ الكِتابَةِ وَالمُذَكِّراتِ ، وَهَذا الشَّيْءَ وَذاكَ . وَلا يُمْكِنُكِ أَنْ تَتَخَيَّلي ما كانَ في صُنْعِ هَذِهِ الأَشْياءِ مِنْ فُكاهَةٍ وَمَرَحٍ . وَلَقَدِ اضْطُرِرْنا أَيْضاً إِلى أَنْ نَرْسُمَ صُوَرَ التَّوابيتِ ، وَأَنْ نَكْتُبَ الرَّسائِلَ الغُفْلَ مِنَ التَّوْقيعِ المُرْسَلَةَ مِنَ اللُّصوصِ ، وَأَنْ نَصْعَدَ وَأَنْ نَهْبِطَ عَلى عَمودِ الإِنارَةِ ، وَأَنْ نَحْفِرَ حُفْرَةً تَصِلُ بَيْنَ السَّقيفَةِ وَالكوخِ المَسْجونِ فيهِ جيم ، وَأَنْ نَصْنَعَ سُلَّمَ الحِبالِ وَنُرْسِلَهُ إِلى جيم مَخْبوزاً في الفَطيرَةِ . كَما أَرْسَلْنا لَهُ مَلاعِقَ وَأَشْياءَ أُخْرى في جَيْبِ مِئْزَرِكِ لِيَعْمَلَ بِها ...»

قاطَعَتْهُ الخالَةُ سالي صائِحَةً : « يا إِلَهِيَ الرَّحيمَ !»

وَ واصَلَ توم حَديثَهُ دونَ أَنْ يَسْمَعَ لَها : « وَمَلأْنا الكوخَ بِالفِئْرانِ وَالثَّعابينِ وَما شابَهَ ذَلِكَ مِنْ حَيَواناتٍ وَحَشَراتٍ ؛ حَتّى تُرافِقَ جيم في سِجْنِهِ . وَجِئْتِ أَنْتِ وَأَبْقَيْتِ توم هُنا فَتْرَةً طَويلَةً ، وَقَدْ سالَتِ

الزُّبْدَةُ مِنْ رَأسِهِ عَلى وَجْهِهِ ، وَكِدْتِ تُفْسِدينَ عَمَلَنا كُلَّهُ ؛ لأنَّ
الرِّجالَ أَتَوْا قَبْلَ أَنْ نَخْرُجَ مِنَ الكوخِ . وَاضْطُرِرْنا أَنْ نَنْدَفِعَ خارِجينَ
فَسَمِعَنا الرِّجالُ وَأَطْلَقوا عَلَيْنا الرَّصاصَ ، فَنالَني مِنْها نَصيبٌ . ثُمَّ
رُغْنا مِنْهُمْ ، وَمَرّوا بِنا دونَ أَنْ يَرَوْنا . وَعِنْدَما جاءَتِ الكِلابُ لَمْ تُلْقِ
لَنا بالاً ، بَلِ اتَّجَهَتْ نَحْوَ مَصْدَرِ الجَلَبَةِ ، فَسَحَبْنا زَوْرَقَنا وَذَهَبْنا
لِلرَّمْثِ ، وَأَصْبَحْنا آمِنينَ ، وَأَصْبَحَ جيم حُرًّا . وَقَدْ فَعَلْنا كُلَّ ذَلِكَ
بِأَنْفُسِنا . أَلَيْسَ هَذا رائِعًا ، يا خالَتي ؟»

قالَتِ الخالَةُ سالي: « حَسَنًا ، لَمْ أَسْمَعْ بِمِثْلِ هَذا في حَياتي .
إِذًا فَقَدْ كُنْتُما أَنْتُما ، أَيُّها الوَغْدانِ ، اللَّذَيْنِ صَنَعا كُلَّ هَذِهِ
المَتاعِبِ لَنا وَجَعَلانا نَموتُ رُعْبًا . إِنَّ لَدَيَّ الآنَ رَغْبَةً في أَنْ
أُعاقِبَكُما ، وَلَكِنَّني سَأَنْتَظِرُ حَتّى تَبْرَأَ مِنْ جُرْحِكَ ، ثُمَّ أَسْلَخَ
جِلْدَيْكُما . الآنَ اسْتَمْتِعا بِما فَعَلْتُما ، أَمّا بَعْدَ ذَلِكَ فَإِنَّني أُحَذِّرُكُما
لَوْ أَنَّني ضَبَطْتُكُما تَتَدَخَّلانِ في شُئونِهِ مَرَّةً أُخْرى ...»

سَأَلَ توم بِدَهْشَةٍ : « شُئونُ مَنْ ؟»

قالَتْ : « شُئونُ مَنْ ؟! ماذا ؟ العَبْدِ الهارِبِ طَبْعًا . شُئونُ مَنْ
تَظُنُّني أَعْني ؟»

نَظَرَ إِلَيَّ توم وَالحُزْنُ بادٍ عَلى وَجْهِهِ وَقالَ : « توم ، أَلَمْ تُخْبِرْني

بِأَنَّهُ عَلى ما يُرامُ ؟ أَلَمْ يَهْرُبْ ؟»

قالَتِ الخالَةُ سالي : « ذاكَ العَبْدُ الهارِبُ ؟ نَعَمْ لَمْ يَهْرُبْ .
لَقَدْ أَعادوهُ آمِنًا سَليمًا ، وَهُوَ الآنَ في ذَلِكَ الكوخِ يَعيشُ عَلى الخُبْزِ
وَالماءِ .»

نَهَضَ توم وَقَدْ لَمَعَتْ عَيْناهُ ، وَأَخَذَ مَنْخاراهُ يَنْفَتِحانِ وَيَنْغَلِقانِ ،
وَصاحَ بي : « لَيْسَ لَهُمُ الحَقُّ في حَبْسِهِ . اذْهَبِ الآنَ وَلا تُضَيِّعْ
دَقيقَةً واحِدَةً وَأَطْلِقْ سَراحَهُ . إِنَّهُ حُرٌّ مِثْلُهُ مِثْلُ أَيِّ مَخْلوقٍ يَمْشي
عَلى هَذِهِ الأَرْضِ .»

قالَتِ الخالَةُ سالي : « ماذا يَعْني هَذا الوَلَدُ ؟»

قالَ : « أَنا أَعْني كُلَّ كَلِمَةٍ قُلْتُها ، يا خالَتي . وَإِذا لَمْ يَذْهَبْ
أَحَدٌ لإِطْلاقِ سَراحِهِ فَسَأَذْهَبُ أَنا . لَقَدْ عَرَفْتُ جيم طَوالَ حَياتي
وَكَذَلِكَ عَرَفَهُ توم . وَلَقَدْ ماتَتِ الآنِسَةُ واطْسُن مُنْذُ شَهْرَيْنِ .
وَكانَتْ قَدْ أَحَسَّتْ بِالخَجَلِ لأَنَّها فَكَّرَتْ في بَيْعِهِ ، وَقَدْ صَرَّحَتْ
بِذَلِكَ وَحَرَّرَتْهُ قَبْلَ وَفاتِها مُباشَرَةً .»

قالَتِ الخالَةُ سالي : « إِذًا لِماذا تُريدُ أَنْ تُحَرِّرَهُ أَنْتَ طالَما أَنَّهُ
حُرٌّ بِالفِعْلِ ؟»

قالَ توم : « تِلْكَ مَسْأَلَةٌ أُخْرى . كُنْتُ أُريدُ المُغامَرَةَ فَقَطْ ، وَقَدْ

قُمْتُ بِها . يا إلَهي ! خالَتي بولي !» وَهُناكَ في مَدْخَلِ الغُرْفَةِ كانَتِ الخالَةُ بولي واقِفَةً ، فَقَفَزتِ الخالَةُ سالي نَحْوَها ، وَعانَقَتْها ، وَبَكَتْ عَلى كَتِفِها . أَمّا أنا فَإنَّني وَجَدْتُ مَخْبَأً جَيِّداً تَحْتَ السَّرِيرِ لأنَّ المَتاعِبَ ، كَما بَدا لي في ذَلِكَ الوَقْتِ ، سَتَشْتَدُّ عَلَيْنا . وَعِنْدَما تَطَلَّعْتُ مِنْ مَخْبَئِي ، كانَتْ خالَةُ توم – الخالَةُ بولي – تَتَخَلَّصُ مِنْ ذِراعَيِ الخالَةِ سالي ، وَتَقِفُ هُناكَ تَنْظُرُ إلى توم مِنْ خِلالِ نَظّارَتِها ، ثُمَّ قالَتْ : « نَعَمْ ، مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ تُخْفِي وَجْهَكَ عَنّي ، فَلَوْ كُنْتُ مَكانَكَ لَفَعَلْتُ ذَلِكَ ، يا توم .»

قالَتِ الخالَةُ سالي : « هَلْ تَغيَّرَ بِهَذا الشَّكْلِ ؟ هَذا لَيْسَ توم ، إنَّهُ سِيدْ ، توم هُوَ ... ماذا ؟ أيْنَ توم ؟ لَقَدْ كانَ هُنا مُنْذُ دَقيقَةٍ واحِدَةٍ .»

قالَتِ الخالَةُ بولي : « تَعْنينَ أيْنَ هَكْ فِن ، فَبَعْدَ أنْ رَبَّيْتُ هَذا الوَغْدَ مِثْلَ توم طيلَةَ هَذِهِ السَّنَواتِ ، أَعْتَقِدُ أنَّني أَعْرِفُهُ حينَ أَراهُ . اُخْرُجْ مِنْ تَحْتِ السَّرير ، يا هَكْ فِن .»

وَخَرَجْتُ ، وَلَكِنّي لَمْ أَكُنْ أَشْعُرُ بِالطُّمَأْنينَةِ .

لَمْ تُصَدِّقِ الخالَةُ سالي أُذُنَيْها ، وَكَذَلِكَ العَمُّ سايْلاس لَمْ يُصَدِّقْ ما يَرى حينَ دَخَلَ وَأَخْبَراهُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، فَأُصيبَ بِالخَرَسِ وَالدَّهْشَةِ . ثُمَّ أَخْبَرَتْهُما الخالَةُ بولي عَمَّنْ أَكونُ ، وَماذا أَكونُ ،

وَكانَ عَلَيَّ أنْ أُخْبِرَهُمْ بِالكَيْفِيَّةِ الَّتي وَجَدْتُ بِها نَفْسي في هَذا المَوْقِفِ الحَرِجِ ، وَذَلِكَ عِنْدَما حَسِبَتْني السَّيِّدَةُ فيلْبس توم سوير . فَقاطَعَتْني الخالَةُ سالي وَقالَتْ : « اُدْعُني الخالَةَ سالي كَما كُنْتَ تَدْعوني ، لَقَدْ تَعَوَّدْتُها مِنْكَ وَلا داعِيَ لِلتَّغْيير .»

قُلْتُ لَهُمْ إنَّني عِنْدَما حَسِبَتْني الخالَةُ سالي توم سوير اضْطُرِرْتُ أنْ أَقومَ بِدَوْرِهِ ، وَادَّعى توم أنَّهُ سِيدْ حَتّى يُسَهِّلَ لِيَ الأُمورَ عَلى قَدْرِ اسْتِطاعَتِهِ .

وَقالَتِ الخالَةُ بولي إنَّ توم مُحِقٌّ فيما قالَهُ عَنِ الآنِسَةِ واطْسُن حَيْثُ إنَّها بِالفِعْلِ حَرَّرَتْ جيم . وَقَدْ خَلَقَ توم كُلَّ هَذِهِ المَتاعِبِ وَالمُضايَقاتِ لِيُحَرِّرَ رَجُلاً حُرّاً !

وَأَضافَتِ الخالَةُ بولي أنَّها حينَ كَتَبَتْ لَها الخالَةُ سالي تُخْبِرُها بِأنَّ توم وَ سِيدْ قَدْ وَصَلا سالِمَيْنِ قالَتْ في نَفْسِها : « لا بُدَّ أنْ أُبْحِرَ كُلَّ هَذِهِ المَسافَةِ في النَّهْرِ – حَوالى ١٧٠٠ كيلومِتْرٍ – لأَكْتَشِفَ الخُدْعَةَ الَّتي يَلْعَبُها هَذا الوَلَدُ ؛ لأنَّني لَمْ أَتَلَقَّ مِنْ أُخْتي جَواباً .»

قالَتِ الخالَةُ سالي : « ماذا ؟ أنا لَمْ يَصِلْني مِنْكِ شَيْءٌ .»

قالَتِ الخالَةُ بولي : « لَقَد كَتَبْتُ لَكِ مَرَّتَيْنِ لأَسْأَلَكِ ماذا تَعْنينَ بِقَوْلِكِ إنَّ سِيدْ هُنا .»

قالَتِ الخالَةُ سالي : « لَمْ تصِلْني هاتانِ الرِّسالَتانِ .»

اِسْتَدارَتِ الخالَةُ بولي بِبُطْءٍ وَقالَتْ بِغَضَبٍ : « توم ، أَخْرِجْ هاتَيْنِ الرِّسالَتَيْنِ .»

سَأَلَ توم : « أَيَّةَ رَسائِلَ ؟»

قالَتِ الخالَةُ بولي : « هاتَيْنِ الرِّسالَتَيْنِ . آهِ لَوْ أَمْسَكْتُ بِكَ ...»

قالَ توم : « إِنَّهُما في الصُّنْدوقِ ، لَمْ أَفْتَحْهُما ، فَقَدْ كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّهُما سَيَجْلُبانِ عَلَيْنا المَتاعِبَ . وَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّكِ ما لَمْ تَكوني في عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِكِ فَإِنَّني ...»

قالَتِ الخالَةُ بولي : « لا بُدَّ مِنْ جَلْدِكَ ! لَقَدْ كَتَبْتُ لَكِ رِسالَةً أُخْرى أُخْبِرُكِ فيها أَنَّني قادِمَةٌ . وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ ...»

قالَتِ الخالَةُ سالي : « لا ، لَقَد جاءَتْ هَذِهِ الرِّسالَةُ أَمْسِ ، وَلَمْ أَقْرَأْها بَعْدُ .»

وَعِنْدَما اسْتَطَعْتُ أَنْ أَخْلُوَ بِتوم سَأَلْتُهُ عَمّا كانَ سَيَفْعَلُهُ لَوْ نَجَحَتْ خُطَّةُ الهَرَبِ ، وَاسْتَطاعَ أَنْ يُحَرِّرَ جيم الَّذي هُوَ حُرٌّ بِالفِعْلِ .

أَجابَني بِأَنَّهُ كانَ قَدْ خَطَّطَ إِذا ما أَخْرَجْنا جيم سالِماً ، بِأَنَّنا

سَنَأْخُذُهُ إِلى مَصَبِّ النَّهْرِ ، وَنَقومُ هُناكَ بِبَعْضِ المُغامَراتِ ، ثُمَّ نُخْبِرُ جيم بِأَنَّهُ حُرٌّ ، وَنَعودُ إِلى البَيْتِ عَلى ظَهْرِ إِحْدى السُّفُنِ البُخارِيَّةِ ، وَنُعَوِّضُهُ بِالمالِ عَنِ الوَقْتِ الَّذي ضاعَ مِنْهُ . ثُمَّ يُرْسِلُ رِسالَةً إِلى البَيْتِ ، وَيَخْرُجُ بِجَميعِ الزُّنوجِ لِيَحْتَفِلوا بِجيم في المَدينَةِ عَلى أَضْواءِ المَشاعِلِ وَموسيقى المَزاميرِ النُّحاسِيَّةِ ، الَّتي كانَتْ سَتَقوم بِعَزْفِها إِحْدى الفِرَقِ الموسيقِيَّةِ . وَهَكَذا يُصْبِحُ جيم بَطَلاً ، وَنُصْبِحُ نَحْنُ أَيْضاً مِنَ الأَبْطالِ .

قُمْنا بِإِخْراجِ جيم مِنَ الكوخِ فَوْراً ، وَعِنْدَما عَلِمَتِ الخالَةُ بولي وَالعَمُّ سايلاس وَالخالَةُ سالي بِأَنَّهُ قَدْ ساعَدَ الطَّبيبَ في تَمْريضِ توم هَيَّئوا لَهُ أَسْبابَ الرّاحَةِ ، وَقَدَّموا لَهُ مِنَ الطَّعامِ كُلَّ ما يُريدُ أَكْلَهُ ، وَأَراحوهُ مِنَ العَمَلِ . وَقَدْ أَخَذْناهُ إِلى الغُرْفَةِ الَّتي كانَ توم يَرْقُدُ فيها ، فَنَفَحَهُ توم أَرْبَعينَ دولاراً نَظيرَ سَجْنِهِ وَصَبْرِهِ عَلى القِيامِ بِهَذا الدَّوْرِ . وَقَدْ سُرَّ جيم غايَةَ السُّرورِ . وَتَحَدَّثَ توم كَثيراً ، وَقالَ : «دَعونا نَتَسَلَّلْ مِن هُنا ذاتَ لَيْلَةٍ وَنَأْخُذِ الأَشْياءَ الَّتي نَحْتاجُها لِلْقِيامِ بِمُغامَراتٍ بَيْنَ الهُنودِ الحُمْرِ وَذَلِكَ لِأَسابيعَ قَليلَةٍ .»

قُلْتُ : « إِنَّ هَذا يُناسِبُني . وَلَكِنّي لا أَمْلِكُ مالاً ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّني لَنْ أَحْصُلَ عَلى شَيْءٍ مِنْهُ ، فَرُبَّما يَكونُ أَبي قَدْ عادَ ، وَأَخَذَ كُلَّ مالي مِنَ القاضي تاتشر .»

قالَ توم : « لَمْ يَأخُذْ شَيْئًا . إنَّ مالَكَ كُلَّهُ هُناكَ .. سِتَّةُ آلافِ دولارٍ أَوْ يَزيدُ ، فَأبوكَ لَنْ يَعودَ مَرَّةً أُخْرى . »

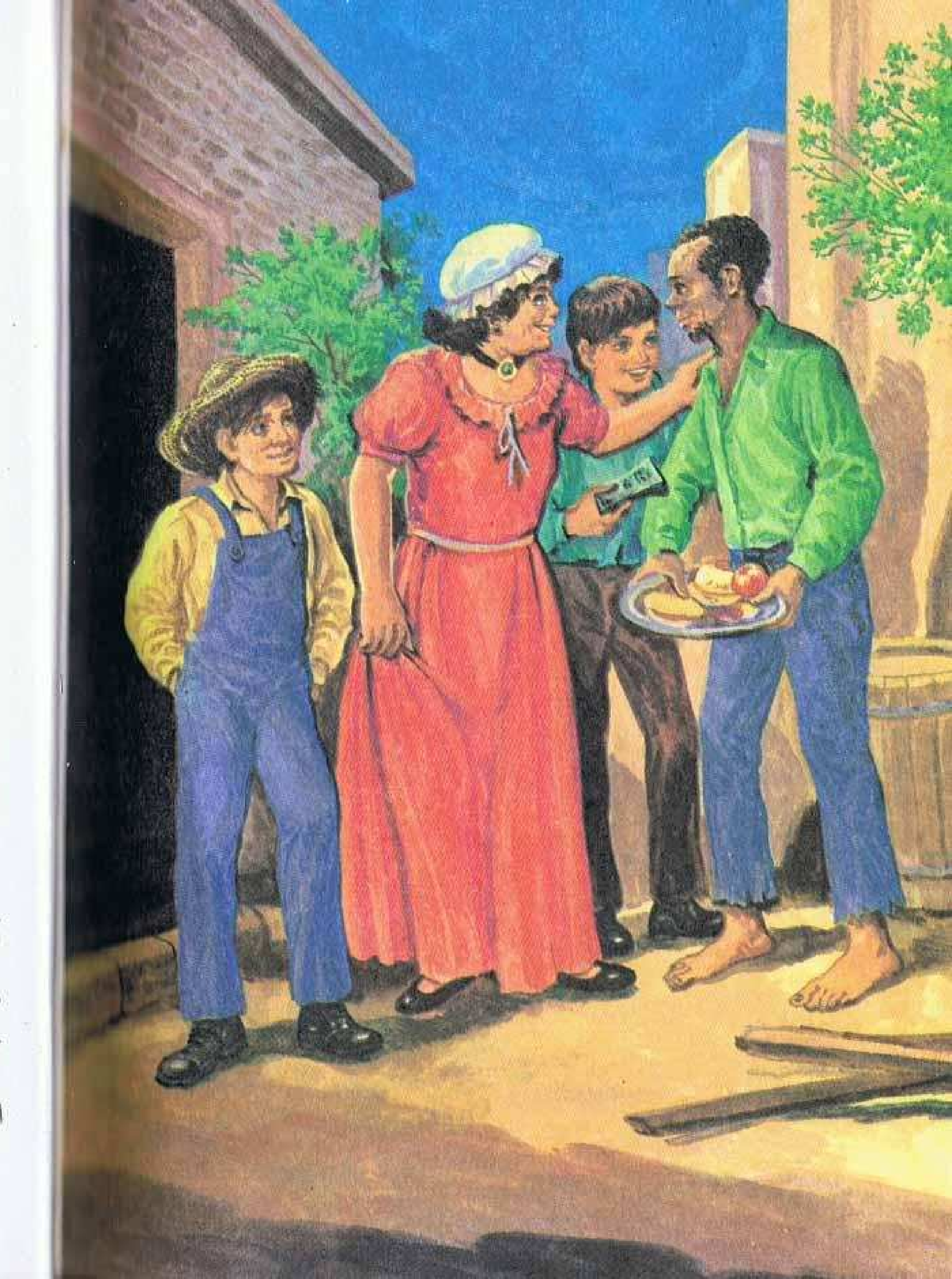
قالَ جيم : « أبوكَ لَنْ يَعودَ أبَداً ، يا هَكْ . »

قُلْتُ : « لِماذا ، يا جيم ؟ »

قالَ : « هَلْ تَتَذَكَّرُ المَنْزِلَ الخَشَبِيَّ الَّذي كانَ طافِيًا فَوْقَ النَّهْرِ ؟ كانَ بِهِ رَجُلٌ مَيِّتٌ ، وَلَقَدْ أَلْقَيْتُ على وَجْهِهِ بِبَعْضِ المَلابِسِ القَديمَةِ . تَسْتَطيعُ أنْ تَحْصُلَ على أَمْوالِكَ مَتى تُريدُ ، فَهَذا الرَّجُلُ كانَ أباكَ . »

تَحَسَّنَتْ صِحَّةُ توم ، وَ وَضَعَ الرَّصاصَةَ الَّتي أُخْرِجَتْ مِنْ رِجْلِهِ في سِلْسِلَةِ السّاعَةِ وَعَلَّقَها حَوْلَ عُنُقِهِ ، وَكانَ يَراها كُلَّما نَظَرَ في السّاعَةِ لِيَرى الوَقْتَ .

لَقَدِ انْتَهى كُلُّ شَيْءٍ ، وَلَمْ يَعُدْ هُناكَ ما أَكْتُبُ عَنْهُ ، وَإنَّني لَفي غايَةِ السُّرورِ الآنَ بَعْدَ أنْ فَرَغْتُ مِنَ الكِتابَةِ ، فَلَوْ كُنْتُ أَعْرِفُ ما سَأُكابِدُهُ مِنْ مَشَقَّةٍ في تَدْوينِ هَذا الكِتابِ لَما شَرَعْتُ في كِتابَتِهِ. وَإنَّني أَعْتَقِدُ أنَّني سَأنْطَلِقُ ذاهِبًا إلى الهُنودِ الحُمْرِ قَبْلَ الآخَرينَ ؛ لأنَّ الخالَةَ سالي قَرَّرَتْ أنْ تَتَبَنّاني ، وَتَتَوَلّى تَرْبِيَتي



وَتَهْذيبي ، وَأنا لَيْسَ لي طاقَةٌ عَلى احْتِمالِ هَذِهِ التَّرْبيَةِ وَهَذا التَّهْذيبِ ، فَقَدْ عانَيْتُ مِنْهُما الكَثيرَ .

المغامرات المثيرة



مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت

رقم الكمبيوتر 01 C 198230